رحلة في بلاد العرب

الحملة المصرية على عسير
١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م

تأليف

موريس تاميزيه

ترجمه وعلق عليه

د. محمد بن عبد الله آل زلفه

٩٥٣,٠٩٥٣١٥
٥٨١ ت تاميزيه، موريس
رحلة في بلاد العرب: الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م/ تأليف موريس تاميزيه؛ ترجمه وعلق عليه محمد بن عبدالله آل زلفه ـ الرياض: م. ع. آل زلفه، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م
٣٥٨ ص؛ ٢٤ سم
ردمك ٤ ـ ٠٩ ـ ٧٣٨ ـ ٩٩٦٠
١. عسير ـ تاريخ ـ العصر العثماني ٢. الدولة العثمانية ـ تاريخ عصر الضعف
٣. مصر ـ تاريخ ـ عصر محمد علي
٤. الجزيرة العربية ـ تاريخ ـ العصر العثماني
أ. آل زلفه، محمد بن عبدالله، مترجم ب العنوان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ/١٩٩٣م

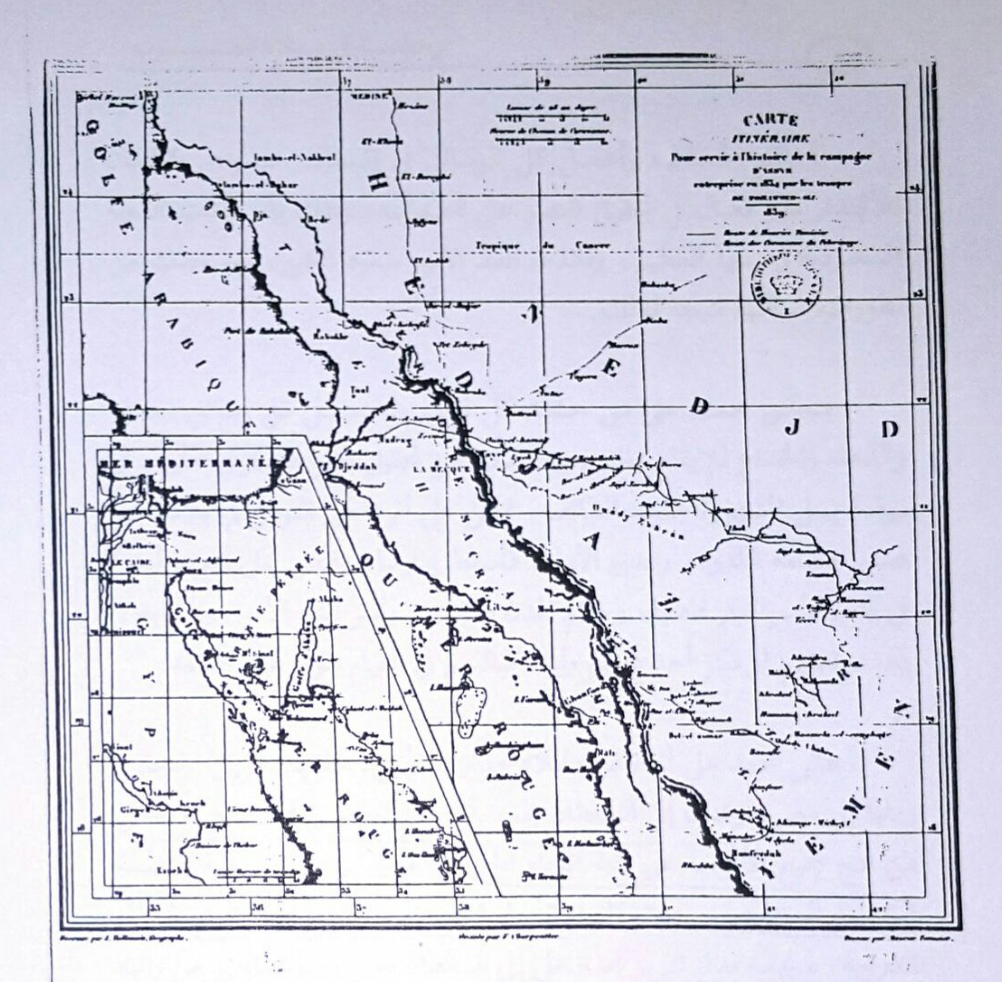
المحتويات

توطئـــــة

الخلفية التاريخية للأحداث

على إثر سقوط الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى عام ١٨١٨م انتقل الثقل السياسي والعسكري من نجد إلى منطقة عسير التي كانت محل أنظار حملات محمد علي باشا منذ الوهلة الأولى، لما كانت تمثله من أهمية استراتيجية لمنطقة الحجاز التي كان الهدف الأول من حملات محمد علي استعادتها من أيدي السعوديين، وإعادتها إلى حظيرة النفوذ العثماني. ومع أن من مهام محمد علي باشا الرئيسية إسقاط الدولة السعودية، بيد أن قواته التي كانت تحت إمرة ابنه طوسون قد اصطدمت بمقاومة جنوبية شرسة، تزعم هذه المقاومة زعماء منطقة عسير الذين أصبحوا ومنذ انضمامهم إلى الدولة السعودية يكونون أهم ركائز قوتها.

فمكث طوسون باشا طوال الثلاث السنوات التي تلت احتلاله للحجاز في حروب ضروس مع المقاومة العسيرية التي لم تمكنه من اجتياز أسوار مدينة الطائف جنوبًا، وحطمت قوته في القنفذة التي حاول بواسطتها أن يخترق الأراضي العسيرية عام ١٨١٣م، وأصبحت قوة المقاومة العسيرية تهدد الوجود العثماني المصري في الحجاز نفسه، وأمام هذه المخاوف من قبل محمد علي باشا الذي أضحى استمرار نفوذه في مصر مرهونًا بتحقيق النصر على أعداء الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، والحفاظ على ما أضفى على شخصه من هالة كبرى في أعين العثمانيين وغيرهم من استعادة سيطرة الدولة على الأراضي المقدسة، لهذه الأسباب لم يجد مفرًا من القدوم إلى الحجاز بنفسه، وعلى رأس قوات كبيرة، وعُدد حديثة لمجابهة المقاومة العسيرية في الدرجة الأولى، وإزالة المخاطر المحدقة بفقدان مكاسبه في الحجاز.



● خريطة المؤلف ـ خط سير الرحلة

فأحكم الخطط، وأعمل كل الوسائل في إضعاف خصومه. كما كان للأقدار دور فعال في تحقيق النصر على أعدائه، وذلك بأن فقدت الدولة السعودية زعيمها العظيم، وقائدها الفذ الأمير سعود الكبير، وما حدث من تطورات سياسية نتيجة لذلك.

فتمكَّن محمد علي من حشد كل قواه، واستعمل كل وسائل الذّكاء والدّهاء والخداع للإيقاع بخصومه، وتمكّن من تحقيق نصر عسكري عليهم في موقعة بسل المشهورة جنوب الطائف، تمكن على أثرها من التوغل في بلاد إمارة عسير خصمه اللدود، وعدوه الأول، فأسقط إمارتها، وقبض على أميرها أسيراً في يده، وأسر كبار قادتها، وحطم المدن والقرى، وأسر أبناء الأمراء والمشايخ، وهدد بقتلهم لو فكر أحد ذويهم وأبناء قبائلهم في القيام بثورة ضد حكمه.

عانى محمد علي أثناء غزوه لبلاد عسير الأمرّين، عاد بعدها إلى الحجاز، ومنها إلى مصر، وكتب إلى السلطان يخبره بأنه بقضائه على إمارة عسير قد تمكَّن من فتح جميع الأبواب على بقية أنحاء الجزيرة العربية بما فيها الدرعية عاصمة الدولة السعودية. حيث قال: إنه بإسقاط عسير أصبح الطريق سهلاً إلى الدرعية. لم يجف مداد تقرير محمد علي إلى السلطان حتى وصلته تقارير من واليه على الحجاز يخبره باندلاع الثورة في عسير وطرد حامياته من كل أنحاء الإقليم.

سارع محمد علي باشا إلى تجهيز ابنه إبراهيم باشا للقضاء على الدرعية في الوقت الذي كان الثوار في عسير منشغلون في إجلاء قوات محمد علي عن بلادهم، ليس من عسير السراة فحسب، بل امتد نفوذهم إلى استقطاب شريف أبو عريش إلى جانبهم، وكان فيما قبل ذلك قد حالف محمد علي، فاتسعت الرقعة على جيوش محمد علي مع أنه لم يتوان في إرسال الحملة الواحدة تلو الأخرى للقضاء على ثوار عسير.

تمكَّن إبراهيم باشا من إسقاط الدرعية، وأسر أميرها الإمام عبدالله بن سعود بعد مقاومة ضارية قام بها سكان الدرعية التي ظلت محاصرة ستة أشهر.

وما أن سقطت الدرعية واضطربت أحوال نجد، وضعفت فيها المقاومة حتى تحوَّل الثقل إلى عسير، حيث أخذ قادة الثوار هناك زمام مبادرة التحدي والتصدي لمطامع محمد علي في الجزيرة العربية. وأصبح يخشى من تنامي الخطر العسيري، فكثّف من حملاته على تلك الإمارة الصامدة التي أصبحت قبل تشكُل المقاومة في نجد بقيادة تركي بن عبدالله تُشكِّل الخطر الرئيسي - إن لم يكن الوحيد - على تحطيم أحلامه، وما هذه الحملة التي اشترك فيها كاتب رحلتنا هذا إلا حلقة في سلسلة طويلة من الحملات العسكرية على منطقة عسير التي صمدت لوحدها في مواجهة جحافل محمد علي الذي تمكَّن من استقطاب معظم القوى في الجزيرة العربية إلى جانبه. فكانت إمارة عسير إضافة إلى مواجهة قوات محمد علي تتصدّى لمؤامرات الجيران الأقربين. إمام اليمن الضعيف من الجنوب، وشريف أبو عريش من الغرب، والقوات الغازية بالتواطيء والتآمر من أشراف الحجاز من الشمال. والعلاقة بين إمارة عسير وإمارة نجد شبه منقطعة، حيث كان تركي بن عبدالله مشغولاً بإعادة توحيد صفوف أهالي نجد الذين انفرط عقدهم، وضعفت مقاومتهم بعد سقوط دولتهم.

هذا موجز خلفيات الصراع الذي سبق قيام هذه الحملة.

مقدمة

تعرضت الجزيرة العربية في العقد الأول من القرن التاسع عشر الميلادي العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري لحملات عسكرية منظمة لم تشهد لها مثيلاً في تاريخها من قبل. ولم تقتصر تلك الحملات على جزء دون آخر، وكانت مصر منطلق تلك الحملات، وواليها مدبرها ومنفذها. ومن تلك الحملات ما كان بأمر من السلطان العثماني للقضاء على الدولة السعودية ونفوذها الذي امتد ليشمل معظم أنحاء الجزيرة العربية؛ وفي هذا ما فيه من تحد لنفوذ الدولة العثمانية وسلطتها. ومنها ما كان بدوافع ذاتية من لدن حاكم مصر ذاته الذي أعلن في فترة من حكمه على مصر استقلاله عن السلطان العثماني، وعمل على توسيع نفوذه وأحكام هيمنته وسيطرته على الجزيرة العربية وبلاد الشام والسودان، مسخرًا من أجل تحقيق طموحاته المتمثلة في بناء دولة مستقلة قوية مركزها مصر، كل إمكانات مصر البشرية والاقتصادية لخدمة وتحقيق تلك الطموحات.

لم يقتصر محمد علي باشا على توظيف القوى البشرية المصرية، ولا تلك العناصر المرتزقة من أتراك وألبان ومغاربة، بل وظف في خدمة مؤسسته العسكرية مرتزقة وخبراء وأصحاب اختصاص من جنسيات أوربية مختلفة، مستثمرًا فشل مشروع نابليون بونابرت في توحيد أوربا والقضاء عليه، وعلى مشروعه بواسطة قوى التحالف الأوربي بقيادة بريطانيا. فوجد العديد من جنود وضباط وأطباء وخبراء جيش نابليون مجالاً للخدمة في جيش محمد علي باشا، منهم من ظل في مصر بعد فشل حملة

نابليون على مصر، ومنهم من قدم إلى مصر بعد سقوط نابليون بعد معركة واترلو ١٨١٥م للبحث عن عمل في خدمة الباشا .

فإذا كانت الجزيرة العربية لم تتعرض لحملات عسكرية أجنبية على مدى قرون طويلة خاصة في أجزائها الداخلية والجبلية الجنوبية فإن تلك الأجزاء ظلت مجهولة غير معروفة من لدن الأوربيين بالأخص إلى أن جاء محمد علي بجحافله تجوس خلال الديار مصحوبة بأعداد من الأوربيين لم تطأ أقدام أحد من أسلافهم أرض هذه البلاد من قبل. ولذا اعتبرت هذه الفترة ـ أي فترة حملات محمد علي باشا على الجزيرة العربية وهي الفترة الممتدة ما بين ١٨١١ ـ ١٨٤٠م ـ بداية عصر استكشاف مناطق جديدة بالنسبة للأوربيين لم تكن معروفة لهم من قبل مطلقًا. ولعل هذا ما حدى بالباحثة الفرنسية المعروفة جاكلين بيرن ـ التي أرّخت للرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية ـ بأن أطلقت على كتابها عنهم اسم : «اكتشاف جزيرة العرب» .

لقد ترك البعض من هؤلاء الأوربيين الذين رافقوا حملات محمد علي في الجزيرة العربية أعمالاً تسجيلية لما شاهدوه من بلدان وتدوين للوقائع الحربية التي كانوا مشاركين فيها منها ما هو معروف، ومنها مازال مجهولاً، منها ما طبع، ومنها مازال مخطوطًا، منها ما ترجم ـ وهو القليل ـ ومنها مما لايزال في لغته الأصلية وهو الأكثر. وهناك أعمال أكاديمية مهمة ألفها بعض الباحثين الأوربيين خلال هذه الفترة، وخاصة الفرنسيين، معتمدين فيما قاموا به من تأليف على ما وفره لهم زملاؤهم الذين رافقوا الحملات العسكرية من معلومات؛ خاصة الجغرافية والتاريخية، والحديث عن هذه الأعمال قد يطيل مقدمة عملنا هذا الذي نحن بصدد تقديمه إلى القارىء العربي لأول مرة في اللغة العربية، وهو الوحيد عن منطقة عسير خلال فترة ما تسميه جاكلين بيرن «بالاكتشاف». ولكن مؤلف كتابنا هذا لم يكن أول

أوربي ممن رافقوا حملات محمد علي باشا على منطقة عسير، ولكنه أول أوربي يدون يومياته عن تلك الحملة التي رافقها عام ١٨٣٤م كاتبًا للبعثة الطبية. ويكتب ملاحظاته على كل ما شاهده وسمعه عن تلك المنطقة. وربما هناك من الأعمال بالنسبة لغيره من الأوربيين ولكنها لم تصل إلينا أو لم تكتشف بعد.

ولكي لا نغمط محاولة قام بها قبله زميل له من إيطاليا كان من أوائل الأوربيين الذين جندهم محمد علي في حملاته المبكرة على منطقة عسير ويدعى جيوفاني فانتاني الذي كان مجندًا في جيش نابليون ثم ساقه قدره للوقوع في الأسر في أيدي الجيش العثماني في منطقة حدودية مع النمسا فسيق إلى ألبانيا ومنها قادة قدره إلى مصر حيث توظف في جيش الباشا الذي كان على رأسه ابنه طوسون إلى الحجاز في عام ١٨١١م. ومن الحجاز تحرك جيوفاني مع فرقة كاملة للاستيلاء على ميناء القنفذة، وهناك داهمت قوات الأمير طامي بن شعيب أمير عسير تلك الفرقة فبددتها ولاذ من نجى من أفرادها إلى الهرب برًا وبحرًا، ومن ضمن الناجين الهاربين جيوفاني الذي قطع المسافة مشيًا على الأقدام من القنفذة إلى مكة المكرمة. فأملى فيما بعد ذكرياته في خدمة الباشا بعد هذه الحادثة بعدد من السنين على نبيل بريطاني كان يتاجر في الخيول بمصر وبلاد الشام، فضمّن تلك الذكريات ما شاهده، وما حدث له في خدمة الباشا في الجزيرة العربية وخاصة القصة الدرامية التي حدثت له ولفرقته في القنفذة وطريقة هربه إلى مكة وما صاحبها من مشاق . قام هذا النبيل البريطاني بنشر قصة جيوفاني في لندن عام (١٨٢٨م).

المؤلف:

حاولت جاهدًا معرفة تفاصيل حياة مؤلف هذا الكتاب السيد موريس تاميزيه فلم أجد ما يدلني على ذلك. فالمصادر التي أشارت إليه والباحثون الذين اقتبسوا من مؤلفه هذا لم يزودنا بشيء عن حياته مثل مكان ولادته، ونشأته ودراسته، وبداية اهتمامه بالشرق، وقصة وصوله إليه، واهتمامه به.

كل هذه التساؤلات لم نجد لها جوابًا حتى لدى البرفيسورة جاكلين بيرين ابنة بلده وصاحبة المؤلف المهم عن الرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية، وهي أول من قدّم لنا هذا المؤلّف الشاب كقراء عرب من خلال عمله هذا خاصة الجزء المخصص لعسير، واعتبرت أن ما قدّمه يُعد كشفًا. وكنت أظن أنها ستكون أكثر الباحثين اهتمامًا بالتعريف بهذا الشاب بيد أنها لم تذكر من حياته شيئًا في مؤلفها الآنف الذكر. وكنت أظن أيضًا أن هذا الجانب من حياة المؤلف أهمل في كتابها سهوًا أو سقطًا عند الطبع وكنت أعتزم الكتابة إليها في باريس للاستفسار عن حياة هذا المؤلف بعد أن يئست في العثور على ما يدل على حياته في المصادر المتوافرة عن أسماء المؤلفين أو الرحّالة. ولكن شاء القدر أن أحضر ندوة دولية أعدتها جامعة صنعاء في الجمهورية اليمنية بمناسبة مرور ألف سنة على وفاة العلامة الهمداني، وذلك في أوائل عام ١٩٨١م، وهناك في صنعاء التقيت بالسيدة جاكلين بيرين إحدى المشاركات في تلك الندوة، فكنت فرحًا بلقائها كفرحي بحضور الندوة نفسها، وبعد التعرف عليها كان أول سؤال: ما هي المعلومات التي يمكن أن نعرفها عن حياة تاميزيه. فكان جوابها مخيبًا لآمالي حين قالت: «بأنها لم تجد فيما رجعت إليه من مصادر أي شيء عن هذا المؤلف، ولذا اكتفيت بالحديث عن كتابه فقط».

أما كل ما نعرفه عن عمر هذا المؤلف حين قدومه للجزيرة العربية

فهي فقط تلك الإشارة التي وردت في ثنايا جواب لسؤال وجهه إليه الشيخ علي الصعيري أحد شيوخ بيشة البارزين، وأحد الذين أجرى معهم المؤلف حوارًا طويلاً، حينما سأله عن عمره فقال: إنه يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، وذلك في عام ١٨٣٤م، وبذلك نستنتج أن تاريخ ولادته هو عام ١٨١٢م.

ومن الواضح أن موريس كان ملمًا باللغة العربية قبل وصوله إلى الجزيرة العربية، وهذا يظهر جليًا من حواراته مع الأمير دوسري أبونقطة أحد الأمراء العسيريين الذي أُخذ أسيرًا إلى مصر في عام ١٨١٤م. ويظهر أن لكنته في التحدث باللغة العربية تشبه لكنة عرب مالطة، وهذا ما دعا دوسري إلى الاعتقاد بأن تاميزيه في بداية تعرفه عليه من جزيرة مالطا.

أما ثقافة موريس العلمية خاصة في علم النبات والحيوان فتبدو جيدة؛ وكذلك علم الجيولوجيا حيث كان يقارن بين ما كان يشاهده من نباتات وحيوانات وطيور أثناء رحلته بمثيلاتها في أوربا وأتى على ذكر مسمياتها العلمية. وكذلك ثقافته التاريخية والجغرافية كانت جيدة أيضًا.

إن هذا الرحّالة الشاب الذي زار الجزيرة العربية في عام ١٨٣٤م، وزار الحبشة في عام ١٨٣٦م، وكتب عن رحلاته في هذه البلدان، ونشرت أعماله في باريس عن هذه الرحالات، رحلة في بلاد العرب عام ١٨٤٠م، ورحلة في بلاد الحبشة سنة ١٨٣٨م. ومع أهمية هذين العملين إلا أنه ظل من الرحالة المجهولين، ولم يحظ بالشهرة التي حظي بها أقرانه من رحّالي عصره، ربما لسبب حداثة سنه أو ربما لأسباب أخرى لا نعرفها.

قصتي مع هذا الكتاب

تعود معرفتي بهذا الكتاب إلى سنوات ما قبل دخولي الجامعة، حينما قرأت في إحدى المجلات اللبنانية تعريفًا بكتاب قامت بتأليفه الأستاذة الفرنسية جاكلين بيرين عن حياة الرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزيرة العربية، وقام بترجمته قدري قلعجي إلى اللغة العربية، وقدم له الشيخ حمد الجاسر، وكنت حينذاك وأنا مازلت في المرحلة الثانوية شغوفًا بما يكتب عن الجزيرة العربية. ومثل هذا الكتاب المتخصص لم تكن أي من مكتبات الرياض التجارية مع قلتها في ذلك الوقت ـ حريصة على جلبها بما فيها تلك المتعلقة بالجزيرة العربية، وحينما لم أجده في الرياض طلبت من أحد أصدقائي الذي كان كثير السفر إلى بيروت أن يحضر لي ذلك الكتاب، وكنت سعيدًا باقتنائه، وكان به فصل ممتع عن منطقة عسير تحت عنوان «اكتشاف منطقة عسير» وكانت معظم المعلومات المستقاة في هذا الفصل مما كتبه رحالتنا موريس تاميزيه. ومنذ ذلك الحين كنت أبحث عن كتاب موريس نفسه. وأثناء التحاقي بالجامعة تحدثت إلى أساتذتي السعوديين وغيرهم. خاصة أولئك الذين درسوا في أوروبا عن هذا الكتاب وعن مؤلفه فلم يكن لدى أحد منهم علم به خاصة وأن الكتاب طبع في عام ١٨٤٠م وربما لم يعاد طباعته مرة أخرى فأصبح في عداد الكتب النادرة التي لا توجد إلا في المكتبات الكبرى مثل المكتبة الوطنية في باريس، ومكتبات الجامعات الكبرى، مثل السوربون وكمبردج وما على غرارهما.

ظل هذا الكتاب في خاطري، وزاد اهتمامي به أكثر حينما حددت مجال اختصاصي في دراسة التاريخ، والحديث عنه بشكل عام وتاريخ

دراساتي العليا في التاريخ الحديث. واستقر بي المقام في جامعة كنساس. ذهبت إلى مكتبة تلك الجامعة وهي مكتبة كبيرة أبحث عن كتاب رحلة موريس تاميزيه إلى جزيرة العرب فلم أجده ضمن مقتنيات المكتبة ولا ضمن قسم المقتنيات من الكتب النادرة.

ولكن التسهيلات المكتبية التي تقدمها مكتبات الجامعات الأمريكية، وكذلك الأوربية للباحثين تعد تسهيلات منقطعة النظير، نفتقدها في مكتبات جامعاتنا العربية، وربما هذا من أحد أسباب تدهور البحث العلمي في بلادنا.

حيث هون القائمون على شئون المكتبة الأمر عليّ، ووعدوا بأنهم سيبحثون عنه في مكتبات الجامعات الأخرى، وذلك من خلال نظام ما يسمونه الإعارة من خلال المكتبة Inter Library Laon .

وأبلغوني بأن البحث عنه قد يستغرق بضعة أسابيع، وفعلاً لم يمض إلا أقل بقليل من الأسابيع الأربعة إلا وصلتني على عنواني بالجامعة رسالة من المكتبة يشعرونني بأنهم عثروا على الكتاب. وبما أنه كتاب نادر فلا يحق لي استعارته خارج المكتبة، ويبقى اطلاعي عليه داخلها فقط. وفي قسم الكتب النادرة، وإن بالإمكان الحصول على نسخة مصورة منه إذا أردت، وكم كانت ساعدتي بالحصول عليه، ولكن معرفتي باللغة الفرنسية لغة الكتاب متواضعة لا تزيد على ما تعلمناه خلال سنة واحدة في الثانوية العامة حيث ألغي تدريس اللغة الفرنسية، ولم تعد إجبارية؛ كما كانت في سنوات من سبقوني في الثانوية العامة!!.

كانت الجامعة أي جامعة كنساس تقدم دروسًا في اللغة الفرنسية معدة خصيصًا لطلاب الدراسات العليا الذين قد تضطرهم بحوثهم إلى الاستعانة بمصادر أو مراجع فرنسية، وهي دروس مكثفة تمكن الطالب من معرفة القراءة، ولا تركز على غير ذلك. التحقت بإحدى هذه الدورات

المكثفة، استفدت منها، ولكن ليس لدرجة تمكنني من ترجمة هذا العمل كاملاً إلى اللغة العربية، وكنت حريصًا على اشتراك أبناء بلدي وأبناء لغتي في قراءة هذا الكتاب.

وحينما لم أجد وسيلة إلا أن أدفع بالكتاب وهو مكون من جزءين - وسوف أعود إلى الحديث عن الكتاب نفسه فيما بعد - إلى متخصص في اللغة الفرنسية وطلبت منه أن ينقله على حسابي إلى اللغة الإنجليزية، ومن ثم سأتولى بعد ذلك ترجمته منها إلى العربية. وبما أن تكاليف الترجمة مرتفعة جدًا فقد اقتصرت الترجمة على الجزء الثاني من الكتاب وهو المتعلق بمنطقة عسير على أمل أن تكمل ترجمة الجزء الأول وهو ما يتعلق بمنطقة الحجاز، وهذا ما حدث؛ ولكن بعد انتقالي إلى جامعة كمبردج ببريطانيا بعد حصولي على الماجستير من جامعة كنساس.

إن استمتاعي بقراءة الجزء الخاص بعسير جعلني دائم التفكير في إشراك الآخرين معي، وعلى الرغم من مشاغلي الدراسية وكثرة الترحال بحثًا عن مصادر بحثي لدرجة الماجستير والدكتوراه التي امتدت لتشمل بلدانًا مختلفة لم تثنيني كل هذه المشاغل والمتاعب مع جسامتها عن ترجمة هذا الجزء من هذا الكتاب إلى اللغة العربية. شرعت في الترجمة، ولكن على فترات متقطعة تمت - ولله الحمد - بعد حصولي على درجة الدكتوراه وعودتي للعمل في جامعة الملك سعود.

وهنا راجعت الترجمة في صيغتها النهائية مع الأستاذ الدكتور جلال يحيى أستاذ التاريخ الحديث زميلنا سابقًا بقسم التاريخ والضليع في اللغة الفرنسية للتأكد من سلامة النص الإنجليزي المترجم من النص الفرنسي ومطابقته له والذي منه - أي النص الإنجليزي - تم النقل إلى العربية، فازددت طمأنينة إلى سلامة العمل. وكان من المفروض أن أدفع به إلى

المطبعة منذ وقت، ولكن كثرة مشاغلي البحثية وزحمة التدريس وغيرها من الظروف أخرت خروج هذا العمل إلى النور.

وبعد الانتهاء من الترجمة وطباعتها على الآلة الكاتبة خرجت علينا مجلة العرب الغراء التي يملكها ويشرف على تحريرها شيخنا حمد الجاسر بحلقتين مختصرتين عن هذا الكتاب قام بترجمتها يوسف شلحد المقيم في باريس، وبتكليف من الشيخ حمد. وكنت قبل ذلك بفترة طويلة قد حدثت الشيخ حمد بشروعي في ترجمة هذا الكتاب، وأنني على وشك الانتهاء منه، وعرضت عليه نشره على حلقات في مجلة العرب ولكن فوجئت به ذات ليلة في حفلة توزيع جائزة الملك فيصل يقول: اكتشفت كتابًا مهمًّا عن «بلدك» يعني عسير، وستنزل الحلقة الأولى منه في مجلة العرب في العدد القادم. فقلت يا شيخ: تعلم أنني قد انتهيت من ترجمة هذا الكتاب، وعرضت عليك نشره في مجلتك وأجدد العرض مرة أخرى، فكان محتدًّا في جوابه على غير عادته في تعامله معي كأحد أبنائه، أكن له كثيرًا من الاحترام والود، دعك عن التقدير والاعتراف له بالريادة فيما قدمه من خدمة لتاريخ وجغرافية هذه البلاد. وإيماني بأننا كلنا نعمل ونجتهد لما فيه خير وصلاح هذه البلاد والإسهام كل بقدر استطاعته في البحث عن الحقيقة وإجلاء ما يلف تاريخ هذه البلاد من غموض سببه في الدرجة الأولى تقصير الباحثين من جهة وعدم الدعم والتشجيع الكافيين لهم.

الكتـــاب

طبع الكتاب لأول مرة في باريس عام ١٨٤٠م، في مجلدين يقعان في سبعمائة وثلاثة وتسعين صفحة تحت عنوان: Voyage en Arabie رحلة في الجزيرة العربية يتكوّن الجزء الأول الذي يحمل عنوان التوقف في الحجاز

Sejour Dans le Hedjaz ٣٩١ صفحة. أما الجزء الثاني وهو بعنوان: الحملة على عسير Campagne D'Assir فيتكون من ٤٠٢ صفحة وهو الجزء الذي بين يدي القارىء الكريم، أعيد طباعته في فينًا في عام ١٩٧٦م، وجاء في طبعته الجديدة - وهي مصورة من الطبعة الأولى - في مجلد واحد أي طبع المجلدان في مجلد واحد من القطع الصغير.

والكتاب في طبعته الأولى ينقسم إلى عدد من الفصول، يشتمل الجزء الثاني الذي بين يدي القارىء على خمسة عشر فصلاً، أضفت إلى فصول هذا الجزء الفصل الأخير من فصول المجلد الأول حيث إنه يشكل بداية طبيعية لهذا الكتاب إذ تحدث فيه المؤلف عن أسباب المواجهات بين إمارة عسير ومحمد علي كما تحدث عن الخلفيات التاريخية والجغرافية لمنطقة عسير وإمارة أبوعريش، ولهذا أصبح ذلك الفصل يشكل الفصل الأول من كتابنا هذا وأعيد ترتيب بقية الفصول على هذا الأساس، حيث أصبحت فصول هذا الكتاب في ترجمته العربية ستة عشر فصلاً.

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف قد أشار في الجزء الثاني من كتابه - أي هذا الكتاب - إلى أنه قد خص منطقة عسير بدراستين مستقلتين. الأولى: عن جغرافية الإقليم. والثانية: عن تاريخه وأشار إلى أنه اقتصر فيما أورده في كتابه هذا على أحوال الحملة العسكرية التي هو أحد أفرادها. ولكن بعد بحث طويل عن هذين العملين لم أتمكن من العثور عليهما، وربما بالمزيد من البحث والاستقصاء عن أعمال هذا المؤلف قد تكشف لنا ما لم نتمكن من العثور عليه حتى الآن. وعالم البحث في دور المحفوظات الفرنسية وفي مجموعات الفرنسيين الخاصة لم تكن محل اهتمام الباحثين السعوديين، بالرغم من أهمية ما يحتوي عليه أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، وكذلك أرشيف البحرية من وثائق تتعلق بأحداث قيام الدولة السعودية الأولى، وتوسع نفوذ تلك الدولة التي شمل معظم أنحاء الجزيرة العربية.

وما تلى ذلك من اهتمام الباحثين الفرنسيين بأحوال الجزيرة العربية حتى بعد سقوط الدولة السعودية الأولى التي أسهم الخبراء الفرنسيون العسكريون خاصة في إسقاطها أثناء عملهم في خدمة محمد علي باشا ومشاركتهم في كثير من حملاته العسكرية، بدءًا بحملة إبراهيم باشا على الدرعية عام ١٨١٨م، ودور هؤلاء الخبراء في رسم الخرائط لطرق الحملة، وتحديد المواقع على تلك الخرائط، وكتابة تقارير مطولة عن أحوال البلاد الاقتصادية والسكانية وغيرها. فكانت تقاريرهم المادة الأولية التي استقى منها من تفرغ من الفرنسيين لكتابة تاريخ وجغرافية مصر في عهد محمد علي باشا، وما امتد إليه نفوذه من بلدان خارج مصر مثل المؤرخ مانجان F. Mengin وإدوارد جوان Edward Jouen والجغرافي جومارد M. Jomard .

وكذلك لم تخل حملة من حملات محمد علي العسكرية على عسير- والتي قدرتها بعض المصادر سبع عشرة حملة - من خبراء فرنسيين إضافة إلى غيرهم من خبراء أوربيين من جنسيات أخرى. ومن المؤسف أن تقارير [illegible] اهتمام الباحث السعودي، ولم ينفض عنها [illegible] إلى حين هذا التاريخ، مما سيكون لكشفها من أثر بالغ على سد مازال ناقصًا من كتابة تاريخنا الوطني، وإجلاء مازال غامضًا في بعض فتراته.

كما أنه لم يترجم أي من أعمال المؤرخين أو الجغرافيين الفرنسيين المتعلقة بالجزيرة العربية ما عدا كتاب واحد هو كتاب إدوارد جوان والذي جاء مشتملاً على فصول ممتعة ومهمة لحملات محمد علي المبكرة على الجزيرة العربية، فقد تم ترجمته إلى اللغة العربية وطبع في القاهرة عام ١٩٣١م. ولكنه أصبح في عداد الكتب النادرة.

أهميــة الكتـــاب

تعود أهمية هذا الكتاب إلى أنه اشتمل على سجل متكامل لوقائع واحدة من أكبر حملات محمد علي باشا على منطقة عسير منذ بدايتها إلى نهايتها والتي تمت بتوقيع إعلان هزيمة قائدي الحملة أحمد باشا والشريف محمد بن عون، وتوقيع وثيقة اعترافهما باستقلال عسير. وذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر سبتمبر ١٨٣٤م في مدينة أبها حيث أصبح ذلك اليوم من الأيام الخالدة في تاريخ إمارة عسيرة.

وبهذا التدوين الدقيق لوقائع الأحداث التي سجلها الرحالة تاميزيه تكون هذه الحملة واحدة إن لم تكن الحملة الوحيدة التي سُجلت وقائع أحداثها بهذه الدقة وبهذا الكم من المعلومات عن طبيعة البلاد والسكان والقرى والقبائل التي مرت بها الحملة، إضافة إلى ما أورده عن الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية التي صاحبت الحملة منذ بداية [illegible] الطائف.

ومما يزيد من أهمية هذا الكتاب ما يسده من نقص في معرفتنا التاريخية عن الأحوال السائدة في هذه المنطقة خلال فترة الحملة، وما كشف عن بعض الشخصيات البارزة في المنطقة وأدوارها ما كنا نعرف عنهم إلا النذر القليل قبل هذا الكتاب مثل التعريف بالأمير دوسري أبونقطة، وسلطان بن عبده شيخ بني مالك عسير وعلي الصعيري شيخ بن سلول من بيشة ورفيدي أحد شيوخ بللسمر الذي لم نكن نعرف له ذكرًا من قبل، وإلقاء مزيد من التفاصيل على مكانة الشيخ مشيط شيخ شهران ودوره البارز في تاريخ عسير. ناهيك عما أورده عن الأمير عايض بن مرعي أمير عسير الذي تولى الإمارة عشية الإعداد لهذه الحملة ودوره البطولي والقيادي في الدفاع عن بلاده ومحاولاته تجنيبها ومعرة الصراع والحرب مع قوات محمد

علي، وذلك من خلال مشروعاته المختلفة والمتكررة لطلب الصلح مع قادة الحملة وإصراره على رفض أي صلح لا يضمن لعسير استقلالها ووحدة ترابها.

هذا إلى جانب ما تعرض له هذا الكتاب من صراع خفي بين قائدي الحملة أحمد باشا ومحمد بن عون وما يهدف كل منهما إليه من تحقيق أهداف سياسية على حساب الآخر، وأثر ذلك على مسار الحملة.

إن هذا الكتاب يكشف لنا جسامة معاناة أهلنا في عسير وضخامة ما تحمّلوه من أرزاء ومحن وتشريد وتقتيل، وتدمير للقرى وإحراق للمزارع، وقتل للأسرى، ومع ذلك ظلوا صامدين طالما في صمودهم ضمانة لاستقلال بلادهم.

ولم يغفل المؤلف ما عاناه، شباب مصر الذين غرر بهم محمد علي بل أخذهم جبراً من أحضان أمهاتهم ليسوقهم إلى قدرهم المجهول في متاهات الجزيرة العربية وقد زودنا المؤلف بوصف مؤلم لما قاسوه من لوعة الغربة ومشقة السفر وهلع من مواجهة الأعداء حيث لم يكن أحد منهم يؤمن بالقضية التي زُج به في مواجهتها.

كما زودنا بمعلومات عن فرق جنود المغاربة التي كانت تُجند كجنود مرتزقة في جيش الباشا، ذهبوا إلى تلك الحرب تحت وطئة الديون ورغبة في تسديدها لمرابي تجار القاهرة، فنراهم يندفعون في سبيل الحصول على المغانم ـ لمواجهة الموت بشكل تدميري عنيف وبنفوس لا تعرف الرحمة ولا تقيم للمعايير الإنسانية أية حساب لأنها هي واقعة تحت نير الظلم والاضطهاد وطائلة الديون التي يتوجب عليهم سدادها وبأي ثمن، يدفع ثمنها روحه، ويُزهق من أجلها روح من يقابله دونها شفقة أو رحمة.

منهج المؤلف في الحصول على المعلومات

يذكر المؤلف بأنه اعتمد في استقاء معلوماته على الحوار المباشر بينه وبين الأشخاص الذين التقى بهم وحاورهم فيما كان ينوي عمله أو محاولة معرفته لأمر من الأمور سواء كان ذلك الأمر يتعلق بتاريخ حادثة أو علاقة فئة بأخرى أو علاقة الإنسان بالمكان أو معرفة ظاهرة معينة جغرافية أو نباتية أو اجتماعية. وذكر أن هذه هي الطريقة المثلى لمن هو في مثل حالته غريب في ديار غريبة بالنسبة له.

هذا بالإضافة إلى أنه كان لصيق الصلة ببعض كبار القوم والمشاركين في الحملة والعارفين بالظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية لهذه البلاد، مثل الأمير دوسري أبونقطة، والشيخ علي الصعيري شيخ بني سلول من بيشة وغيرهم من قادة وضباط وأطباء الحملة. فكان يستقي المعلومات السياسية المتعلقة بالحملة من المصادر الأولية ـ أي المشاركين في صنعها ـ هذا بالإضافة إلى شدة ودقة ملاحظته، ومتابعة تطورات الأحداث وتدوينها أولاً بأول.

هذا بالنسبة لما يتعلق بكتابة هذا. أما الجزء الأول من كتابه وهو الجزء المتعلق بالحجاز والذي تم نقله من الفرنسية إلى الإنجليزية بواسطة شخص إنجليزي متمكن من اللغتين. والذي لم يتم ترجمته إلى اللغة العربية بعد، وهو ما أرجو أن أقوم به أو أحد المختصين في تاريخ الحجاز الحديث. فإن هذا الجزء الذي يدون فيه المؤلف وقائع رحلته كاملة من مصر إلى حين نزوله في مدينة جدة، ومكوثه بها فترة طويلة حيث استطاع خلالها أن يسجل معلومات قيمة ومهمة عن تاريخ وأحوال هذه المدينة وحياة سكانها والأوضاع الاجتماعية بها. فإنه فيما سجله عنها قد حذي حذو

سلفه الرحالة القدير لويس بوركهارت الذي زار الحجاز في سنة ١٨١٤م ، ومات بالقاهرة سنة ١٨١٧م ، وطبع كتابه في لندن سنة ١٨٢٩م .

وقد استفاد منه خاصة فيما كتبه عن مكة المكرمة التي لم يتمكن رحالتنا تاميزيه من دخولها . وكذلك فيما كتبه عن جمال جبال الطائف وعبق ورودها ونباتاتها المختلفة قد استقى من وصف سلفه بوركهارت بعض ما كتبه عنها . أما وصفه الشيق والممتع والمفيد لمدينة الطائف فإنه يعد مادة تاريخية مهمة ولوحة اجتماعية أخّاذة اعتمد في تدوينها على ملاحظاته وقدرته التصويرية ، ودخوله في حوارات مباشرة مع بعض سكان الطائف .

وبالنسبة لوصفه لمدينة أبوعريش عاصمة المخلاف السليماني فإنه وصف مباشر أثناء زيارته لها في عام ١٨٣٦م مع زميله ومواطنه الرحالة أدموند كمو Edmond Combes وهما في طريقهما إلى الحبشة ، حيث قاما بنشر سِفْر في عدة مجلدات عن رحلتهما هذه اشتملت على معلومات قيمة عن سواحل الحجاز وعسير ومدن وموانىء المخلاف السليماني . وكذلك المدن والسواحل اليمنية وذلك في باريس عام ١٨٣٨م . وقد آثر تاميزيه أن يضمن وصفه لمدينة أبوعريش كتابه الذي خصه بعسير أي كتابنا هذا ، وذلك إكمالاً لوحدة الموضوع المبني على وحدة التاريخ والجغرافيا بين شقي عسير تهامته وسراته .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أتقدم بالشكر لكل من ساعد وأسهم في إنجاز هذا العمل وهم كثر ، ولذلك فلهم مني جزيل الشكر والتقدير .

أما المنهج الذي اتبعته في التعليق فقد أثبّت ما أورده المؤلف من ملاحظات في الهامش على ما هي عليه مع الإشارة إلى ذلك بكلمة «ملاحظة المؤلف» .

أما ما قمت به من تعليق فقد حاولت عمدًا إلى اختصار التعليق إلا بقدر ما يوضح نقطة ربما تكون غامضة خاصة ما يتعلق بالمواقع والأشخاص فالمؤلف لم يكن حريصًا على إيراد أسماء الأشخاص كاملة ، فحاولت التعريف بمن يجب التعريف به وكذلك الأماكن مثل الأودية والمدن والقرى والقبائل لكي تكتمل الفائدة دونما إثقال على القارىء .

كما أن المؤلف لم يكن يضبط كتابة الأسماء بالطريقة التي يضبطها به المؤلفون الأكاديميون مثل جومارد الجغرافي ومانجان المؤرخ ، كما ورد في كتاباتهم من دقة متناهية لأسماء الأشخاص والمواقع ليس في عسير فحسب بل في كل المواقع التي وردت في كتاباتهم عن الجزيرة العربية .

وبما أن رحّالتنا تنقصه الخبرة بحكم حداثة سنه ، وقلة مراسه للعمل الأكاديمي ، أو ربما انعدامه ، فإن ترجمة عمله لن تكون من السهولة لمن لم يكن من هذه البلاد أو يكون عارفًا بشكل جيد بتاريخها وجغرافيتها وأسماء قادتها وقبائلها .

أرجو أن أكون بانجاز هذا العمل ، مع ما قد يكون فيه من تقصير ، قد قمت ببعض ما يمليه عليَّ الواجب تجاه بلدي وأمتي .

راجيًا من الله التوفيق والقبول .

الرياض غرة شهر محرم ١٤١٤هـ
٢١ يونيو ١٩٩٣م

د. محمد بن عبدالله آل زلفه
قسم التاريخ
جامعة الملك سعود

الفصل الأول

(١) الأحداث السياسية التي طرأت على الجزيرة العربية في الآونة الأخيرة - أسباب الحرب ضد البدو - حروب الوهابية - إبراهيم باشا - عسير - مشروع محمد علي - الجنسية العربية - اليمن - إمام صنعاء - علي أمير عسير - خورشيد باشا - تركجة بلماز - شريف أبوعريش - موت علي أمير عسير - أمير عسير (الأمير عايض) حاكم مؤقت لعسير - قوة الحملة المصرية - ما تلى ذلك من أحداث سياسية .....

(٢) وصف مقاطعة أبو عريش - الموقع الجغرافي - المناخ - الأمطار - الرياح - الآبار - درجة الحرارة - الغابات - الأشجار - أعواد السواك - التبغ - الطرف - السنا المكي - الحيوانات - الحبوب - الأمراض - العقارب - البدو ....

(٣) مدينة أبوعريش - الموقع - المزارع - الأسوار - القلعة - العشش - مسكن الشريف - المساجد - السكان - الملابس - الشوارع - الأسواق - البدو - العصيدة - طريقة أكلها ....

الفصل الأول

في هذا الفصل من هذا الكتاب، أجد لزامًا عليّ أن أُحيط القارىء علمًا بمجريات الأحداث السياسية التي وقعت (مؤخرًا) في هذا الإقليم (عسير) من شبه الجزيرة العربية، على لسان شخصية مكّنها مركزها من معرفة أسرار محمد علي السياسية، وأرغب في أن أُقدم هذه الشخصية حالاً.

«دوسري».. هو اسم تلك الشخصية. زارني «دوسري» في خيمتي مراتٍ عديدةٍ متكررةٍ، حيث تجاذبنا الأحاديث ـ خلال هذه الزيارات ـ عن تلك الأحداث.

وفي أحد الأيام ألححت على «دوسري» بأن يطلعني على السبب الحقيقي للحرب التي يقودها أحمد باشا ضدّ بدو عسير بأمر من حاكم مصر.. محمد علي باشا.

* يا للغرابة!! (أجاب دوسري). هذا هو الشهر السادس يكاد يمضي وأنت مرافق للجيش المصري، ولا تعرف الأسباب لهذه الحرب!!.

أجبته:

* نعم. إنه لأمر مخجل!، فقد تلقيت ـ منذ وصولي إلى الجزيرة العربية ـ تعليمات من رؤسائي، ولكنهم لم يخبروني قطعيًا عن طبيعة هذه الحرب

وأسبابها، إذ ليس غريبًا أن تُقال الحقيقة، وأعترف بأنه لا أحد يستطيع أن يقول الحقيقة بشكل موضوعي!.. فكيف يكون ذلك؟!.

قال دوسري:

* سأضع الأمر بصورة مختلفة وفي عبارة مختصرة - وهو إجابة للسؤال المطروح أساسًا عن الأسباب الحقيقية للحرب - «إنه طموح محمد علي».
* أوضحْ لي هذه العبارة...
* إنها قصة طويلة، وسأبدأ بسردها من الأول.
* الوقت لا يهمّني، ساكون مصغيًا إليك - إذ لم تكن أنت «أي دوسري» على عجل - وأرجو التروي عند روايتها.
* حسناً. نعرف أنه في عام ١٨١٩م، تلقى محمد علي[١] أمرًا من السلطان بالتوجه إلى نجد لمعاقبة الوهابيين[٢]، الذين دمّروا الأماكن المقدسة[٣](!!)، عندها جهز محمد علي - نائب السلطان العثماني في مصر - جيشًا بقيادة ابنه إبراهيم الذي حمل المهمة التي أوكلها إليه والده، وتمكّن من السيطرة على الدّرعية[٤]، وتدميرها، مما أدى إلى إضعاف «الوهابية»[٥]! في موطنها الأصلي. ولكن هذه الحركة قويت في مكان آخر بعيدًا عن مكان ولادتها.

---

(١) اتخذ محمد علي.. حاكم مصر قرار غزو الدرعية بإيعاز من السلطان العثماني في سنة ١٨١٨م.

(٢) يبدو أن استخدام لفظة «الوهابيين» من عند مؤلف هذا الكتاب

(٣) لعله يعني بـ «تدمير الأماكن المقدسة» مقامات الأولياء وقبور الصالحين التي تهافت عليها الناس بطرق جاهلة لا تقرها مبادىء الدين الإسلامي الحنيف.

(٤) كانت السيطرة على الدرعية بتاريخ ١٨/١١/ ١٢٣٣هـ الموافق ٩ سبتمبر ١٨١٨م.

(٥) الدعوة الإصلاحية وليست الدعوة الوهابية.

ويقع الموطن الجديد لنمو الفكر «الوهابي»[١] - الذي ينبغي الدفاع عنه - فيما بين الحجاز واليمن، حيث تعمقت في نفوس قبائل تلك الجهة مبادىء الدعوة «الوهابية»، وتعرف هذه القبائل باسم عسير، ويعرف الإقليم - أيضًا - باسم «إقليم عسير» أو «بلاد عسير».

وما إن تحطّمت وحدة المسلمين في نجد، حتى بدأ تكوينها من جديد في بلاد عسير، إلا أن محمد علي قرّر أن يضرب تلك الوحدة بكل قواه.

لم يكن محمد علي متدينًا جدًا، ولكن أهدافه كانت ذات غايات سياسية، فمنذ فترة طويلة تبنى حاكم مصر مشروع ضم الجزيرة العربية كلها إلى حكمه، وكان قلقًا من أي محاولة لإحياء مبادىء الدعوة «الوهابية»[٢]. لأن أتباعها مصممون على إعادة بناء أمة عربية[٣]. تحت نظم جديدة.

إنّ الفكرة التي تبناها هذا الأمير الطموح - أي محمد علي - هي السيطرة على كل المناطق المحيطة بالبحر الأحمر بعد أن يتمكن من إحكام سيطرته على مدن الساحل الشرقي للبحر الأحمر، حيث يسهل عليه عندئذ اختراق البلاد، متوغلاً في أعماقها، وبذلك يضطر سكان

---

(١) لم يكن الفكر الوهابي فكرًا لمذهب جديد ولا طريقة جديدة بل هو فكر ركيزته الكتاب والسنة.

(٢) إن لم يكن استعمال هذا المصطلح من عند المؤلف، فهو قد جاء نقلاً عن دوسري.. (أبو نقطة) هذا ربما كان بسبب إقامته الطويلة أسيرًا في مصر منذ سن مبكرة، كما سيأتي مفصلاً فيما بعد.

(٣) يبدو أن «دوسري» تأثر بفكر دعاة القومية الذي كان سائدًا في أوربا خلال هذه الفترة، وذلك أثناء إقامته الطويلة أسيرًا في مصر.

تلك البلاد إلى الاستسلام، وبصفة خاصة اليمن. هذه البلاد السعيدة التي منحها الله كل ميزة فكانت هدفًا رئيسيًا مغريًا. وما إن صار محمد علي سيدًا على سلسلة هذه الجبال الغنية، حتى سيطرت عليه الرغبة الجامحة في بذل كل ما يمكن من تضحيات في سبيل تجهيز الحملات العسكرية ضد القبائل الحجازية. تلك التي تملك الأرض الفقيرة، المجدبة التربة، إلا أنها تملك غنى العزة في حفاظها على استقلالها.

قلت لدوسري:

- هل تعتقد أن محمد علي غير مشغول بالأوضاع في أوربا وفي سوريا ومصر والسودان؟!، وما هي مكانته لدى السلطان العثماني؟!.

أجاب دوسري:

- إن محمد علي مشغول تمامًا بالجبهة الأوربية، ولكنه يتطلّع إلى إحكام سيطرته على الجزيرة العربية وبحارها، وينظر بعين الحسد إلى الموانىء اليمنية التي يستطيع من خلالها السيطرة على الخليج «العربي»، ومن هنالك يمكنه تطويق كل المدن الواقعة ما بين الفرات والبحر الأحمر وسوريا، وبذلك يؤسس واحدة من أقوى الإمبراطوريات في العالم، ومن هنا يُصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية، وترفع أساطيله أعلامها مرفرفة فوق سواريها على مياه البحر الأبيض المتوسط والخليج «العربي» والمحيط الهندي.

- إنه لحلم جميل وشرف يعمل (الباشا) على تحقيقه، ولكن قبل التأكد من تحقيقه ما زلت أتعجب لماذا لا يقدر على توحيد الإمبراطورية العربية القديمة؟! فإن وجودها سيكون له تأثير كبير على القضايا الشرقية المعقدة.

- سيكون من المصلحة إعادة بناء الأمة العربية من جديد، وكلنا أبناء هذا التراب يجب أن نتطلع بقوة إلى تحقيقه، ولكن يجب أن نعرف أن الترك لن يتمكنوا من ذلك، لأن هناك عداوة كبيرة بين العثمانيين والبدو (يقصد عرب الجزيرة)، فكل من الطرفين يعتقد أنه ولد ليحكم، والقبائل العربية لن تركع أمام عصا الباشا.

- يبدو لي أن «الوهابيين» قادرون على إعادة توحيد السكان المنتشرين في جميع أنحاء جزيرتكم. لقد قمعت محاولتهم الأولى في مهدها - مع الأسف - ولكني أعتقد أنهم سيعيدون الكرة مرة أخرى.

قال دوسري:

- إنه أملنا الوحيد، ومع أنني لست بين ظهرانيهم، إلا أن السرور سوف يعتريني إذا ما رأيتهم متسلمين السلطة، فأنا عربي قبل كل شيء. ولقد سبق وأن أعلمتك عن رغبة الباشا في السيطرة على الموانىء اليمنية، وهذه العملية ليست مستحيلة، ذلك لأن إمام[1] صنعاء - عاصمة

---

(١) كان إمام اليمن خلال الحروب العسيرية المصرية هو الإمام المهدي عبدالله بن أحمد المتوكل بن المنصور علي بن المهدي بن عباس تولى الإمامة بعد وفاة والده سنة ١٢٣٠/١٨١٥م، ودخل في مراسلات مع محمد علي باشا وتعاون معه وأعاد إليه محمد علي مينائي الحديدة والمخا على الساحل اليمني بعد قضائه على حكم الشريف حمود أبو مسمار وابنه أحمد، بموت الأول وأسر الثاني وإبعاده إلى مصر. إلا أن الإمام لم يكن كفؤًا للحفاظ على وحدة اليمن فانكمش سلطانه حتى لم يعد يتجاوز أسوار عاصمته صنعاء. عانت اليمن خلال فترة حكم هذا الإمام الذي استمرت قرابة عشرين عامًا من الحروب الأهلية وفساد أخلاق الإمام وسوء إدارة حكمه. لم يقطع علاقته بـ محمد علي باشا، وكان حليفه المخلص لتضييق الخناق على الثورة المستمرة في عسير ضد وجود ونفوذ محمد علي في المنطقة. عن فترة حكم هذا الإمام انظر: حوليات يمانية. أو اليمن في القرن التاسع عشر الميلادي، لمؤلف مجهول. تحقيق: عبدالله محمد الحبشي ص١٣ وما بعدها.

هذه البلاد ـ رجل غرّ، ووارداته قليلة، مما يجعله عاجزًا عن دعم أي مقاومة جادة. ومع أن إمام صنعاء ضعيف في القيام بهذا الواجب، إلا أن حوله قبائل ومن ضمنها عسير على قدر كبير من القوة، ولن تتوانى في الوقوف إلى جانبه إذا ما هوجم من قبل الأتراك، وباشا مصر يدرك ذلك، ومن هنا جهز الباشا هذه الحملة ضد البدو (سكان عسير). وإذا تمكن من إحكام سيطرته على عسير، وهو أمر مستبعد، فإنه سوف يواصل مسيرته جنوبًا نحو صنعاء. أما حملته الثانية فقد غادرت عن طريق ساحل البحر الأحمر إلى الهدف نفسه (أي عسير من جهة الساحل)، ومن المحتمل أن تلتقي الحملتان العسكريتان معًا في نقطة واحدة.

قلت:

● وما هي الفكرة من وراء الهجوم على عسير؟!

قال دوسري:

● إن الحكام عادة يوجدون المبررات لإعلان الحرب على الخارجين عن طاعتهم وسحقهم، ولا شك في أن محمد علي سيوجد واحدة من تلك المبررات.

كانت عسير تحت إمرة أمير قوي يدعى علي[1] (ابن مجثل)، وقد

(١) هو الأمير علي بن مجثل خلف ابن عمه الأمير سعيد في إمارة عسير عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م ويعد من أبرز أمراء عسير عُرف بدينه وورعه وحنكته وصلابته في مواجهة المخاطر التي تعرضت لها بلاده. بلغت عسير في عهده ذروة مجدها وامتداد سلطانها، حيث امتد نفوذها ليشمل حتى ميناء المخا جنوبًا. توفي عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م وخلفه في الإمارة ابن عمه الأمير عايض بن مرعي الذي سار على نهج سلفه في الحفاظ على وحدة أراضي عسير وسلامة استقلالها، وتصدى بكل كفاءة لآخر محاولات قام بها محمد علي باشا للنيل من استقلال عسير، وهي الحملة التي يؤرخ لها مؤلف هذا الكتاب.

نجح في توحيد كل القبائل المجاورة ضمن سلطته، وكان عندما يدعو قواته المحاربة يجتمع إليه ـ وبكل افتخار ـ أكثر من أربعين ألف رجل مسلحين بالسِّهام والبنادق. وإن قوة الأمير عليّ هذه، أوقعت الباشا في مأزق، فقد كان علي خصمًا خطيرًا نظرًا لقوته العسكرية، ومعتقده «الوهابي». وقد منع أتباعه من الحج إلى مكة، وتوقعنا في أي وقت أن يهاجم الأماكن المقدسة لإعادة سيطرة «الوهابيين» على الأراضي المقدسة. ولهذا السبب، عيّن باشا مصر حاكمًا جديدًا للحجاز يدعى خورشيد بك[1]. ولكن تصرفات خورشيد بك غير الحكيمة أدت إلى ثورة قادة الوحدات العسكرية في هذه المنطقة، حيث تزعّم «تركجة بلماز»[2] هذه الثورة من بدايتها، فتصدى العقيد «عرابي» قائد الفرقة التاسعة المصرية لقمع حركة التمرد المذكورة، وحيث كانت تنقصه الشجاعة والتضحية لضرب حركة التمرد، فقد استدعي إلى مصر، وأصبح مصيره غير معروف.

تفاقمت الأمور، وأصبح الموقف حرجًا بالنسبة لـ«محمد علي باشا» مما دفعه إلى عدم إضاعة الوقت، وإلى المبادرة إلى اتخاذ التدابير لمواجهة تلك الظروف الحرجة، حيث أصدر أوامره بإرسال جيش لقمع التمرد، وكانت الفرقة السابعة أولى الفرق المتحركة لأداء هذه المهمة.

(١) عُين خورشيد بك محافظًا لمكة المكرمة في سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م، خلفًا لعابدين بك الذي توفي في عام الوباء العظيم الذي ضرب مكة المكرمة. ومنح خورشيد لقب باشا. وفي عهده اندلعت ثورة الجند غير النظامي بقيادة تركجه بلماز والتي لم يتمكن خورشيد باشا من إخمادها، مما جعله عرضة للنقد، ومن ثم استدعاه محمد علي باشا إلى مصر.

(٢) تركجه بلماز (وتعني الذي لا يعرف اللغة التركية). أما اسمه الحقيقي فهو (محمد أغا) اشترك في حروب محمد علي باشا ضد ثورات عسير، وبرز في هذه الحروب لما أبداه من شجاعة فائقة، عُين قائدًا للفرقة العسكرية التي رابطت فترة من الزمن في بلاد غامد وزهران وحاز على تقدير سيده. وبعد فشل ثورة الجند في الحجاز بزعامته، لجأ إلى أمير عسير علي بن مجثل وتحالف معه ضد سيده محمد علي باشا.

وما إن طرقت تحركات جيش محمد علي مسامع قائد التمرد «تركجه بلماز» حتى قرّر ترك الحجاز والاتجاه بقواته المتمردة إلى اليمن. وهناك تمكن من السيطرة على بعض المدن الساحلية، واتخذ من «المخا» قاعدة لقواته.

قدّم أمير عسير علي بن مجثل للمتمرّد «تركجة بلماز» مساعدات عسكرية مكنته من احتلال الموانىء اليمنية، في الوقت الذي كان فيه الأمير علي مشغولاً بإخضاع «أبي عريش» لطاعته. وأبوعريش هي عاصمة إقليم (أبوعريش)، وتقع في منتصف الطريق بين جدة والمخا.

كان شريف (أبوعريش) حليف محمد علي في المنطقة، وقد كانت فرقة من الجيش المصري ترابط في مدينة (أبوعريش). لذا، فقد اعتبر محمد علي اعتداء أمير عسير على (أبوعريش) إعلانًا للحرب ضده، واتخذ من الاعتداء العسيري ذريعة للهجوم على عسير.

ومما يجدر ذكره أن الأمير علي و«تركجة بلماز» عندما تمكنا من السيطرة على الإقليم الرئيسي من اليمن والموانىء اليمنية المهمة، عقدا فيما بينهما معاهدة تحالف اتفقا بموجبها على أن يتقاسما مكاسب انتصاراتهما حاضرًا ومستقبلاً بالتساوي، ولكن ما إن غادر الأمير علي السواحل اليمنية عائدًا إلى بلاده.. (جبال عسير)، حتى خرق حليفه بنود الاتفاق كافة. فاعتبر الأمير علي ذلك خيانة من حليفه «تركجة بلماز» لابد من معاقبته عليها، فقد عز عليه أن يبني آماله وطموحاته بحجارة ملغومة!!.

ولتأديب الحليف الخائن، جمع الأمير علي جيشًا كبيرًا تحت قيادته، وانحدر به إلى تهامة، حيث تمكن من تحرير جميع الموانىء والأراضي اليمنية التي كانت في قبضة الأتراك، ودخلت قواته مدينة «مخا»، وأجبرت «تركجة بلماز» على تركها. فارًا بنفسه إلى سفينة بريطانية كانت راسية بالقرب من ميناء «مخا» في ذلك الوقت.

بعد أن انتقم الأمير علي بن مجثل من عدوه «تركجة بلماز» ووضع حاميات عسيرية في كل المدن المحررة، قفل عائدًا إلى «السقاء» عاصمة بلاده عسير[1] استعدادًا لمقاومة الحملة العسكرية التي وجهها محمد علي ضد عسير بقيادة أحمد باشا. وما إن وصل الأمير علي إلى بلاده حتى ألمَّ به المرض الذي لم يمهله طويلاً، حيث وافته منيته بعد بضعة أيام، مخلفًا وراءه ولدين صغيرين [2] غير قادرين على خلافة والدهما، فتولى ابن عمه الأمير عايض أعباء الإمارة والوصاية على ابنيْ الأمير الراحل.

وهذا بيان بالقوة التي تتكون منها حملتنا:

الفرقة الثالثة	٢٠٠٠ رجل.
الفرقة السابعة	٣٠٠٠ رجل.
الفرقة السادسة عشرة	٤٠٠٠ رجل.
الخيالة	١٢٠٠ رجل.
المغاربة	٤٠٠ رجل.
المدفعية	١٠٠ رجل.
متطوعة من العرب	٦٠٠٠ رجل.
جنود	١٠٠ رجل.
	١٦,٨٠٠ الإجمالي.
المدافع	٣
صواريخ كنجريف	١٠٠٠

(١) انظر تفاصيل حملة الأمير علي بن مجثل ضد تركجة بلماز وانتصاره عليه في كتابنا: (دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتأثيرها على مقاومة بلاد عسير للحكم المصري ـ التركي، ١٨١١ ـ ١٨٤٠م) ـ رسالة ماجستير، جامعة كانساس ١٩٧٩م ـ في طريقها للنشر.
وانظر مزيد من التفاصيل عن هذا الانتصار وتهنئة إمام اليمن للأمير علي بن مجثل وبعث سفير من قبله إلى أبها لحمل رسالة التهنئة في كتاب، حوليات يمانية تحقيق عبدالله الحبشي ص٥٦.

(٢) هما الأكبر ويدعى (عايض) والأصغر وهو (محمد).

سيطر محمد علي على الحجاز، فعينّ حاكمًا تركيًا عليه إلى جانب الحاكم الفعلي العربي ونعني به (شريف مكة)[١].

كما قام بتزويد رؤساء القبائل هناك بتعليمات سرية تتعلق بإطاعة أوامر الشريف طالما أن هذه الطاعة لا تتعارض مع رغبات نائب السلطان العثماني.. أي محمد علي نفسه.

ونرى أنه من المناسب إلقاء بعض الضوء على دور شريف مكة لدى وصول الحملة، ووضعه قبل ذلك في علاقته مع أمير عسير.

ما إن وصلت حملة محمد علي العسكرية إلى الشواطىء الحجازية، حتى قام الشريف بإرسال عساكره إلى كل من المدينة المنورة وينبع، لاستئجار الجمال اللازمة لحمل الطعام والعتاد الحربي المرافق للحملة. وقد تمكنوا من جمع أربعة آلاف جمل بأجرة ستة ريالات (تاليرز) للجمل الواحد.

وبينما كان الجنود مشغولين بجمع المال، كان أحمد باشا قائد الحملة منهمكًا في إعداد الخطة لإنجاح الحملة. ولكن كيف كان وضع الشريف مع أمير عسير قبل ذلك؟!

عندما استولى أمير عسير على (أبوعريش)، انضم الشريف "عليّ[٢].. الحاكم السابق لأبي عريش إلى قوات الأمير علي بن مجثل لغزو

(١) من المعروف أن الحجاز منذ دخوله تحت حكم آل عثمان، يشترك في إدارة شئونه وال عثماني ومقره جدة جنبًا إلى جنب مع شريف مكة، إلا أن محمد علي باشا منذ استيلائه على الحجاز في عام ١٨١١م، قد قلل من صلاحيات شريف مكة، وأصبح مجرد موظف لدى الباشا، يُصرف له مرتب محدود يقرره الباشا.

(١٥) هو الشريف علي بن حيدر بن محمد بن أحمد بن محمد بن خيرات، من مواليد عام ١١٨٢هـ، وعمه الشريف حمود أبو مسمار شريف (أبي عريش) المشهور. وكان =

اليمن، وأصبح الشريف فيما بعد تابعًا لأمير عسير يدفع له الجزية، ويمتثل لأوامره، الأمر الذي يعتبر في مفهوم السياسة المصرية تمردًا وثورة ضد محمد علي، خاصة وأن أمير عسير كان يعتبر العدو الأول لنائب السلطان ـ أي لمحمد علي ـ، قام أحمد باشا بإرسال مبعوث إلى شريف (أبي عريش) حاملاً تحذيراتٍ عدة، من محتواها: «حان الوقت لتصحيح خطئك. أنت قادر الآن على تحرير نفسك من الطغيان العسيري، وتكوين جيش يمكّنك من الاستقلال».

انصاع الشريف علي إلى نداء أحمد باشا، واعتقد في انتصار الحملة مما جعله يعلن عداءه للعسيريين، ويقوم بتنفيذ أوامره بلا تردد، وقد كان لموقف الشريف هذا.. أثره الحسن في نفس الباشا قائد الحملة.

لم ينتظر الأمير عايض ـ القائد الفعلي لعسير ـ طويلاً، حتى جمع جيشًا، قوامه اثنا عشر ألفًا من البدو[١]، وسار إلى إقليم (أبوعريش)، فتمكن من دخول المدينة، وأجبر الشريف وستمائة من جنوده ـ إضافة إلى نسائه وحاشيته وعبيده ـ إلى التحصن في قلاع المدينة. ولكن محاولات الأمير عايض فشلت في اقتحامها.

= الشريف علي أحد أركان مملكة عمه، إلا أن الخلاف دب بينهما، فلجأ الشريف علي إلى والي الحجاز من قبل محمد علي باشا يطلب النجدة ضد عمه فوافق هذا الطلب هوى في نفس محمد علي الذي كان يرغب في التخلص من الشريف حمود، فجهز حملة إلى (أبي عريش) وسواحل اليمن بقيادة خليل باشا ويساعده الشريف علي، وذلك في عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م، فتمكن من دخولها. وأصبح هذا الشريف منذ ذلك الوقت إلى حين وفاته عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م أحد ركائز حكم محمد علي في تلك المناطق.

(١) يلاحظ أن الكاتب تأثر بالأتراك الذين كانوا يطلقون كلمة (بدو) على كل سكان الجزيرة العربية، وهذا غير صحيح، فالأغلبية من سكان الجزيرة العربية حضر مستقرون في مدن وقرى ويزاولون التجارة والزراعة، وهما مهنتان مرتبطتان بالاستقرار، وبعيدتان عن حياة البداوة المعتمدة على التنقل والترحال.

كـان الأمير مضطرًا ـ لسبب ما ـ للعودة إلى عاصمة بلاده، فعاد ومعه ثلاثون سجينًا من أتباع الشريف علي، تاركًا أربعمائة من جنده يواصلون حصار القلاع.

وقبل مغادرته لأبي عريش، أرسل إنذارًا تهديديًا إلى الشريف عليّ قال فيه: «لا يمكنني مواصلة حصارك بنفسي في ظل الظروف الراهنة، ويمكنك أن تهنأ وراء أسوار قلاعك، ولكني سأعود إليك بقوة لم تعهدها».

وعلى أثر هذا التهديد كتب الشريف عليّ إلى أحمد باشا يخبره بتهديد الأمير عايض، مبديًا قلقه مما قد يحدث مستقبلاً. وفي الحال أصدر أحمد باشا ـ وهو لا يزال في مكة ـ أوامره إلى الفرقة الثالثة من الجيش المصري في الحجاز، والتي كانت مرابطة في جدة، بالتوجه فورًا إلى (أبو عريش) لفكّ الحصار عنها وعن شريفها الضعيف. (وسوف يتضح كيف كان ذلك).

غادرت القوة المصرية جدة في شهر مايو سنة ١٨٣٤م إلى القنفذة، فمكثت بها فترة تنتظر أوامر القائد أحمد باشا بخصوص التحرك إلى (أبو عريش)، وهل سيكون تحركها بحرًا أو برًا.

أثناء إقامة قائد القوة في القنفذة، أخبر أحمد باشا بأن السفن العسيرية تقوم بالاعتداء على السفن الماخرة في البحر الأحمر. وبعد مضي عدة أيام قام الأمير عايض بحملة قوية ضد شريف (أبو عريش)، ولكن من حسن حظ الشريف أن القوة المصرية وصلت إلى ميناء جيزان في الوقت الذي كان فيه الأمير عايض يعد حملته مما اضطره إلى الإحجام عن مهاجمة مدينة (أبو عريش)، وتجنب الالتحام مع الجيش المصري المزود بالأسلحة الحديثة، والمدرب على الطريقة الأوربية في فنون القتال، أصدر الأمر إلى قواته بالانسحاب إلى الجبال، حيث تمكن الشريف عليّ بمساعدة الفرقة الثالثة للجيش المصري من إعادة نفوذه على المناطق التي كان قد احتلها العسيريون من قبل، وأعلن الشريف عليّ ولاءه المطلق لمحمد علي نائب السلطان العثماني.

منطقة أبو عريش

تقع منطقة (أبو عريش) الصغيرة بين خطي عرض ١٥°، ٥٠° وبين خطي طول ١٧°، ٤٠° يحُدّها من الشمال الحجاز، ومن الشرق جبال عسير، ومن الجنوب اليمن، وتمتد غربًا إلى البحر الأحمر.

ولقد اعتاد العرب قياس المسافات بالوقت، فيذكرون أن هذه البلاد تقدر بمسيرة أربعة أيام طوّلا ويومين عرضًا!! بشكل عام هذه البلاد منبسطة ورملية، بالإضافة إلى أنها غير خصبة في الجزء الأوسط، ولكنها تكون أكثر جاذبية في الأجزاء المصاقبة للجبال التي تُحيط بها من الشرق، وهي مناطق ينال منها المواطنون أكبر قدر من مواردهم الحياتية.

الشتاء بصفة عامة جاف ولكن في الصيف ابتداء من شهر ذي القعدة حتى ربيع الأول فإن السماء تجود بأمطار فصلية.. وهذه هي الطريقة التي تحدث فيها هذه الظاهرة.

حتى الساعة الثانية عشرة من منتصف اليوم والسماء صافية هادئة ثم يبدأ هبوب الرياح الجنوبية بشكل خفيف عند بدايتها، ثم تزداد قوة مسببة نشوء عواصف رملية على السطح.. تحجب الرياح المحملة بالرمال الرؤية لدرجة أن الإنسان لا يُحقق أحيانًا رؤية شخص آخر على بعد عشرين ياردة.. وبعد ساعة من الإعصار ينهمر المطر، ويستمر ما بين عشرين إلى ثلاثين دقيقة، بعدها تعود السماء إلى صفائها وهدوئها، وفجأة تتوقف الرياح ويتمتع السكان بدقائق قليلة منعشة، وبعد ساعة من العاصفة تشرق الشمس مرة أخرى.

يحس المواطنون بأن الرياح التي تنبعث من مكان بعيد تجمع بين السرعة وقوة الصوت، وتقتلع كل شيء في طريقها حتى الخيام والأشجار.

لا يوجد في هذه البلاد أي نبع (أي جدول) سواء أكان صغيراً أم كبيراً . . ومياه الأمطار لا تخزن في خزانات مثلما هو الحال في بعض الأقطار العربية .

تغمر السيول كل أجزاء التربة الرملية فتمتصها تربتها الغنية . . يحفر الناس حفرًا عميقة في التربة بحثًا عن المياه حيث يعثرون عليها على بعد خمس عشرة ياردة من السطح . . وعندما وصلنا إلى النقطة الأخيرة وجدنا طبقة أفقية من الصخور التي تقع عليها مصطبة غنية بالماء .

وفي مكان حفر البئر تجد الماء صافيًا . . ولكنه يأخذ في التلوث بمجرد استقراره في الأحواض الطبيعية . . ومع أن مذاقه جيد الطعم إلا أنه يُسبّب لنا آلامًا في المعدة، أما جوانب البئر فمبنية من التربة الطرية ويولونها السكان عناية فائقة .

وعندما كنا ذاهبين من حيزان إلى (أبو عريش) المدينة العاصمة لهذه البلاد، كان الطريق يأخذ في الارتفاع كلما توغلنا باتجاه الداخل، ولكن في منتصف الطريق بدأنا في الانحدار، لأن المنطقة تقع على ارتفاع مستوى البحر . . إن هذه البلاد فسيحة منبسطة ومكشوفة لتعرضها للرياح الجنوبية، ومحاطة بالجبال العالية التي تعكس حرارة أشعة الشمس فينتج عن ذلك شدة حرارة المنطقة وجفاف مناخها .

في الشتاء تنخفض الحرارة إلى ١٦° في الليل . . وترتفع إلى ١٩° في النهار أما في الصيف فإن المعيار الحراري يسجل في الظل ٤٢° في منتصف اليوم .

يصعب على الأوربيين تحمل هذا القدر المرتفع من الحرارة . . والبلاد بصفة عامة تغطيها أدغال نباتية تتكاثف أشجارها وترتبط مع بعضها، وتتخللها نباتات طفيلية .

وأثناء الحروب يلجأ الناس هنا إلى الداخل مختفين في مخابىء سرية لا يعرفها غيرهم، ويستطيعون معرفة طرقهم وسط هذه الغابة الكثيفة . لا يجرؤ أي عدو على محاولة عبور هذه الأدغال .

والأشجار الأكثر شيوعًا :

وأشجار المسواك (الأراك) والذي يستخدم من قبل السكان حيث يقطعون جذوعه، وينشرون طبقاته الخارجية ثم يسننونه بالحجارة ليصنعوا منه نوعًا من الأمشاط الجميلة، بينما يستخدمون الجذوع الغضة منها مساويك لتنظيف أسنانهم من آثار التبغ المعروف هنا بـ (البرتقال)[1] .

وهذا الاستخدام شائع لدى سكان (أبو عريش) . كما أن استخدام «الغليون» شائع بين بقية سكان بلاد الشرق، إنه يحل محل تعاطي نوع من التوابل والأفيون، إنهم يُمارسون عملية التخزين بلذة، ويستخدمونه في أي وقت إذا لم يكونوا مشغولين بأعمالهم .

تتعاطاه النساء بدرجة أقل من أزواجهن، وهن يمارسن التدخين في بيوتهن .

الطرف وهو عبارة عن شجرة صغيرة .

تزدهر في بداية الربيع وورودها تتكون من اللونين الأبيض والأحمر .

ونبات الـ والذي يبدأ بفرع ذي لون أخضر فاتح، وكلما ازداد نموًا تحول إلى أخضر غامق . . أما الطرف فإن حجمه ينمو إلى مقدار قدم مربع وهو نبات جيد للوقود (حطب) .

أما شجر البلسم[2] فإنه ينمو هنا وفي نطاق واسع يستخرج منه علاج، وله شهرة بين السكان العرب، لأنه يزيل عدة أمراض . . وكانت

(١) يسمى بالبردقان أو الشمة في اليمن، وهي مادة من التبغ مجففة، ثم تسحق سحقًا ناعمًا (المترجم) .

(٢) يستفاد من بذورها في معالجة الجروح، مثل قولهم بلسم جروح . (المؤلف) .

صَيدلية هارون الرشيد لا تخلو من هذا النوع من العلاج، ووجدنا هنا - أيضًا - نوعًا من النبات يدعى سترامونيم «الداتورة» (Stramonium).

تعتبر (أبو عريش) الموطن الأصلي للطيور التي يجدها الإنسان في «جدة» مثل اليمام والحمام والقماري وهي هنا كثيرة جدًا.

ويستطيع المرء أن يجد هنا - أيضًا - طائرًا نادرًا ارتفاعه ثلاثة أقدام، ويبدو أنه طائر يمتنع على رصاصة بندقية الصيد، وهو خامل وكسول جدًا عند رؤيته للخطر. إنه يطير وبكل مشقة ويهبط على بعد أمتار من مكانه الأول[1]. والأكثر مدعاة للغرابة وجود طائر ذي صدر أصفر وظهر بني. وعشه - تقريبًا - في حجم التفاحة، وله شكل بيضاوي والعش معلق في الشجر بخيط رفيع يقوم الطائر بحياكة الخيوط مع بعضها، ثم يشبكها في قاعة العش وهو نسيج من الأعشاب والحشائش، ثم يقوم برسم دائرة مركزية حول تلك الأعشاب لتحمي البناء كله.

إنه مدعاة لحب الاستطلاع أن تشاهد هذا الطائر الصغير وهو يدخل ويخرج بسرعة فائقة، وهو يقوم بربط الخيوط من الداخل إلى الخارج وبالعكس. وهي أجزاء متفرقة، ويستمر في العمل بالطريقة نفسها حتى يأتي على نهايته، وعادة ما يترك فتحة صغيرة في اتجاه تيار الرياح الجنوبية.

وعندما نرى أشجارًا وبها هذه «الأوكار» تظهر وكأنها فاكهة كبيرة معلقة في الهواء.

يمتلك سكان أبو عريش عددًا ضخمًا من الدجاج، مع العلم أن أعدادًا كبيرة من الطيور البرية موجودة كذلك، ويأخذ المواطنون بيضها ويضعونها في أوكار دجاجهم للتفقيس.

---

(١) يسمى هذا الطائر محليًا خرب ويأكله الناس. (المترجم).

يمتلك الناس ثروة حيوانية من الأبقار والجمال الصغيرة وأعدادًا كبيرة لا تُقدّر من الخيول، بالإضافة إلى ما يمتلكونه من أعداد كبيرة من الأغنام والماعز، والأخير متوسط الحجم. المراعي قليلة، ولكنها ذات قيمة غذائية عالية.

الغزلان شائعة هنا، وتعيش بكميات كبيرة، إنها تنضم إلى الثروة الحيوانية المكونة من الأغنام والماعز، ويتركها السكان ترعى الأعشاب.. إلا أنهم يصطادونها في مناسبات، ويأكلون لحومها. وذلك بعكس الأرانب حيث يعتقد الناس أنه حيوان قذر جدًا، لذا فقد كرهوا أكله. ولهذا السبب يوجد منها أعداد كبيرة أكثر مما يتوقعه الإنسان.

كما توجد القطط المتوحشة، وتفضل العيش على ما تصطاده من الدجاج والطيور ولهذا فإن الفئران تعيش حياة مطمئنة، وهذه الحقيقة تشرح سر تكاثرها.

يزرع السكان الذرة والدخن وهما اللذان يصنعون منهما الخبز، كما يزرعون في بساتينهم التفاح والموز والخرشوف والخيار، كما يزرعون - أيضًا - القطن الهندي، ويدر محصولًا طوال ثلاث إلى أربع سنوات إلّا أن هذا النبات لا يعيش إلا في المناطق المجاورة للجبال فقط لأن المرتفعات عادة ما يكون مناخها يميل إلى الجفاف.

يوجد هنا عدة أمراض متفشية

منها الجروح اليمنية حيث يكثر انتشارها وخاصة في المناطق القريبة من الساحل، يقوم أطباء (أبوعريش) بكيها لكي يتوقف انتشارها، كما يضعون أوراق الأعشاب على الجرح عند بدايته.. كذلك الحمى المعوية من الأمراض الشائعة، أما الرمد فنادرًا جدًا..

يوجد في (أبو عريش) نوعان من العقارب: الأول ذو لون يميل إلى الحمرة، ولدغته غير خطيرة. والنوع الثاني: أكبر حجمًا من الأول، إذ يبلغ طولها ما بين خمسة إلى ستة إنشات، ولدغتها قاضية، وأجسامها مغطاة بالشعر. وإذا ما لدغت هذه العقارب أحدًا فإن أطباء أبوعريش يقومون بتوسيع المكان الملدوغ ومصّ أو شفط كل المنطقة المحيطة.. ثم حرق مكان التورم، ثم يربط خيط حول المكان الملدوغ.. والفكرة من ذلك إيقاف تسرب السم إلى بقية الجسم وأخيرًا وضع أوراق شجر طرية على مكان الحرق لتخفيف الألم.

ينقسم السكان إلى قسمين: رعاة، وفلاحين القسم الأول: بادية ويعيشون تحت الخيام. أما القسم الثاني: فيقطنون في قرى منازلها مبنية من الأشجار. وجميعهم مسلمون (يمارسون الدين المحمدي)، ولكنهم ليسوا سلفيي المذهب، وهم مضيافون كرماء حتى تجاه الأوربيين، والذين لا يحظون بحب البدو بشكل جيد.. وعندما يتوقف المطر عن سقوطه في موسمه المتوقع يُهرع الناس إلى الصلاة يدعون من الله نزول الغيث الذي يرتكز عليه أساس وجودهم.

وصف مدينة أبو عريش

تبعد مدينة أبو عريش مسافة ست ساعات من البحر الأحمر، وتقع في وسط أرض مفتوحة منبسطة، وتقع الغابات على بعد ميل أو ميلين إلى جنوب المدينة، حيث تختفي التربة تحت الأعشاب الطويلة التي تتغذى عليها خيول وجمال السكان أما الأجزاء الشرقية فمزروعة حتى أسوار المدينة على تربة رملية ذات لون أحمر.

كما يزرع القطن في هذه البلاد..

يبدو شكل القرية غريبًا عندما ينظر إليها من طرف واحد، وهي داخل السور، ولكن عندما ينظر إلى القرية بشكل عام فإنها تأخذ شكل مثلث طويل جدًا.. أما السور فمبني من الطوب أو الآجر المحروق، وله أبراج في الأركان مثل تلك التي شاهدناها في الطائف.

القلعة المسماة دار النصر عالية جدًا وذات منظر جذاب، ولها فناء واسع في الوسط، والمدينة محمية بواسطة مدافع قديمة، ولقدمها فإنها غير صالحة للاستعمال.

الأماكن المخصصة لوضع البضائع التجارية مبنية من الآجر المحروق، وتتكون من دورين فقط. أما المنازل الأخرى فمبنية من الخشب وفروع الشجر ومغطاة بالقش أما الطريقة التي يبني بها السكان منازلهم فهي كالتالي:

حفر أربعة ثقوب في أركان الأرض المزمع إقامة المنزل عليها بعمق تستوعب فيه الأخشاب التي ستكون أساسات البناء وبعد ذلك يشد حول أخشاب التأسيس حبل مصنوع من ألياف الأشجار يربط فيما بينها وبهذه الطريقة تتكون حيطان المنزل.

ويغطى السقف الذي يرتفع عن الأرض بسبعة أقدام بفروع الأشجار حيث ترتكز أخشاب السقف على عمود ذي شفتين يتوسط المنزل ثم بعد ذلك يغطى السقف بالحشائش الطرية مشدودة مع بعضها بالحبال.. أما الأبواب فتصنع من إطار خشبي مغطى بفروع الحشائش الطرية إلا أن أبواب منازل الأغنياء تغطى إطاراتها بالسجاد.

يترك بالبناء كوات صغيرة يمرّ من خلالها الهواء النقي بصفة مستمرة، وتغطى أرضية المنزل بجلود الحيوانات. أما الثقوب والأماكن غير المنتظمة فتسد بالرمل والطين، ويضاف مادة الكلس الجيري لتقوية أرضية

المنازل. . تتكون منازل القادة أو الزعماء من عدة غرف ـ وأيضًا ـ كذلك منازل الفقراء لا تقل عن غرفتين واحدة منها للسيدات والأخرى للرجال إلا أن الفقراء جدًا يعيشون في منازل تتكون من غرفة واحدة فقط . . هذه المنازل محمية ضد المطر.

يزرع المواطنون حول منازلهم نباتًا من نوع ملوكي ذا رائحة عبقة يبلغ ارتفاعه سبعة أقدام وورودًا ونباتات شتى تغطي كل جوانب المنزل وتضفي عليه شكل مهد جميل.

يوجد في البلدة عدة مساجد ولكن توجد منارة لواحد منها فقط إلا أنها تبدو في منظر حزين.

أما الآبار فإنها في الحقيقة عميقة جدًا . . ويقطن البلدة العرب وقليل من البانيان الذين يزاولون مهنة التجارة وبعض التجار من حضرموت حيث يقدر سكان البلدة مجتمعين ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف ساكن.

في مدينة جدة يجد المرء صعوبة في التمييز بين وصف الأغنياء وغيرهم من مواطني الشعوب الشرقية الأخرى ذوي العادات المختلفة مثل الفرس وغيرهم، ولكن لا يمكن مطلقًا أن يصطدم المرء بمثل هذه المعضلة في بلدة «أبو عريش». . فالأطفال يخرجون عرايا والرجال يلبسون قطعة من القماش ملفوفة حول أوساطهم مسدلة إلى ما تحت الركب وشعورهم كثة وطويلة يدهنون ذقونهم وسواعدهم بزيت تنبعث منه رائحة كريهة. . أما الأغنياء فيلبسون أقمصة من الموسلين فوق مآزرهم ويغطون رؤوسهم بقطع من القماش بيد أن الحضارمة لوحدهم يميزون أنفسهم بلبس العمامة كنوع من الفخامة.

أما النساء فيلبسن أقمصة كتلك التي يلبسها الرجال إلا أن أقمصتهن مقصوصة على الطريقة المصرية ويلبسن قطعة قماش مماثلة لتلك التي

يلبسها الرجال إلا أنها طويلة تغطي أجسامهن كاملة والطول الزائد يغطين به رؤوسهن. . بيد أنهن لا يضعن غطاء على وجوههن وتميل أجسامهن إلى السمرة والوشم غير معروف لديهن، يدهن أجسامهن وشعورهن بالدهن وبالطريقة نفسها التي يستخدمها بعولتهن، يصبغ الرجال والنساء على السواء عيونهم بالكحل ويخضبون أيديهم بالحناء وبعض الرجال المسنين يخضبون ذقونهم البيضاء بالحناء لإخفاء أعمارهم الحقيقية.

ومع أن عادة الصبغ ضاربة جذورها في هذه البلاد إلا أن الشريف حمود أحد أسلاف الشريف علي[1] كان يتضايق من استعمال الصبغ.

يغلب على شوارع أبو عريش الاتساخ وفي تلك الشوارع توجد المخازن التي يتمون منها سكان البادية الذين يتميزون بقبعاتهم المصنوعة من الخوص والتي تبدو من غير بروزها الواضح في الوسط كالقبعة الأوروبية.

يشرب هؤلاء الناس حليب الجمال ووجبتهم المفضلة العصيدة، أما طريقة صنعها فهو خلط الدقيق بالماء الساخن وتحريكه بعصا غليظة، فإذا ما نضجت تفرغ في إناء خشبي ويعمل في وسطها حفرة تملأ بالسمن والعسل وطريقة أكلها باليد.

وفي الوقت الذي تمكنت فيه القوة المصرية من تخليص (أبو عريش) من النفوذ العسيري، وصل أحمد باشا ـ قائد الحملة الرئيسية ـ إلى الطائف على رأس قواته المتجهة إلى عسير بطريق البر. وأمام هذا الخطر المحدق بإقليم عسير وقبائله الحريصة على استقلالها، بعثت بعض القبائل مندوبين عنها إلى قائد الحملة معلنة الاستسلام، بينما أرسل بعض منها مندوبين متظاهرين بالتفاوض وإعلان الاستسلام مع أن هدفهم الأساسي هو التجسس وجمع المعلومات عن مدى قوة وتنظيم وخطط الجيش المصري.

---

(١) الشريف حمود عم الشريف علي وليس أحد أسلافه كما ذكر المؤلف تولى الشريف حمود إمارة أبو عريش في سنة (١٨٠١) وتوفي سنة ١٨١٧م.

استقبل أحمد باشا المندوبين بكل حفاوة وإكرام، وطلب منهم - بقصد التأكد من إخلاصهم وصدقهم في إعلان استسلامهم - انضمام قبائلهم إلى صفوف جيشه لمحاربة الأمير عايض، كما طلب منهم عشرة آلاف بدوي يقومون بحمل المؤن والعتاد الخاص بالحملة، وتكون أجرتهم الغنائم.. التي سيحصلون عليها عن طريق السلب والنهب.

وفي الأيام الأخيرة من إقامتنا في الطائف، شهدنا وصول مندوب من قبل الأمير عايض يحمل مشروعًا للتفاوض بينه وبين قائد الحملة.

بدأ المندوب العسيري حديثه بقوله:

في الحقيقة إن (عسير) ارتكبت أخطاء ضد محمد علي باعتدائنا على بلاد حا[illegible] شريف (أبو عريش) الذي هو تحت حمايته. ولقد فوضني الأمير عايض ب[illegible] تقديم مليونين وخمسمائة ألف ريال «فرانس» ٣,٥٠٠,٠٠٠ [illegible] تعويضًا عن خسائركم لقاء التعهد منكم بالعدول عن مواصلة حملتكم لغرض قتالنا.

فكان جواب أحمد باشا:

* لم يبعثني محمد علي لأجمع نقودًا من هذه البلاد، وإنما بعثني لأكون سيد عسير، لذلك، إذا كنتم أقوياء فاصمدوا لقتالنا، وإذا كنتم ضِعافًا فأعلنوا خضوعكم لحكم محمد علي. ويجب أن تتذكّر أنه في أي الحالتين فإن العلم ذا النجمة الهلالية(1) سيرفع عاليًا على سواري أبراج قلاعكم خلال ثلاثة أشهر.

أجاب المندوب العسيري:

* نستطيع أن نضحي بأموالنا، لكننا لن نضحي باستقلالنا، والمستقبل سوف تقرره قوتنا الحربية، والله سيقف مع الحق.

(1) يعني العلم العثماني. (المترجم).

ثم قفل المندوب العسيري عائدًا إلى بلاده، بينما أشيع في المعسكر أنه لم يكن سوى جاسوس للأمير عايض.

أخذت الحملة تستعد للتحرك جنوبًا باتجاه بلاد عسير، إلا أنه اعترضتها بعض المشكلات.. كالنقص في التموين، ووسائل النقل، وخاصة الجمال.

كانت فرقة الخيالة قد تحركت منذ شهر، بينما قامت مجموعة من ضباط الشرطة العسكرية المرافقة للحملة بالبحث عن مستودعات لخزن المواد التموينية، التي سيتم الحصول عليها عن طريق التبرع أو الشراء.

وبعد ذلك، تحركت الحملة في اتجاهين: الأولى بقيادة أحمد باشا، و[illegible] بقيادة الشريف محمد بن عون. وقد اتبع هذا التنظيم ب[illegible] ندرة الماء الذي لا يتوافر بشكل منتظم في كثير من الأماكن التي ستمرّ بها الحملة.

الفصل الثاني

مغادرة الطائف، قصر الشريف الكبير - الطريق - ليّه - وصف وادي ليّه - القلعة - السواقي - الهجن - شيوخ القبائل - الجوخ (العبيء المبطنة بالفراء) العبيد - الريح - درجة الحرارة - مغادرة ليّه - الرماح - شيوخ القبائل - الجمال - وادي بسل - قبيلة عتيبة - ذكريات تاريخية - درجة الحرارة - مظللة - السكان - درجة الحرارة ....

الفصل الثاني

والآن، نغادر الطائف بصحبة الباشا جنبًا إلى جنب مع الهيئة المنظمة للحملة وأمين الخزنة والفوج السادس عشر. ولقد تم إبلاغنا بأوامر التهيؤ وأصبحنا جاهزين للتحرك مع إطلالة شمس اليوم التالي، ولكن ـ نتيجة لنوع من سوء الفهم ـ فإن جمالنا كانت قد أُخذت بعيدًا للمرعى، ولذلك لم نك قادرين على التحرك إلا بعد المغرب بحوالي ربع الساعة.

ولدى مغادرتنا للمعسكر، توجهنا في طريق يقودنا باتجاه المدينة، حيث يمكننا أن نلج مباشرة طريقًا آخر يؤدي إلى الاتجاه الشرقي. وبعد مسير ساعة من مدينة الطائف شاهدنا منازل شريف مكة الريفية، تظهر أمامها هضبات متكونة من صخور متكاثرة وبعض الأشجار التي ما زالت تعد من الحدود الفعلية لمدينة الطائف.

كان طريقنا مزدحمًا بالجند المندفعين نحو الأمام بسرعة، وبغير انتظام للّحاق بالمعسكر. وكانت تحيط بنا من كل جانب جلبة مربكة من الرجال والحيوانات. وكنا مثل من يشهد أعدادًا ضخمة من الرجال تُعدّ للرحيل، للقيام بمهمة لأول مرة. وكان الطريق مستويًا في بادىء الأمر، ثم أصبح فيما بعد تعترضه ـ من وقت لآخر ـ بعض التلال العالية التي يتحتم علينا اجتيازها. وكانت بعض هذه التلال مكوَّنة من أحجار الجرانيت ذات اللون الضارب إلى الحمرة أو في حمرة اللحم، بينما تبدو حجارة بعضها ذات

لون رمادي مما يجعلها شبيهة بتلك الموجودة في الطائف.

بعد أربع ساعات من المسير، تبدت لنا خيام المعسكر البيضاء التي كانت قد نصبت منذ فترة قبل وصولنا، وكانت النيران قد أضرمت على طول صفوف خيام المعسكر المؤقت. ولم تمض إلا هنيهة وتشع أنوار القمر الساطعة متسللة من خلال ستارة من السّحب. وقد كشفت أشعة القمر الأضواء الاصطناعية وحولت الجيش المتداخل مع المنظر العام إلى ما يشبه الخيام الفضية.

٢٧ يونيو ١٨٣٤ ـ بقينا مقيمين

هذا المكان يحمل اسم لَيَّة [1]. إنني على وشك القيام بتفحص الظروف البيئية المحيطة لأتمكن من تقديم وصف لها. هنا أقف على رأس جبل مجاور، ومعي بوصلة وناظور من صنع إنجليزي. يتجه هذا الوادي ـ وادي لَيَّة ـ من شرق الشمال الشرقي إلى غرب الجنوب الغربي، ويمتد على بعد مسيرة يوم في الاتجاه المذكور آنفًا. وتغطي السطح حدائق وحقول مزروعة فيها عدد كبير من الينابيع والآبار التي تزود هذه الحقول والحدائق بالمياه الضرورية لإروائها.

ومن على المطلّ الذي أقف عليه، استطعت أن أرى باتجاه الغرب والجنوب الغربي قلعة محمّية بأبراج مبنية على قمم التلال تقع على جانب

(١) ليّه، بلدة تقع على وادٍ مشهور يعرف بوادي ليّه، يبدأ هذا الوادي من جبال السروات ويلتقي بوادي (نخب) ثم يتجه إلى الشرق. كان أعلاه لثقيف وأسفله لبني نصر أبناء عمومة جشم. وفي منطقة ليّه يسكن اليوم جماعة من الأشراف الفعور وبني عوف الذين هم من بقايا بني نصر من هوازن ـ انظر: الموجز في تاريخ الطائف قديمًا وحديثًا، لمناحي بن ضاوي القثامي ص٤٨.

الطريق نفسه الذي سلكناه في الليلة الماضية. وكان بإمكان هذه القلعة حماية ذلك الطريق بكل سهولة، شريطة أن تكون مؤمّنة بالمدافع.

إن الطرق إلى هذه القلعة محفوفة بالأشجار والحدائق على غرار النمط الموجود بالطائف، حيث تبدو وكأنها معلقة بالقلعة نفسها. وإلى الشمال توجد أعداد قليلة من الأكواخ المتناثرة منتشرة فوق الأرض.

أما بالنسبة للجبال المحيطة بهذا الوادي فإنها جرداء بشكل مخيف، ولم يكن للجمال بُدّ من الركون إلى أشجار السنط ـ ذات الأطراف الحادة ـ، حيث أصبحت أفواهها مغطاة بالدماء لحدة أطراف هذا النوع من الشجر.

وعلى امتداد كل أجزاء هذا الوادي المستصلحة زراعيًّا، ترتفع الأرض فوق منسوب مجاري المياه التي تندفع مياهها بشدة في مواسم الأمطار الغزيرة، وقد بنيت العقوم من الحجارة للحيلولة دون شدة هذا الاندفاع.

أما طريقة الزراعة، فإنها مماثلة تمامًا لما هي عليه الزراعة في الطائف. وفي شرق الوادي بئر محفورة يتدفق منها ماء عذب فرات بغزارة، كما يوجد نهير جارٍ من الغرب باتجاه الشرق. أما بالنسبة لأماكن الشرب العامة التي يتزود منها الجيش بما يحتاجه من مياه، فإنها تقع على عمق ثلاثة أقدام فقط من السطح. ومع ضخامة ما استهلك الجيش منها من مياه فإنها كانت كافية لتغطية احتياجه. وبالنسبة لبدو ليّة، فإنهم يملكون أعدادًا كبيرة من الهجن. لا يحسنون استخدام الأرسن لقيادتها، وإنما يستخدمون عوضًا عن ذلك رؤوس رماحهم لتوجيهها. وبعض هذه الإبل سوداء وهي من صنف يعتبر نادرًا في جزيرة العرب.

قدم عدد من شيوخ المناطق المجاورة للسلام على أحمد باشا الذي استقبلهم بكل عطف وترحاب، وقدّم لهم هدايا عبارة عن أردية حمراء وخضراء، فالذين قُدمت لهم أردية الجوخ الحمراء أبدوا عظيم اعتزازهم بهذا اللباس المميّز، أما الآخرون الذين قدمت لهم أردية الجوخ الخضراء فقد بدا عليهم عدم الارتياح أو عدم الرضا[1] ، وهم في ذلك يشبهون الأطفال الصغار الذين تظهر عليهم علامات عدم الرضا بما قُدّم لهم من ألعاب.

وقد غادر هؤلاء الشيوخ مقرّ الباشا بعد فترة وجيزة ممتطين جمالهم عائدين سراعًا إلى أوطانهم. وأتخيل أنهم حين وصولهم سوف يتربعون جلوسًا على الأرض تحيط بهم زوجاتهم وأطفالهم وهم يروون لهم أدق التفاصيل عن لقائهم بالباشا.

لاحظت هنا في لِيَّة عددًا من العبيد السود من الجنسين. كانت الرياح الشمالية تهب طوال النهار، وسجل مقياس الحرارة الدرجات كالتالي:

عند شروق الشمس	١٩°
في الظهر	٣٠°
عند الغروب	٢٤°

ذات الطبقات المتعددة. فلو كان بهذا الشعيب قوة دفاع مناسبة لكان اجتياز الجيش له صعبًا للغاية. وقد استغرق منا اجتيازه نصف ساعة.

وبعد اجتيازنا لهذا المضيق، دلفنا إلى سهل واسع ممتد أمامنا ومحاط من جهتيه الشرقية والجنوبية بعدد من الجبال. أما من الجهة الشمالية فليس له حدود سوى الأفق. وتنبسط أرض هذا السهل من الطرف إلى الطرف بشكل متموج أخّاذ. ومنذ مغادرة لِيَّة، لاحظنا في المناطق قليلاً من أشجار السنط ذوات الأزهار الصفراء عديمة الرائحة.

ونصل الآن إلى نهاية هذا السهل حيث خيم الجيش في وسط تلك الجبال ذات الشكل المقوس بما يشبه قوس الدائرة. ونصبت خيمتي في وسط مقبرة حيث قال البدو لي إن عليَّ أن أتوقع في تلك الليلة زيارة من أرواح الموتى.

أصبح الطريق من لِيَّة فصاعدًا مستويًا والمسير به سهلاً، ولكنه على أي حال خال تمامًا من الماء. ومررنا أثناء مسيرنا بعدد من البدو الذين كانوا في طريقهم للسّلام على أحمد باشا راكبين جمالهم متسلحين برماحهم التي تبلغ أطوالها حوالي اثني عشر قدمًا، ورؤوس رماحهم مزينة بنوع من

لون رمادي مما يجعلها شبيهة بتلك الموجودة في الطائف.

بعد أربع ساعات من المسير، تبدت لنا خيام المعسكر البيضاء التي كانت قد نصبت منذ فترة قبل وصولنا، وكانت النيران قد أُضرمت على طول صفوف خيام المعسكر المؤقت. ولم تمض إلا هنيهة وتشع أنوار القمر الساطعة متسللة من خلال ستارة من السّحب. وقد كشفت أشعة القمر الأضواء الاصطناعية وحولت الجيش المتداخل مع المنظر العام إلى ما يشبه الخيام الفضية

الطريق نفسه الذي سلكناه في الليلة الماضية. وكان بإمكان هذه القلعة حماية ذلك الطريق بكل سهولة، شريطة أن تكون مؤمّنة بالمدافع.

إن الطرق إلى هذه القلعة محفوفة بالأشجار والحدائق على غرار النمط الموجود بالطائف، حيث تبدو وكأنها معلقة بالقلعة نفسها. وإلى الشمال توجد أعداد قليلة من الأكواخ المتناثرة منتشرة فوق الأرض.

أما بالنسبة للجبال المحيطة بهذا الوادي فإنها جرداء بشكل مخيف،

ضعيفة. وفي لحظة وصولنا، تجمع كل بدو المنطقة لسماعهم أصوات الطبول العسكرية والقرب الموسيقية متسلّقين على هذا الركام الهرمي بسرعة فائقة وحذاقة، وكأنهم ضرب من الأيائل، حيث اختفت الحجارة تحت أجسادهم وأصبحت تمامًا مثل جزر النيل حينما تتمدد التماسيح عليها فتغطيها بكاملها في مواسم اشتداد الحرارة.

وأذكر، أنه تقدّم أمام الباشا شيخ يرتدي ملابس مهندمة، وكان منظره من أجمل ما وقعت عليه عيناي، فجراب جنبيته مصنوع من الذهب والفضة، ورداؤه الفضفاض ذو اللون البنفسجي أظهره في هيئة جليلة، وعلى رأسه غطاء خفيف يقيه أشعة الشمس القوية.

مضى على تحركنا من لَيَّة إلى هذه المحطة ست ساعات تمامًا، حيث أظهرت جمال البدو عدم قدرتها على تحمل أثقال كبيرة. ومن حسن حظ الجيش أنه يمتلك عددًا معينًا من الجمال التي كانت قد وصلت من القاهرة مع قافلة الحج. إن هذا النوع من الجمال أظهر قدرة فائقة على الاحتمال. كان اثنان فقط من هذه الجمال قادرَيْن على حمل محفة قطعة مدفع يعرف بمدفع (أبو ١٢ قطعة). وهذه المدافع كان مطلوبًا نقلها بهذه الطريقة عبر الجبال شديدة الانحدار.

إن المكان الذي نعسكر فيه الآن يسمى بِسل، والقبيلة التي تقطنه قبيلة عتيبة التي سبقت الإشارة إليها(*). إن هذه القبيلة تزرع حقولها بالطريقة نفسها المتبعة في كل من لَيَّة والطائف. ويتوفر الماء في بلادها، ولكنه بلا طعم ولا نكهة، ولذلك لم يوافق مذاقنا[1].

(*) أشار إليها في الجزء الأول من الكتاب.

(١) هذا الماء يبدأ من الينابيع، ثم يجلب من تحت النهر، ويكون في الأصل نقيًا جدًا (ملاحظة المؤلف).

أما بالنسبة لملابس هؤلاء البدو فهي وفيرة وخاصة للنساء والأطفال، وتثبت النساء فوق رؤوس أنوفهن نجومًا صغيرة مصنوعة من الفضة بها قطعة من العملة مقدار قطرها ١٥سم، وفي الوسط تمامًا تشع لؤلؤة من لون مختلف. أما أحزمتهن أو نطاق الوسط فإنها موصولة بواسطة إبزيمين أو مشبكين، ومزينة بعلامات مميزة من محار اللؤلؤ. وبالنسبة لملابس الأطفال فإنهم يلفون أجسامهم بسترة ضيقة مصنوعة من الجلد الفاخر.

أصبحت بسل[1] مشهورة في كل أنحاء الجزيرة العربية لما شهدته ساحتها من أحداث في الفترة المعاصرة. لقد حدثت فيها صراعات كثيرة نجم عنها نتائج مختلفة، ولكن أهمها جميعًا الحرب التي خاضها محمد علي ضد «الوهابيين» الذين كانوا تحت قيادة عثمان المضايفي[2].

---

(١) بِسل واد كبير غني بمزارعه الكثيرة، ويبعد عن الطائف إلى جهة الجنوب بحوالي ثمانين كيلو مترًا، وسكانه كما أشار المؤلف من قبيلة عتيبة، من فرع العصمة. اشتهر بِسل في تاريخ الجزيرة العربية الحديث لكونه كان مسرحًا لأهم معركة فاصلة في تاريخ الدولة السعودية الأولى، خاض غمارها جيش الدولة السعودية بجناحيه الجنوبي والشمالي بقيادة الأمير فيصل بن سعود ضد قوات محمد علي. واشترك فيها أمير عسير «طامي بن شعيب» وزعيم زهران المشهور «بخروش بن علاس»، وغيرهما من مشاهير الزعماء الجنوبيين. انتهت هذه المعركة بهزيمة السعوديين بسبب تفوق تجهيزات جيش محمد علي من جهة وسوء استراتيجية القيادة السعودية في هذه المعركة من جهة أخرى. وصف المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي هذه المعركة بأنها من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الجيش المصري - تاريخ الحركة القومية جـ٣ - ص١٣٦.

(٢) لم يكن عثمان المضايفي قائدًا لهذه المعركة كما ذكر المؤلف، ولكنه كان من أبناء بلدة العبيلاء، وهي قريبة من هذه المنطقة. وهو من القيادات السعودية المشهورة، أخذ أسيرًا إلى مصر، ومن ثم إلى استانبول حيث قتل هناك - انظر: عن هذه المعركة في ابن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد» ١/ ٣٧٠.

وحتى يومنا هذا ما زلنا نلاحظ خنادق المواقع التي أقامها جنود هؤلاء العقائديين، وبقايا قلعة أمر ببنائها الباشا المصري لتعطي الحماية لجيشه الواهن ضد أعدائه.

الحرارة:

طلوع الشمس	٢٠°
الظهر	٣٠°
الغروب	٢٥°

٢٩ يونيو

حُملت أمتعتنا فوق ظهور الجمال قبل طلوع الشمس بثلاث ساعات. وبدأ الجيش في التحرك. أما طريقنا فيتبع منعطفات وتعرجات الوادي. ولم تصادفنا إلا تلال صغيرة تم صعودها بسهولة. كان يعترض سبيلنا عدد من الطرق المتقطعة التي تدل على أن البدو كثيرًا ما كانوا يطرقونها. سلكت جمالنا الطريق دونما وجل. وبعد ست ساعات وصلنا إلى مظللة [1].

يوجد هنا عدد من الآبار، وهي غزيرة بالمياه العذبة، وتعتبر في رأي البدو أحسن نوعيةً من تلك التي توجد في بِسل. على أي حال لا يستطيع المرء أن يُصرّح بأن مذاقها أحلى. لاحظت مجموعات من المنازل [2] على قمم التلال التي تبدو أحيانًا متوّجة بأبراج [3] مدوّرة مبنية من أحجار

(١) مظللة، قرية تقع في واد واسع فيه بساتين. وهي تبعد عن الطائف ٣١ كيلو مترًا إلى الجنوب من لَيّه ـ حمد الجاسر في «سراة غامد وزهران» ص١١ ـ.

(٢) بنيت هذه (المنازل).. جزءًا بالحجارة والجزء الآخر بالطوب. أما بالنسبة للعشش فإنها قد اختفت تمامًا بسبب كثرة الأمطار في هذه الجهات قياسًا بقلتها في الجزء الأسفل من الحجاز (ملاحظة المؤلف).

(٣) بنيت هذه الأبراج بالحجارة، ويبلغ ارتفاعها ١٣ قدمًا وطول قطرها ستة أقدام، =

الجرانيت، تستخدم في أوقات الحرب كنقاط مراقبة، ويغلق البدو على أنفسهم بداخلها مصحوبين بقطعانهم وأبقارهم. وتقع الأراضي المزروعة في بطن الوادي عند أقدام الجبال، وهي مرتفعة عن مجرى الوادي. شكرًا لهذا الإجراء الاحتياطي الذي ترك مياه الوادي تجري بسلام أثناء فصول الأمطار.

توجد بعض أشجار النبق، متوسطة الارتفاع غير بعيدة من الينابيع. إنّ بطون الأودية (الجارية) تغذي أعدادًا من الأشجار ذات الأوراق العريضة التي تحتوي على مادة سكّرية وحليبية، وأشجار التين التي تُوفّر بأوراقها المكتنزة ملجأً طبيعيًّا للمسافرين المنهكين. إن بدو (أي سكان) المظللة يزرعون الشعير والقمح، حيث يبذرون هذه الحبوب في الأودية المجاورة المفصولة عن الطرق الأكثر استخدامًا، إضافة إلى تربيتهم لأعداد كبيرة من الماعز. وفي الحقيقة يمكن أن يقال: إن من هذه يتكون المصدر الرئيسي للثروة. إن مظللة غير واسعة، فنظرة واحدة من على رأس تل لا يرتفع كثيرًا عن مستوى السطح، تريك كل المساحة التي تغطيها. إن الجبال هنا ـ كما هي في أي مكان آخر ـ تقدم موضوعًا متوحدًا فقط للعين، إذ لا يمكن للحياة النباتية أن تعيش في جنباتها المسْوَدَّة التي احترقت بفعل أشعة الشمس الشديدة.. إذا استثنينا قليلاً من الحيوية التي يضفيها عليها منظر البيوت الخلاب، تلك البيوت التي تتوج بعض القمم (المحيطة) أحيانًا.

= ويستخدم الدور الأرضي اصطبلاً للخيل، أما الدور الأول فهو لإقامة أو سكن البدو وعوائلهم، ويطل على المستوطنة كافة؛ مصطبة.. يمكن من خلالها رؤية ما يحيط بها. (ملاحظة المؤلف).

يبدو أن سكان مظللة كانوا كثيرين، خلافًا لما يبدو عددهم هذه الأيام. ففي عام ١٨٣٢م، اجتاح الحجاز وباء الكوليرا،[١] ثم عرّجت الكوليرا بوطأتها القاسية على هذه الواحة، ولذلك فإن المقبرة التي يعود تاريخها إلى تلك الفترة، تقدم دليلاً مأساويًا.

كانت رياح الشمال تهب طوال النهار، وعندما خيم المساء بدأت تهب بشكل عاصف حيث غمرت مخيمنا بسحب من الرمل[٢].

الحرارة:

طلوع الشمس	١٩°
الظهر	٣١°
الغروب	٢٥°

(١) تحدثت المصادر المعاصرة عن وباء الكوليرا الذي ضرب الحجاز خلال هذا العام وذهب ضحيته خلق كثير.

(٢) شاهدت في مظللة أعدادًا كبيرة من طيور النورس. إنها أصغر من تلك الموجودة في فرنسا، أجنحتها رمادية منقطة بنقط سوداء صغيرة، أما بالنسبة للصوت الذي تحدثه فإنه أقل رتابة من الأصوات المشابهة لطيورنا الأوروبية (ملاحظة المؤلف).

الفصل الثالث

مغادرة مظللة - بئر الباشا - قيا - قبيلة بني الحارث - قبيلة بني هلال - النباتات - الحشرات - الشيبي أفندي - الخبز - مغادرة قيا - البدو - بئر هزايل - درجة الحرارة - وادي درها - قبيلة عتيبة - وادي زهران - درجة الحرارة - جاسوس - أبوجمل - ضريح شيخ - العطش - الفئران - درجة الحرارة - سيل تربة - الفرعون تيت - درجة الحرارة - الحريق - فقدان الطريق - عودة إلى المعسكر - درجة الحرارة.

الفصل الثالث

٣٠ يونيو ١٨٣٤م

بدأنا السير لمدة ثلاث ساعات قبل انبلاج الصباح، وبعد أن ضاق الوادي في إحدى اللحظات ـ بسبب الجبال ـ عاد إلى اتساعه الأول، حيث تمكنت الجمال من أن تسير في صفوف طويلة على خمسة عشر مسربًا. والوادي صحراوي للغاية، ولا تسكنه أي قبيلة، ومع ذلك فيمكن زراعة أرضه بسهولة، وكان عبق أشجار السنط مع زهورها الذهبية، يعتبر مكافأة واضحة لأولئك الذين يرغبون في البقاء في هذه الأماكن.

ويأتي البدو الرحل من وقت إلى آخر إلى هناك وينصبون خيامهم لكي يرعوا قطعانهم، ولكنّ بُغْضهم للأتراك والخوف من النهب جعلهم يتركون المراعي، ولن يعودوا إلا بعد مرور الجيش.

ويبعد المكان الذي سنعسكر فيه مسافة أربع ساعات على الجمل من مظللة، وهنا يُصبح الوادي منحنيًا ويأخذ شكل الدائرة، ويُصبح الأفق كله منغلقًا بمجموعة من الجبال. ولا يوجد في هذه المحطة سوى بئر واحدة مبنيّة، ويسمونها بئر الباشا ـ بئر الشريف ـ بئر راجح. وهذه البئر قديمة المنشأة، والاسم [illegible] تحمله اليوم قد أطلق عليها لأنها كانت [illegible] حفرت منذ بضع سنوات بواسطة محمد علي[١]، والشريف راجح[٢]. وهما

---

(١) محمد علي باشا حاكم مصر.

(٢) وهو الشريف راجح بن عمرو الشنبري وكان مشهورًا بالشجاعة وهو من الأشراف =

[illegible] ان كانا يحاربان [illegible] «الوهابيين». وكان في هذا الموقع سابقًا ثلاثون بئرًا مشابهة لهذه البئر، ولكنها تهدمت وامتلأت بالرمال. ومياه بئر الباشا أفضل من مياه المظللة، ومع ذلك فإنها لا تذيب الصابون، ولا تصلح لطهو الطعام. والعين وافرة المياه، وطعمها يتحسن كلما استخدمناها أكثر، وهذه المحطة تسمى (قيا)[1]، وجمّالونا - أي سائسو الجمال - هم بالتحديد من هذه المناطق، وقد ناديت أحدهم إلى داخل خيمتي والقيت عليه بعض الأسئلة:

● هل تعسكر قبيلتك بعيدًا من هذا المكان؟!

■ لا، إنها في هذه اللحظة على مسافة بضع ساعات صوب الجنوب.

● هل كانت قيا دائمًا جرداء كما هي الآن؟!

■ لا، فمنذ بضعة أيام كانت تحيط بالآبار الأكواخ الخاصة برعاة قبيلة بني الحارث، والتي تمتد بعيدًا صوب الشمال، وهم يحضرون في أعداد كبيرة كل سنة لكي يحتلوا الوادي الذي تعتبر مراعيه مِلْكًا لهم، ولكن لما

= المخلصين لمحمد علي باشا، شارك معه في حروبه ضد عسير وعينه الباشا أميرًا عليها؛ إلا أن عسير ثارت عليه وقتلته في عام ١٢٣٩هـ/ دحلان طبعة الدار المتحدة للنشر ص٣٤٣.

(١) قيا، إحدى بلدان قبيلة بالحارث، وتقع بلدان هذه القبيلة بالنسبة لمدينة الطائف [illegible] مسافة ٦٠ كيلو مترًا وهي مستطيلة، تمتد من [illegible] وسهول تقع سهولها في عالية نجد، وتمتد جبالها على امتداد جبال السروات. وفيها عدد من الأودية المشهورة، منها وادي مَيْسَان ووادي بَواء ووادي أبو راكة (صفراء) ووادي قِيا ووادي الصور ووادي غزايل ووادي البيضة ووادي الجبوب. ويحد قبيلة بني الحارث من الشرق قبائل البقوم وغامد الزناد، ومن الغرب تهامة إلى حدود الليث، ومن الشمال قبيلة عتيبة، ومن الجنوب قبيلة ثقيف، وقبيلة [illegible] مالك، [illegible] الجاسر، معجم [illegible] المملكة العربية السعودية، القسم الأول ص١٦٧.

كان العام الماضي قليل المطر، فإن الوادي لم يحظ إلا بزيارة بعض الأسر الخاضعة لشيخ القبيلة خضوعًا مباشرًا.

● هل هذا حق لهم؟!

■ نعم، حينما يسود الجفاف، يكون للشيخ وأقاربه وحدهم حق في الاقتراب من الآبار أو من العيون التي توجد في وسط مراعي القبيلة. أما بقية البدو فإنهم يتفرقون في أماكن أخرى، ولا يتجمعون إلا في فترة أفضل.

● هل يحتل بنو الحارث هذه الأراضي منذ زمـن بعيـد؟!

■ كانت قيا في الماضي مسكونة ببني هلال (أصحابها الشرعيون) الذين تخلّوا عنها لكي يرافقوا (أبو زيد) في حملته على مصر، ولكننا لم نسمع منذ ذلك الوقت شيئًا عنهم بعد هذه الهجرة.

وفي هذه الفترة كانت قيا والمناطق المحيطة بها مزروعة بشكل جيد. ثم أصبحت الأرض جرداء بعد سفر بني هلال، واستولى عليها رعاة بني الحارث.

وقرب الآبار لاحظت شجرتين ضخمتين من أشجار الكرز من نوع خاص، وثمارهما أكبر من ثمار الأشجار الأوربية ومفلطحة من الناحية [illegible] أشجار Clematis erecta مع أشجار [illegible]. والأرض [illegible] في بعض أجزاء منها بطبقة رقيقة من الرمل، وهي هشة وليست لها رائحة، ويدفع لونها إلى الاعتقاد بأنها تشتمل على مسلفات، ولكن طعمها يؤكد غير ذلك.

ونمْلُ قيا له لذعات مؤلمة جدًا، وهو يهاجم الأشجار ويغطيها بإفراز

أخضر يتحول بعد ذلك إلى اللون الأبيض، ويأخذ تمازج الفطر. ورأيت كذلك الكثير من العقارب طولها ما بين أربع إلى ست بوصات، ولدغاتها شديدة الخطورة، وقد لدغت عقرب أحد الجمال في رجله قبل غروب الشمس فمات أثناء الليل.

وسألت أحد البدو:

● ما هو العلاج الذي تستخدمونه ضد هذه اللدغة؟!

أجابني قائلاً:

■ حينما يلدغ عربي من عقرب، فإنهم يضعون على الجزء الملدوغ أمعاء الخروف الصغير وهي ساخنة، ويربطون العضو المصاب بضاغطة حتى لا يسري السم في الجسم مع الدورة الدموية. وقد يقومون بعمل فَصْدات عديدة في مكان اللدغة، وهذا العلاج ينجح حين تكون اللدغة في الذراع أو الرجل، ولكن إذا كانت في مكان آخر غير ممكن فَصْدُه فليس هناك أي تصرف وربما يواجه المريض الموت.

على بعد نصف ساعة من الآبار التي نصبنا عندها معسكرنا وجدنا ثلاث آبار أخرى تشبه الأولى. ونصب شيخ بني الحارث - وهو من الأشراف - خيامه حولها. لقد جاء لكي يزور الباشا الذي أجبره على أن يقدم للجيش بعض مئات من الخراف التي دُفع له ثمنها بالكامل. وفي هذا اليوم انضم إلى المعسكر «الشيبي أفندي» حامل مفاتيح الكعبة، وكان هدفه المشاركة معنا في الحملة.

وكادت الشمس تغيب، ولم تعد ترسل إلا أشعة ضعيفة، وبدت جبال الجنوب الغربي متباعدة، ولاحت قممها، وكأنها بعض الأبراج المرتفعة.

أما جبال جنوب الجنوب الشرقي، فإنها على العكس من ذلك متصلة ببعضها وعلى درجة من الزُّرقة، حتى أننا كنا نعتبرها بحرًا. وبعد صلاة المغرب، قام البدو - الذين لم يكونوا قد أكلوا سوى الصمغ المخلوط بلحاء الأشجار الواقعة على الطريق - بإيقاد نار كبيرة - مستخدمين الشجيرات - والقوا عليها طبقة رقيقة من العجين، وبعد أن قاموا بتغطيتها بالرماد. . سحبوها والدخان لا يزال ينبعث منها، والتهموها بكل شراهة، وهذا هو خبزهم، ويعدونه دائمًا وقت تناول الوجبة.[1]

أول يوليو ١٨٣٤م

كانت بعض[2] البدويات اللاتي تزوجن حديثًا قد غضبن، لأن الباشا قد رغب في حرمانهن من قضاء شهر العسل مع أزواجهن الذين كانوا (جمّالة) في جيشنا، وكن يرتدين ثيابًا بلون الزبد، وقطعة قماش رقيقة زرقاء اللون مفتوحة من الأنف حتى الجبهة يستخدمنها كنقاب. واستخدام البرقع الخاص بالمدن الإسلامية غير معروف هنا. وهذا يعتبر تحسنًا ملموسًا. ورأينا أبعد من ذلك نساء كاشفات الوجه تمامًا، وهؤلاء البدويات عملن على كسب الوقت - بالتسلي على الطريق - بغزل وبر الجمال.

وظهر أمامنا جبل صلب شديد الانحدار، واختفت آثار المسارات تمامًا، وكان الصعود شديد الصعوبة بالنسبة للجمال، وبخاصة تلك التي كانت تحمل قطع المدفعية، وبدأت الشمس في الظهور على الأفق مكللة بالضياء، وذلك بعد قيام المسلمين بأداء صلاتهم ووجوههم صوب الكعبة.

وشجع البدو الجمال بأصواتهم - أي حدائهم -، وبدت الجبال من بعيد وهي مغطاة بهذه الحيوانات الصبورة مع حمولتها البيضاء أو الحمراء أو

(١) الخبز بهذه الطريقة يسمى قرص «المرمودة»، مشتق من الرماد ويسميه البعض «القرمة» وهو قرص شائع استعماله خاصة لدى البادية وهو من عجين البر.

الخضراء، على أنها تنشط وتتحرك نتيجة لهذه الخلية الضخمة من النمل. وبعد أن وصلت إلى قمة الجبل، رأيت أمامي حوضًا واسعًا تحيط به الجبال، وضبابا كثيفًا يغطي كل واجهته، ويُغْطيه شكل بحيرة رائعة. وأخذت الأعداد الكبيرة من صفوف الجمال التي تصل إلى السهل تشبه أسطولاً ضخمًا، وكانت رؤوس الحيوانات أشبه ما تكون بمقدمات السفن.

وقبل الوصول إلى نهاية هذا الحوض، كان السير على أرض صلبة يتخللها من وقت لآخر بعض المنحدرات الشديدة وبعض الروافد قليلة العمق، وأخذت بعض الغزلان تفزع وتهرب من هذا الضجيج الذي لم تتعود عليه، وأخذ كثير من الأتراك يضغطون على جوانب خيولهم ويقومون بملاحقتها، وكانت السيوف في أغمادها المذهبة، وومضات سروجهم الغالية تتحرك في أثناء جريهم، ونسمع من كل ناحية انفجارات هذا السلاح المخيف، والذي تزيد سرعته على سرعة ذوات الأربع التي تتصارع ثم تفقد الحركة وقد أصبحت ضحايا.

ولقد تسليت بين وقت وآخر بجمع قطع من الصمغ عن شجر السنط. وقد تُجرح الأيدي في بعض الحالات بسبب الأشواك التي تبدو وكأنها ترغب في الدفاع عن نفسها ضد شراهة المادة. وآسف بكل صدق لمصير هؤلاء المشاة البائسين الذين تثخن أجسامهم تحت ثقل الحقيبة والبندقية و (محزم) الرصاص. وكنا في اليوم الخامس فقط لمسيرنا من الطائف، وكان بعض منهم قد فقد أحذيته، والأحذية التي يُعطيها محمد علي لجنوده مصنوعة من الجلد الأحمر وليس لها سوى نعل دون حشو، والضباط وحدهم هم الذين يحصلون على أحذية على النمط الأفرنجي، وباشا مصر ربما قد رأى في ذلك دلالة معينة.

وهؤلاء الجنود الذين كان عليهم تحمل مثل هذه المشاق التي تواجهها حملتنا المصرية، كانوا في أغلبهم، أطفالاً.. قام محمد علي بأخذهم بوحشية من أُسرهم في سن كانوا لا يزالون فيها يحتاجون إلى رعاية أمهاتهم.

ولقد حان الوقت لكي نُعرّف أوربا ببؤس وشقاء هذه الحضارة المصرية التي لا يعرف منها إلا جانبها المضيء. وسأقوم بهذه العملية في كل مرة تسنح لي فيها الفرصة.

نصب الجيش معسكره إلى جانب بئر الغزالة [1]. ونصب الخدم خيامنا، وجعلوا المدخل صوب الشمال الغربي، إذ أن الهواء كان يأتي من هذه الناحية، وهذا احتياط لا يهمله العرب أبدًا. وكان الجو أقل حرارة من الأيام السابقة حيث كانت الحرارة كما يلي:

صباحًا ١٨°
ظهرًا ٢٦°
عند غرُب الشمس ٢٥°

وبئر الغزالة(*) أُنشئت على مستوى السهل، وقد تم حفرها بطريقة خشنة وإلى عمق خمسة عشر قدمًا داخل الصخر. ومياهها ممتازة، ولكنها لم تكف للجيش، ولكننا كنا قد احتطنا بملء الزمزميات في المحطة السابقة. ويعيش في هذا السهل عدد كبير من الأرانب البرية والغزلان، وهذا ما يُثبت وفرة المياه. وهناك ملاحظة أخرى، وهي أنه حينما يكون البدوي في

(١) آبار أو بئر الغزائل، سميت بذلك بسبب وجود الغزلان بكثرة في هذه المنطقة. (ملاحظة المؤلف).

(*) ولعلها بئر غزايل الذي قال عنها ابن بشر «غزايل بئر كبير واسع غزير الماء قرب بلدة تربة». عنوان المجد جـ١ ص٣٧٠ طبعة دارة الملك عبدالعزيز.

بلادٍ غريبةٍ عليه، فإنه يتبع حين يزيد عليه العطش آثار أحد هذه الحيوانات التي تنتهي في العادة عند نبع ماء.

٢ يوليو ١٨٣٤م

تصاعدت الألوان الحمراء القانية لنيران المعسكر ضد أشعة القمر الشاحبة. ويمسير الجمال بشكل موحد ومنتظم كالبندول وراء بعضها كأشباح كبيرة، فيما يتبعها الرجال أو يسيرون أمامها طبق واجبهم أو رغبتهم، تشرق الشمس خلف الجبال، فيختفي القمر والنيران، ويستمر السير في وادي الغزالة لمدة ساعتين، وحين نصل إلى نهايته نصعد على تل مليء بالحجارة، ثم نهبط على سهل رملي مغطى بالأشجار الشائكة ذات الأوراق الناعمة. وقد تعوَّد البدو على أن يحملوا معهم حصيرة مستديرة يضعونها تحت الفروع ثم يضربون بعد ذلك الشجر بعصاة طويلة، أمّا ما يسقط من أوراق فيتم جمعه بكل عناية كغذاء للجمال المريضة أو الهزيلة.

وسرعان ما نصل إلى مجرى كبير جاف يحتل جزءًا من واد جميل مغطى من كل الاتجاهات بأشجار خضراء مليئة بالأوراق، وبشكل لم نر فيه مثلها حتى الآن في هذه البلاد.. مما ذكّرني بنباتات النيل الجميلة. وهذا هو وادي درعًا[1] كما يسمونه، وبدو وادي درعا ليست لهم سوى علاقات نادرة مع الطائف ومكة. وهم يعيشون دائمًا في جبالهم، ولهم ملامح أكثر بداوة من العرب الآخرين القريبين من مدن الحجاز. وهنا، نجد أن المنسوجات المطبوعة سواء أتت من الهند أو من مصر قد اختفت تمامًا. وملابس الرجال والنساء لا تمثل أي اختلاف عن بعضها. وهم الذين يغزلونها بأنفسهم. وهذه المنسوجات كلها لون الصوف.. أي اللون الأبيض المتسخ واللون

---

(١) لم أجد له ذكرًا في ما لدي من مراجع.

الأسود الذي تتفاوت درجة دكانته، والكثير من البدو يحملون بالكاد بعض قطع القماش حول وسطهم أو على أكتافهم، أما الأطفال فإنهم عراة تمامًا.

أما حلي النساء فتشتمل على حلقة كبيرة معلقة في غضروف الأنف، وعقد يتركب من أصداف صغيرة من أصداف البحر الأحمر، وسلسلتين صغيرتين من الحديد مثبتتين في براقعهن ويحرصن على الاحتفاظ بهذه السلاسل برّاقة. وفي الطريق يحدث أن يعمل الرجال كـ «جمّالة»، ويقطعون مسافات طويلة على الأقدام لهذه الغاية. وقام الكثير من البدو الفضوليين ـ عند مرورنا ـ بالإسراع في تسلق الجبال لرؤية الجيش، وكنا نميزهم بالكاد عن الصخور التي كانت من لونهم نفسه، ولا نلحظهم إلا حين نصبح إلى جوارهم.

والقبيلة التي تعيش في هذه المناطق هي قبيلة عتيبة، وهي القبيلة نفسها التي قابلناها سابقًا على طريقنا، ولكن بدو درعا ليسوا على درجة ثراء إخوانهم في بسل. وهذه القبيلة الكبيرة تنقسم إلى ثلاث فئات: فئة تعمل بالزراعة حيث تتوافر المياه، وفئة ترعى في الأماكن النادرة المياه، أما الفئة الثالثة فهي التي تسكن المناطق الجرداء ولا تتمكن إلّا من تربية الجمال.

ومجرى وادي درعا هو من أقوى ما قابلناه (حتى الآن)، ولا يوجد في هذه النقطة آبار. وهم يضطرون إلى عمل حفائر صغيرة على وادي بسل حتى يحصلوا على الماء. وهذا العمل ليس صعبًا بالنسبة لعدد صغير من المسافرين. ولكنه سيكون متعبًا للغاية حين يتعلق الأمر بريِّ عطش بضعة آلاف من الرجال مع حيواناتهم.

وكان الجيش يتمكن بالكاد من الحصول على الماء اللازم لاحتياجاته، ونشعر بالأهمية القصوى التي يشعر بها الأدلّاء في هذه البلاد، فيكفي خطأ واحد من جانب الدليل أو سوء نية منه لكي يجعلنا نموت جميعًا.

وليس في درعا سكان ثابتون، ويسكنها الرعاة في بعض الأوقات، ونحن على مسافة مسيرة يوم من وادي زهران الذي يحكمه الشريف منصور حليف محمد علي المخلص [١]، ويحمل مكان إقامته - أيضًا - اسم زهران. وهذا الوادي توجد فيه قرى عديدة لها سكانها وتحيط بها الزراعات والحدائق. وهذه أسماء القبائل التي تسكن هذا الوادي:

١ - بني عمر [٢].

٢ - بني حسن [٣].

٣ - قريش [٤].

٤ - بني بشير.

---

(١) هو الشريف منصور بن زيدالشنبري، وكان من المخلصين لأحمد باشا حاكم الحجاز، وقد ولاه إمارة غامد وزهران قبل استعادة العسيريين لها في بداية حكم الأمير علي بن مجثل. دحلان ص٣١٠.

(٢) بنو عمر.

(٣) بنو حسن.

(٤) هي القبيلة التي حملتنا من جدة إلى الطائف ونعرف انها مقسمة وموزعة على الأراضي العربية. (ملاحظة المؤلف).

وقد ورد في معجم قبائل المملكة العربية السعودية لحمد الجاسر في ص٣١٧ عن قبيلة زهران وفروعها ما نصه: «زهران واحدهم زهراني منهم (١) بَنُو يُوس ومن أفخاذهم: بنو حسن، وبيضان وبلخزمر (بنو الخزمر) وكنانة وبنو عامر والأحلاف.

(٢) بنو سُليم ومنهم: بالمفضل (بنو المفضل) وآل مقبل، وآل يحمد وآل سعدي وبالطُفيل، والمشاييخ وبنو بشير.

(٣) بنو عمر، ومن أفخاذهم: الجُبُرْ، وآل سويدي، وبنو جُنْدُب وبنو حُرَيْر، وبنو علوان، وقريش.

(٤) دوس، ومنهم، بنو مُنْهب، وآل عياش، وبنو علي، وبنو فهم.

(٥) بنو عُمَر الأشاعيب، ومنهم: بنو عمر، وبنو عمر العلي، وبنو عمر أهل نَاوَانَ (اسم واد في تهامة).

٥ - عدوان.

٦ - بني قثم.

وكل شيوخ هذه القبائل تعترف بسلطة الشريف منصور، وماء درعا حلو عديم الرائحة.

وهبت اليوم الرياح الغربية، وكما هو الحال في البلاد الأخرى من الحجاز، تهب في الساعة العاشرة وتزداد قوة حتى غروب الشمس حيث تتوقف تمامًا، وكانت الحرارة:

صباحًا	١٩°
ظهرًا	٢٦°
عند غروب الشمس	٢٤°

وكانت السماء صحوًا بشكل مستمر، وصحة الجنود جيدة، وبالرغم من أن الكتيبة السادسة عشرة كان نصفها من الأطفال فإنها لم يحدث فيها أكثر من خمسة وعشرين حالة مرضية.

ووصل أحد الجواسيس إلى المعسكر، وسرعان ما أدخلوه إلى خيمة أحمد باشا، وحتى هنا كنا قد سافرنا في بلاد صديقة أو محايدة على الأقل، وكنا في كل يوم نقترب أكثر من الإقليم الذي يحتله الأعداء، وبعد المقابلة، تم إرسال أحد الرجال صوب وادي بيشة [١]، لكي يفحص حالة الوادي واستعدادات أهالي عسير. وأعلن الجاسوس أن البدو كانوا يستعدون للمقاومة بعنف، وبدا أن الباشا قد أصبح مهمومًا.

---

(١) بيشة، هو اسم وادٍ غني استولى عليه أهالي عسير (ملاحظة المؤلف).

٣ يوليو ١٨٣٤م

تم تأجير بعض الجمال من قبيلة عتيبة لكي تحل محل الجمال التي ماتت على الطريق، وهذه الجمال التي كانت تشبه سادتها في الاستقلال كانت لا ترغب في الخضوع والسير وراء بعضها، وانتهى بها الأمر إلى فوضى تشبه فوضى قطيع الأغنام.

أما (أبو جمل)، المجنون الذي قابلناه من قبل في بحرة، فإنه قد رغب في أن يسير وراء حملتنا، وكان المسلمون يستأنسون بوجود هذا القديس المزيف. وكانت كل مطايا الجيش تحت إمرته، وإذ كان يسير على قدميه في هذا الصباح فإن ذلك يرجع إلى أنه كان يفضل ذلك. وكان أحد الشيوخ قد التقى به في مكة أثناء موسم الحج وقد أصبح رفيقًا له.

وأخذ العلم الأخضر الذي حمله (أبو جمل) يتحرك ببطء بتأثير نسيم الصباح الضعيف. وكان صوته العذب يتجاوب مع صوت رفيع لترتيل ديني كان المسلمون يستمعون إليه بخشوع.

وكان الطريق على الرغم من كونه جيدًا متعبًا للجنود نتيجة لطوله، وواجهني أحد الجبال على شكل هرم رباعي، وتتبعه ثلاث أو أربع تلال تشبه تلك الأكوام من الحجارة التي توضع على مقابر الموتى في بعض بلاد المسلمين، ولكن هذه بكتلها الضخمة تبدو وكأنها من عمل عمالقة كانوا قد ألقوا بها أثناء مرورهم، وعلى بعد قريب يوجد ضريح حقيقي، وأسرع رجال الجيش لكي يضعوا عليه قرابينهم.

ودخلنا في أحد الوديان الذي تشكّل بجبال عالية وأكثر صلابة وأكثر امتدادًا عن الجبال الأولى. وبعد أن وصلنا إلى قمة أحد هذه الجبال، كان منظر الأشجار التي نراها ينسينا متاعبنا. وكنت على صهوة الحصان منذ

عشر ساعات، ولم أكن قد تعودت حمل الماء معي، فكان العطش الشديد يجفف فمي، ولكني قابلت لحسن الحظ أحد الضباط الفرنسيين الذي جعلني أشرب من زمزميته الفضية ذلك المشروب الغالي (أي الماء) الذي كان أحد تجار آسيا قد دفع فيه وفي ظروف مشابهة كل ثروته.

ووجهة النظر هذه التي تحدثت عنها تتضمن واديًا جميلاً مغطى بالأشجار التي تشبه أشجار درعا، وهي تشبه أشجار الصنوبر. ويمكننا أن نميز نوعين منها، وهي أشجار الأثل وأشجار«عرين». وتسمع الأذن صدى هبوب الريح التي تلعب في مجموع النباتات والتي قد نميل إلى وصفها بصوت سقوط المياه في أحد الشلالات. وحينما نزلنا إلى قاع الوادي سعدنا برؤية جدول صغير من الماء العذب الصافي يسير على الرمل.

وبعد مسافة قصيرة من الطريق رأيت فئرانًا لها لون رمادي ولون بطنها أبيض، وعلى ظهرها بقع بنيّة، وأجسامها أكثر طولاً من فئران أوربا، ويبلغ طول ذنب الواحد منها عشر بوصات، وينتهي الذنب بخصلة صغيرة. وهذه الفئران سريعة في جريها ويستحيل على المرء أن يلحق بها. ويدّعي البدو أن هذا الحيوان يسكن في الثقوب الصغيرة التي يحفرها تحت الأرض.

وكانت درجات الحرارة كما يلي:

الصباح	١٩°
عند الظهر	٣٢°
عند غروب الشمس	٢٥°

٤ يوليو ١٨٣٤م - إقامة :

والمجرى المائي الذي نعسكر إلى جواره له أسماء عديدة، فالعرب يسمونه سيل تَرَبَه أو سيل «مجدي فشلة»[1] بدون فرق. وتسير فيه المياه من الغرب صوب الشرق. وفي أثناء فصل الأمطار يصبح مكان هذا السيل الذي نغطيه الآن بخيامنا نهرًا جميلاً ومتسعًا. أما الناحية الشمالية من الوادي فإنها لا ترتفع كثيرًا وكلها رملية، وضفّته الجنوبية ترتفع إلى خمسة عشر قدمًا. ويمثل ذلك الجزء من الوادي الذي جفت فيه المياه نهرًا بدون ماء، انتثرت فيه الحصى الكبيرة الرمادية والزرقاء.

ويسري الماء على قاع رملي، ويغطي جوانبه برسيم الماء، وينمو النعناع البري بفروعه الطويلة والتي تزينها زهراته الزرقاء. وحين نصل إلى أسفل، نجد أن الماء قد تطعم بطعم هذا النبات. وقام الكثير من الأشخاص بإرواء عطشهم، وكانت الطريقة التي يستخدمونها تميز الأقاليم التي ينتمون إليها. فكان الأتراك والفلاحون المصريون يشربون من وسط المجرى، أما العرب فكانوا على العكس من ذلك إذ يحفرون حُفرًا صغيرة إلى جانب المجرى ويملأون منها قِرَبهم بمغارف من الخشب. فسألت أحد البدو:

● لماذا تروي عطشك بهذه الطريقة؟!

فأجابني:

■ لأننا نعرف تجارب الصحراء.

---

(١) لعله شعيب خَنْشل، انظر فؤاد حمزة، في بلاد عسير ص٢٨ .
أما سيل تربة أو وادي تربة أو وادي سبيع فهو أحد الأودية الرئيسية الذي تتجمع فيه مياه الشعبان والسيول المتكونة من الأمطار التي تهطل على السفوح الشرقية لسلسلة جبال السراة.

● حاول أن تفسر . . .

■ طيب. عليك أن تعرف أن تيار الماء يشتمل على بعض الديدان، وحين تدخل إلى الجسم مع الماء فإنه ينجم عن هذه الديدان أكبر الأذى.

● هل تريد أن تتحدث عن الفرعون تيت؟!

■ تمامًا.

هذا هو رأي كل العرب عن أسباب الإصابة بالديدان، ومع ذلك فحين تشرب حيواناتهم فإنهم يهملون هذا الاحتياط الذي أتحدث عنه، ويظهر أنهم قد لاحظوا أن هذه الدودة لا تهاجم هذه الحيوانات.

ويضم المجرى المائي أسماكًا صغيرة تحاول أن تصعد ضد التيار. وقدَّم لنا الطاهي طَبقًا منها، ولم أصدق عينيَّ حينما رأيتها على الصينية. وإذا ما اعتقدنا فيما يذكره البدو فإن هذه الأسماك تصبح كبيرة للغاية في فترة الأمطار.

لقد كان من الصعب أن نختار مكانًا أفضل من هذا المكان من أجل إقامة الجنود. وانعكس ذلك وبشدة على نفوس وأجساد المسافرين. وكان الأتراك يفرشون سجاداتهم إلى جانب مجرى الماء، ويمضون هناك الليل والنهار يستمعون باهتمام إلى خرير المياه الذي يجعلهم يستغرقون في أحلام لطيفة. الأتراك شعب متخلف، وفي بعض الأحيان همجي، ومع ذلك فإنه يضيف إلى هذه الصفات الرغبة الواضحة في الميل إلى المناظر الأكثر بساطة والموجودة في الطبيعة.

وبالأمس كانت الريح تهب من الغرب، وها هي تهب اليوم إلى الشمال الغربي، وقد أصبحت أقل حرارة. وفي رأي البدو الذين يسكنون المناطق المحيطة بسيل تربة وكذلك العرب المتعلمين الذين يشتركون في

الحملة، أن درجة حرارة هذه المناطق هي أكثر ارتفاعًا لأن الأرض أكثر انخفاضًا وتحيط بها الجبال، ومع ذلك فإنه نتيجةً لهواء الشمال الغربي أصبحت درجة الحرارة محتملة في هذا اليوم . . وعلى النحو التالي :

الصباح	١٨°
الظهر	٢٨°
الغروب	٢٥°

٥ يوليو ١٨٣٤م

كانت الخيام محمولة على جوانب الجمال التي ملأت الجو برغائها الوحشي، ومع ذلك فقد نعستُ ونمتُ تمامًا. وجاء خادمي لكي يوقظني، وحين فتحت عينيّ رأيت الوادي الذي كان أخضر للغاية بالأمس وقد امتلأ الآن بسحب كثيفة من الدخان تتخللها أعمدة ضخمة من النيران ترتفع في الهواء. وكان الجنود قد قاموا ـ من أجل إفساح طريق لسيرهم عبر المجرى المائي ـ قد أحرقوا أشجار الوادي، وكانوا حاقدين على المشاعل التي كانت أمام قادة الجيش، فأوقدوا نيراناً كبيرة طغت أنوارها على أنوار رؤسائهم. ولقد أسرعت بالابتعاد ـ مع فزعي ـ من هذا المنظر المخيف، وعند عودتي كنت أرى دائمًا هذا الحريق المهلك. وقلت لأحد البكباشية :

● كيف تركت جنودك يحرقون هذه الواحة الجميلة؟!

فأجابني قائلاً :

■ إنني أكثر أسفًا منك لهذا الحريق الذي يهدّد الواحة، ولكن هذه الأشجار لا يمكن أن تشتعل بسهولة، ولن يستمر الحريق لمدة طويلة.

وهذه الإجابة هدّأت نفسي.

وتركت عن يميني . . وعلى تل صغير، بقايا بعض المنازل القديمة للبدو، ودخلت في واد توجد فيه بعض النباتات التي تشبه الموجودة في

بلادنا، وبعض نباتات الصُبّار ذات الزهور الصفراء وبعض الاسكليبيس asclépias وبعض أشجار الكافور، وعددًا كبيرًا من أشجار الميموزا (أشجار القتنة).

وكان هناك بعض الرعاة ـ ويبدون نصف متوحشين! ـ يتحركون بين هذه النباتات الجبلية الحزينة. وكانت أصداء صيحاتهم الحادة تصلني. وكانت أعشاش الطيور ذات الشكل الكروي تتأرجح على غصون أشجار الأراك (المسواك). وهذه الأعشاش هي مثل المهد الذي تضع فيه الأمهات من بعض شعوب أمريكا أطفالها حين يموتون.

ولقد تقدمت إلى الأمام، ووجدت نفسي مع بعض البدو الذين ينتسبون إلى المناطق المحيطة بمكة. ووصلنا سويًا إلى تلك الحفائر الصغيرة التي حفرت مؤخرًا، وكانت مملوءة بالماء، وبدت على أنها تدل على مكان المحطة، فقلت لهم :

● أيها الأصدقاء. يبدو أنه من الواجب علينا ألاّ نذهب إلى أبعد من ذلك.

فأجابني أحد الشيوخ :

● إنني أتفق معك في هذا الرأي، ولكني أرى بعض رجال «دوسري» أمامنا وهم يعرفون بلا شك المكان الذي سيعسكر فيه الجيش.

وواصلنا السير. وبعد ساعتين، توقف الأشخاص الذين كانوا أمامنا، وبدا عليهم أنهم يرغبون في الوصول إلينا، فقال أحد أفراد القوات :

● أخيرًا . . ها هو مكان المحطة.

■ فأجابه آخر:

● إنك تخطىء، فالبدو لا يتركون سروج خيولهم. إنهم لا يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى نهاية رحلتهم.

ووصلنا قربهم وقلنا لهم :

■ أهلا بكم، هل تعرفون البلاد؟!

● لا ، وأنتم؟!

■ ليس أكثر من ذلك .

● لقد ابتعدنا عن الطريق .

في أي بلاد نحن يا ربي؟! . . إننا على مجرى نهر ضخم جاف، وكأنه حافة بركان، ومن المحال أن نجد قطرة من الماء . وكانت المنطقة المحيطة بنا تأخذ شكلاً قاحلاً إلى أقصى درجة، فلم تكن هناك شجرة يمكنها أن تحمينا تحت أوراقها، لقد شوينا بأشعة الشمس . وقال أحدنا :

■ انتظروا لحظة فلربما سيصل إلينا الجيش .

ومرت ساعة، ولم يأت أي شيء . وجعلت الحرارة والعطش والقلق موقفنا غير محتمل . وقلت :

وأخيراً . . فمن الواجب علينا ألاّ نبقى هنا منتظرين إلى آخر الدهر . علينا أن نعود من حيث أتينا، وسيكون من السهل علينا تتبع آثار خيولنا . وإذا كان الجيش قد عسكر إلى جوار الماء الذي رأيناه على طريقنا، فسننضم إليه هناك، وإلا فإننا سنستمر في طريق العودة أكثر من ذلك . ولأن طابور الجيش كبير الاتساع نتيجة لأعداد كبيرة من الجمال الموجودة فيه، فإننا سوف نجد دائمًا بعض المتخلفين الذين سيأخذوننا إلى الطريق الصحيح .

واتبعوا رأيي . وبعد ساعتين، رأينا خيام المعسكر منصوبة في المكان الذي كانت عندي نية التوقف عنده في أول الأمر .

درجات الحرارة :

في الصباح ١٩°

عند الظهر ٣١°

عند غروب الشمس ٢٥°

واستمر هبوب الرياح الغربية طوال اليوم .

الفصل الرابع

سيل فرزان - سفراء بيشة - وادي أوراخ - الرياح - درجة الحرارة - الماء - كرا - درجة الحرارة - الفرسان غير النظاميين - الوصول إلى العقيق - قائمة المراحل - الشريف منصور - الحالة الصحية للجيش - الشريف الكبير محمد بن عون - العرقلة والتأخير - خطابات أرسلت إلى أبي عريش - شيوخ بيشة - الفرسان الترك والمغاربة - القنابل - صواريخ كنجريف - السيراتكنز - موقع العقيق - المعسكر - المسيل - السود.

الفصل الرابع

٦ يوليو

خيم الجيش في «سهل فرزان» الذي كان يُعد مكانًا مناسبًا للاستراحة، ويستطيع المرء أن يحكم بأهمية هذا الموقع بمجرد رؤية الأشجار الضخمة المحيطة به في بطون الأودية المروية بمياه الينابيع، على الرغم من ملوحة التربة. وما أن تقدمنا باتجاه الجنوب حتى بدت الجبال متباعدة، حيث تأخذ الأودية أبعادًا طولية بشكل واضح.

ومع طلوع الشمس، قدم إلى المعسكر خمسة عشر مندوبًا يمثلون سكان بيشة، فاستقبلهم قائد الحملة في خيمته وبدأ كبيرهم الحديث معلنًا للباشا عن رغبته والقبائل التي يمثلها الدخول في مفاوضات، وعدم الرغبة في الحرب.

شكرهم القائد على حسن المبادرة، إلاّ أنه سألهم عن الهدف الأساسي والحقيقي من قدومهم إلى معسكره، فأجابه المتحدث قائلاً:

● جئنا لنتأكد إذا كنا سنعتبركم أصدقاء أم أعداء.

أجاب الباشا:

■ هذا يعتمد عليكم كليًّة.

وردّ كبير وفد سكان بيشة قائلاً:

● كنا قد أقسمنا على الطاعة لمحمد علي، ولكن أمير عسير الراحل (عليّ بن مجثل) قد أخضع بيشة بقوة لم نكن قادرين على مجابهتها، لذا فإننا لا نشعر بالذنب لعدم الوفاء بقسمنا إلى محمد علي.

فكان جواب القائد:

■ إنني لأقدر لكم موقفكم هذا، وسنتجاهل أخطاء الماضي ونغفرها

إذا أعلنتم طاعتكم لسلطتي.

أجاب رئيس وفد بيشة:

● إن رجال عسير يعسكرون على بعد يومين من بيشة، ويتمركزون في مكان «استراتيجي» بوادي شهران [١]، وإذا ما أعلنا خضوعنا لسلطتكم، فإننا سنعرّض أنفسنا لمداهمة القوات العسيرية.

فقال القائد:

- إن جيشي سيحتل بلادكم في غضون أيام قليلة، وحينئذٍ لا تحملون همًّا للخوف من أسيادكم العسيريين.

أجاب رئيس الوفد:

● سنكون إذن في انتظار وصولكم.

فقال القائد:

■ ولكن يجب أن تتذكروا بأنكم ستصبحون تحت سلطتي المطلقة.

واصلت الحملة مسيرتها متخذة من الوادي طريقًا لمدة ساعتين، ثم انحرفت سالكة الطريق الجبلي.. الذي كان من أصعب الطرق التي سلكتها الحملة حتى الآن.

وصلنا أخيرًا إلى مكان يسمى «أوراخ» [٢]، ثم توقفنا بسبب الإنهاك. تعبت جمال السهول تعبًا شديدًا، أما الجمال الجبلية فكانت تعبر مضائق

(١) وادي ابن هشبل فيما بعد.

(٢) قال حمد الجاسر حين جاء على ذكر وادي أُراخ «وادي وراخ بضبم الواو بعدها راء مفتوحة فألف فخاء معجمة، ويقال فيه أُوراخ مثل أضاخ ووضاخ وأراط، والتعاقب بين الواو والألف كثير في أسماء المواضع، وهذا الوادي تنحدر فروعه من جبل عَيْسَان جبل الزهران من بادية غامد وما حوله في شرقي السراة، ويفضي إلى وادي كرا، وفي وادي وراخ بساتين تروى من آبار، وفيه مقاهي لوقوعه على الطريق بين العقيق والطائف». انظر: في سراة غامد وزهران ص٧٤.

الجبال وتتجاوز العقبات الصخرية كالغزلان. أصبحت هذه المحطة وما جاورها من المناطق مهجورة تمامًا، لأن سكانها ما إن سمعوا بقرب وصول الحملة العسكرية حتى أخلوا قراهم فارّين بأنفسهم.

قام البدو و «الجمّالة» الذين بقيت جمالهم بقطع الغصون الغضة من الأشجار، ووضعوها في النار قليلاً، ثم أطعموها لجمالهم [١].

كانت رياح هذا اليوم شمالية غربية، بينما بلغت درجة الحرارة في الصباح ١٧° وفي الظهر ٢٨° وعند الغروب ٢٥°. وتزودنا بالمياه بالطريقة إياها في سيل «درعا» وسيل «فرزان».

٧ يوليو ١٨٣٤م

اتخذ الجيش من الوادي طريقًا باتجاه الجنوب الشرقي لفترة من الوقت، حيث شاهدت أعدادًا كبيرة من طيور الحمام والحجل، ثم صعدنا وجمالنا بمشقة فائقة عددًا من الجبال، حتى بدت الطريق وكأنها مستحيلة العبور. ثم انحدرنا عبر مسالك تملأها الصخور الضخمة المتناثرة هنا وهناك. وبعد تخطي هذه الصعاب، وصلنا إلى ممر ضيق أدّي بنا إلى سهل واسع جميل مغطى بأشجار قائمة وأخرى لم يبق منها إلا جذوعها، حيث رأينا في نهايته خيمة خضراء أقامها «أمين بك» مساعد قائد الحملة لشئون المخيم.

(١) الأشجار التي أشار إليها الكاتب تسمى: «الوهط»، أما عملية وضعها في النار فتسمى.. «الشويط». وذكر لي أحد الثقات من سكان تربة أن الناس في أوقات المجاعة كانوا يهرسون هذه الغصون ويخلطونها مع اللبن ويأكلونها. أما هذا النوع من الشجر في عسير فيسمى: «الطلح، وتقطع غصونه الغضة وتوضع في النار قليًلا، وتسمى عملية الإحراق هذه بـ«الشويط»، كما هو الحال في الوديان، وتأكلها الجمال.

يقع هذا السهل على حافة مجرى ماء نظيف صاف تعيش فيه أسماك صغيرة. كانت جوانب هذا الوادي مكسوة بالعشب الأخضر، وعلى يسار الطريق المتجهة من الطائف جنوبًا، يمكن أن ترى بالعين المجردة في قمة جبل صغير مجموعة بيوت مبنية بالحجارة آيلة إلى الخراب. وتسمى هذه القرية «كرا»(*)، وكانت خالية تمامًا من السكان.

وما أن دنا غروب ذلك اليوم، حتى أُعلن عن وصول فرقة الخيّالة التركية والمغربية غير النظاميتين، اللتين كانتا معسكرتين لفترة طويلة قرب قرية «العقيق»، والمتوقع أن نصل إليها غدًا. الحرارة هذا اليوم: الصباح ١٨°، في الظهر ٣٠°، وعند الغروب ٢٦°.

٨ يوليو ١٨٣٤م

اختفت خيمة الباشا الخضراء الجميلة، وانضمت رماح الشريف إلى الخيّالة الأتراك. وعندما ارتقينا قمة الجبل، استعرضت مجموعة جديدة من الخيّالة أمام الباشا، واصطفت قوات الجنود كلها مشكلة مجموعتين، مؤدية مناورة لمعركة حقيقية، ثم تفرقت بأعداد غير منتظمة، متوزعة في أكثر من مكان.

تقدم جنود المشاة ببطء، وبعد عناء السير ومشقة الطريق، نصبوا خيامهم لأخذ قسط من الراحة لعدة أيام في محطة العقيق. وعلى مرأى من أنظارهم يمتد السهل الأخضر محاطًا بأشجار النخيل.

(*) لعل هذه القرية التي أشار إليها المؤلف كانت تقع على القرب من وادي كرا الذي قال عنه ابن بليهد في صحيح الأخبار جـ٣: ٨٩ بأنه وادٍ مجاور لوادي تربة. وقال عنه عاتق البلادي في رحلته بين مكة وحضرموت ص١٨٧: وادي كرا ذي المياه الوفيرة.

درجات الحرارة:

في الصباح	١٨°
عند الظهر	٣٣°
عند الغروب	٢٤°

٩ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في العقيق

الطريق من الطائف إلى العقيق، والمراحل التي قطع فيها الجيش هذه المسافة.. بالساعات:

المرحلة	المدة	
المرحلة الأولى	٥	ساعات
المرحلة الثانية	٧	ساعات
المرحلة الثالثة	٥	ساعات
المرحلة الرابعة	٧	ساعات
المرحلة الخامسة	٤,٥	ساعة
المرحلة السادسة	٥,٥	ساعة
المرحلة السابعة	٩,٤٥	ساعة
المرحلة الثامنة	٩,٣٠	ساعة
المرحلة التاسعة	٦	ساعات
المرحلة العاشرة	٧,٣٠	ساعة
المرحلة الحادية عشرة	٥	ساعات
	٧١	ساعة

كان لابد من أن نخيّم هنا لعدة أيام في انتظار وصول الفرقة السابعة التي تركناها في الطائف، لترافق الشريف الكبير محمد بن عون. وكان قد حُدّد مكان اللقاء في «بيشة». ولما تأكد لنا أن مراكز العدو تقع على مسافة

غير بعيدة من هذا الوادي، تقرَّر اتخاذ «العقيق» مكانًا لانتظارنا لتفادي مجابهة العدو بفرقة واحدة، هذا بالإضافة إلى أن عددًا من «الجمّالة» من سكان الحجاز الأسفل لم يرغبوا في أن يتجاوزوا هذا المكان. وعلاوة على ذلك فقد كانت الإقامة في العقيق ضرورية لعقد اتفاقيات جديدة مع القبائل البدوية المجاورة لهذا المكان.

ومن ناحية أخرى، قام شيخ وادي زهران الشريف منصور [1] بتجهيز الجيش بالغذاء، كما أن هذا الشريف سيكون على رأس ألفين من رجاله للمشاركة في الحملة.

كانت الفرقة السادسة عشرة قد قدّمت مساعدة بتذليل مشاق الطريق، ولم يتقدم للمعالجة الطبية من أفرادها أكثر من خمسة وعشرين نفرًا، ذلك أنّ الضباط الأتراك بشكل عام.. لا يقيمون اعتبارًا كثيرًا لجنودهم، فلا يُرسلونهم إلى الأطباء إلا عند مشارفة هؤلاء الجنود على الموت. ويجب الاعتراف بالحقيقة وهي أنه لو أتيح لكل جندي أن يدخل المستشفى لأي سبب، فإن الأطباء سيغرقون في متاعب الفلاحين المصريين ضعيفي العزيمة.

في «قيا»، بينما كنت جالسًا في خيمة كبير الأطباء السيد «شديفو» جاء جندي مريض صارخًا:

● الرحمة يا سيدي.

أجابه السيد «شديفو» مستفسرًا:

■ ما المشكلة يا صديقي؟!

---

(١) هو الشريف منصور بن زيد الشنبري. كان صديقًا مخلصًا لأحمد باشا، وكان الباشا يعتمد عليه كثيرًا، وكان قد تولى إمارة غامد وزهران عدة مرات ـ خلاصة الكلام ص٣٥١.

● أحس بألم شديد في ساقي، ولا قدرة لي على المشي.

■ ألم تذهب إلى رئيسك للحصول على إذن بدخول المستشفى؟!

● فعلت، ولم يُعرني أحد اهتمامه.

■ دعني أرى ساقك التي تشكو منها.

كانت ساق الجندي متورمة جدًا، وبعد أن فحصها الطبيب قال لي:

● هل ترى هذه النقطة السوداء؟

قلـت:

■ نعم.

حسنًا، تحت هذا التورم من الداخل توجد جرثومة أو دودة صغيرة.

وفي الحال، قام الطبيب باجتثاث موضع الورم، وأخرج منه دودة طولها قدم!.

وهكذا الإهمال التركي، فلو تأخر هذا الإنسان المسكين في طلب المعالجة، لاضطررنا إلى بتر ساقه، هذا إذا لم تدركه الوفاة قبل ذلك.

خلال هذه المسيرة الطويلة، لم يتناول الجنود اللحم إلاّ مرّة واحدة، بينما يتكون طعامهم العادي من البسكويت المصري الرديء وصحن من الفول أو العدس مخلوطًا بالأرز. وبحكم كونهم مسلمين، لم يكونوا يشربون إلا الماء.

عندما غادر الجيش الطائف، حصل الجمّالة على عشرين (هيكتولترًا) من الفاصولياء لـ (٦٥٠) جملاً، من ضمنها الجمال المحْضرة من القاهرة.. التي حملت المدافع عبر الجبال، والتي لولاها لأصبحت الضرورة تحتم علينا ترك عربات المدافع وصناديق الذخيرة. أوه!!، هل يصدق أحد أنه مع هذه التدابير ارتكبنا حماقة تخفيض غذاء هذه الجمال إلى الثلث؟!

كان الشريف الكبير ينظر إلى توطيد حكم محمد علي في الحجاز ببالغ

الألم!، ولهذا كان يتصرف بطريقة الراغب في إفشال مهمة هذه الحملة.

في يوم من الأيام، قرر الباشا القيام بزيارة مفاجئة للشريف في ديوانه أثناء وجودهما في الطائف، ولدى دخول الباشا الديوان، كان الشريف ممسكًا رسالة بيده، وكان منهمكًا في قراءتها بكل انتباهه، وبمجرد دخول القائد المفاجىء أخفى الشريف الرسالة تحت مخدته بسرعة فائقة.

لاحظ القائد الخطاب، ولكنه تظاهر بأنه لم ير شيئًا، ولكن بينما كان الشريف يمازح أحد البدو، مدَّ القائد يده إلى مكان الخطاب، وأخذه خفية حيث قام بقراءته فيما بعد. إنها رسالة بدون ختم.. وكانت موجهة إلى بدو عسير، وكان محتواها: «يا أصدقائي، لا تخُرْ قواكم أمام الاستعدادات التخويفية التي يُعدّونها لمداهمة بلادكم، فكلما كثر أفراد الحملة قلَّ الخوف منها، ومن الواضح أنني لا أستطيع أن أعمل أيّ شيء من أجلكم، ولكن أضمنوا مساعدتي لكم وإن لم تكن بشكل واضح».

إن رسالة مثل هذه كافية للقيام بالتحقيق لمعرفة كاتبها، ولكنَّ أحمد باشا تجاوز أمر الرسالة لكونه رجلًا متدينًا وخجولًا ولا يحب إلحاق الضرر بأحد، ولا يضمر أيَّ ضغينة ضد نسل سلالة الرسول، ﷺ.

كانت قد مضت ستة أشهر والحملة تعيش على مخزون مستودعات الجيش، وكان الجزء الأكبر الذي قُصد توزيعه على الفلاحين قد انتهى. ومضى على انتظار الجمال.. الضرورية لنقل الأمتعة.. مدة ثلاثة أشهر. وعندئذٍ حلَّ موسم الحج، حيث حاول الشريف إقناع أحمد باشا بتأجيل الحملة إلى شهر أغسطس.. أي بعد انتهاء موسم الحج، حتى يتمكن الجنود من أداء فريضة الحج، وعندها يقوى إيمانهم بأهمية هدفهم. ونحن نعرف أن المسلم الحقيقي لا يحتاج إلى تبنّي مثل هذا التكتيك.

وأخيرًا، وبعد هذه التأخيرات، وصل الجيش إلى مدينة الطائف، وبدلًا من أن يغادرها للتو، مكث تحت أسوار تلك المدينة شهرًا كاملًا مستهلكًا كل تموينات من الطعام. ولكن بعد كل هذه المماطلة، ذهب الباشا لمقابلة الشريف ليسأله عما إذا كان سيجعل له حدًّ. فكان جواب الشريف:

■ سنغادر حالما نحصل على الجمال الضرورية من البدو.

قال القائد:

● مضت ستة أشهر وأنت تبحث عن تلك الجمال، فمتى ستجدها يا ترى؟!

كان جواب الشريف:

■ نستطيع مباشرة الرحلة بما لدينا حاليًا إذا كنت ترغب.

● ولكن هذا العدد أبعد ما يكون كافيًا عن حاجتنا.

■ الأمر لا يهم، سنقوم بنقل الجيش إلى العقيق أو إلى بيشة.. فرقة بعد فرقة على الجمال الموجودة، حيث يقوم الجمّالة بنقل ما يمكن نقله، ثم يعودون إلى الطائف لنقل الباقي.

تعرف أن هذا الرأي غير مقبول لأننا قد نحتاج إلى أكثر من ستة أشهر حتى نصل إلى بيشة، وأن من الصعب الحصول على طعام في هذه البلاد. وجنودي قد لا يجدون شيئًا يأكلونه إلَّا صخور الجبال ورمل الصحراء.

قال الشريف:

● إذا كنت ترغب في أن تأخذ الجمال الموجودة وتذهب إلى بيشة بنصف الجيش فلَكَ ذلك، وسألحق بك في القريب مع الفرقة السابعة.

أجابه الباشا:

■ أنا قبلت بذلك، ولكن إذا لم تظهر في اليوم المحدد، فسنستأنف الرحلة مع الفرقة السابعة عشرة، وستكون مسئولًا عن نتيجة أي مكروه قد يُحتمل حُدوثُه.

١٠ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في العقيق

في هذا اليوم، أرسل الباشا جمّالاً أو مرسولاً إلى (أبو عريش) يأمر الشريف علي (شريف أبي عريش) باصطحاب رجاله والانضمام إلى الفرقة الثالثة، وهي جزء من الجيش المرابط في القنفذة، لمهاجمة عسير من جهة تهامة، بينما يقوم هو (أي القائد) على رأس جيشه بالهجوم على عسير من الجهة الأخرى أي من جهة الشرق، وهذه الخطة مؤهلة للنجاح وأكثر قبولاً لدى الجيش.

وصل عشرة من شيوخ بيشة غير البارزين لإعلان استسلامهم، وانتظروا لمدة ساعة أمام الصيوان لتقديم أنفسهم إلى الباشا. وتكتيك عرب بيشة من السهل فهمُه، فالشيوخ الكبار أو البارزون أقسموا على ولائهم وإخلاصهم لأمير عسير، ومن جهة أخرى قاموا بإرسال مندوبين عنهم للقائد للإعلان عن طاعتهم، وبذلك يضمنون عدم خوفهم من أي الطرفين في حالة تقرير مصير هذه الحرب لصالح طرف منهما.

كان لابد للباشا من قبول صداقتهم واستسلامهم، وإعطائهم الأمان من أي خطر، لأن الأعداء يبنون القلاع على المرتفعات من أجل حماية الممرات الصعبة وموارد المياه.

وكانت العساكر الخيّالة غير النظاميين مخيمة في العقيق عند وصولنا، وهي تتكون من أربعمائة تركي، وستمائة مغربي من المغاربة المقيمين بالقرب من القاهرة أو من سواحل البربر.

١١ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في العقيق

وعد البدو الذين قاموا بنقل المعدات العسكرية من الطائف إلى العقيق الباشا بأنهم سيقومون بنقلها إلى بيشة. وفي صباح هذا اليوم،

غادروا المخيم بحجة أخذ جمالهم إلى المراعي المجاورة للمعسكر. ولكن عند وصولهم إلى مكانٍ أصبحوا فيه في منأى عن أنظار العسكر، قاموا بالهرب مسرعين بجمالهم إلى مواطن قبائلهم، ما عدا مجموعة منهم حيث تم القبض عليهم وأحضروا تحت الحراسة. وكان الذين هربوا حوالي ثمانمائة، ومن المستحيل العثور عليهم. هذا نموذج من أخلاق البدو، ونستطيع أن نقارنهم من غير رغبة في إيذائهم بالقرطاجنيين.

ما زال سفراء بيشة في المخيم لتكتمل الصورة لديهم عن أوضاعه. وأراد الباشا أن يروّعهم أو أن يريهم مدى قوته العسكرية وحداثة تسليحه، لذا فقد أمر فرقة المدفعية بالقيام بمناورة ليلية، وأن يكون هذا على مرأى من أنظار سفراء بيشة.

عُدْتُ للتو من مكان بطارية المدفعية وهي ترسل قذائفها تجاه أحد الجبال البعيدة عن المكان. كان الغرض من هذه المناورة قد أدّى إلى تحقيق ما هو أكثر من الأهداف المرسومة حيث لا شيء يدهش العرب أو يخيفهم، إلّا أن سفراء بيشة قد أصيبوا بالاندهاش والرعب في الوقت نفسه. كانت أفواههم مفتوحة لا تلهج إلا بما يتفوّه به المسلم في مثل هذه الحالات حينما يرى مكروهًا يحيط به، وهو ترديد عبارة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

كان المسئول عن القصف المدفعي ضابطًا إنجليزيًا يدعى «أتكنز» Atkins حدث أن واحدة من القذائف ارتدّت إلى الخلف أثناء انطلاقها وانفجرت بالقرب من الضابط وأدّت إلى إحداث جرح بفخذه. تحمّل الألم بشجاعة وبلا شكوى، ولم يلحظ ذلك أحد من مساعدي الباشا.

عندما عاد المندوبون (أي سفراء بيشة)، أمر أحمد باشا أفراد الفرقة أو الفوج السادس عشر بالتزام التصرف السليم. وكانت الحملتان

المتجهتان في طريقهما إلى عسير تتكونان من ست كتائب أو أورط، وهذه القوة لم تُرعب أو تُرهب العرب كثيراً. ومن أجل زيادة استعراض القوى أمام مندوبي بيشة، أمر القائد قواته بالانقسام إلى خمس كتائب، ثم الاستعراض بشكل طابور من صفينْ، حيث ملأ الجنود حيزًا كبيرًا.

أما الفرقة السابعة والتي ستصل إلى هنا خلال أيام فإنها غير مكتملة، ولكن سنرسل واحدة من الكتائب التي كانت مخيمة في العقيق من قبل لمقابلتها، مما سيجعلها تظهر في تنظيم الفوج السادس عشر نفسه الذي أشرت إليه من قبل، وبذلك تكون قوتنا قد امتلكت عشر كتائب أوعشرة أفواج.

إن البدو أكثر مكرًا من الثعالب!!، فهل سيُخدعون من قبل الأتراك؟!، قمنا بإحصاء عدد أبناء مندوبي بيشة. كان البعض منهم صغارًا جدًا في السن، وكان أحدهم بصفة خاصة لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

تقدموا جميعًا لمقابلة القائد ورماحهم في أيديهم. وكانوا يجثون على ركبهم عند الجلوس. وعندما كانوا يتحدثون إلى الباشا، كانوا ينادونه باسمه المجرد «يا أحمد»، ومع ذلك كان يودهم. كان هو الشخص الأول الذي يضحك أو يبتسم لهذه البساطة وعدم الكلفة على العكس من الحاضرين من رفاق القائد الذين يبدو عليهم عدم الارتياح.

كان بعض المبعوثين يمشون حفاة، بينما كان البعض الآخر يحملون أحذيتهم في أيديهم - خوفًا أو احترامًا - عند المشي في صالون القائد (١).

أرى واحدًا من المبعوثين قادمًا هذه اللحظة. إنه لا يتجاوز العاشرة

(١) مازالت هذه العادة العربية متبعة في بعض مناطق الجزيرة العربية إلى الآن.

من العمر. تقدم إلى الباشا مندوبًا عن أبيه. خاطب القائد بكل هدوء وطمأنينة وفصاحة قائلًا:

● إنني ولد أحد كبار شيوخ بيشة، ونتيجة للظروف الصعبة التي نعيشها، فإن والدي لا يستطيع مغادرة القبيلة، وقد بعثني إليك راغبًا في إنشاء علاقات الصداقة معك.

أجاب الباشا:

- أنا أستغرب - وللظروف الصعبة نفسها -، نحن نستطيع أن نعمل شيئًا بدون مساعدتكم. إن قوتي لم يحن الوقت بعد لاستخدامها ولمعرفة ثقلها في تذليل الصعاب، ولكن المجال ما زال مفتوحًا لأي محادثات لذا، ماذا لديك لتقوله؟!

أخرج الشيخ الصغير من تحت حزامه في الحال رسالة غير مختومة، ورماها من غير مبالاة حيث وقعت على مقعد الباشا، كان ذلك بالطريقة التي يفعلها «الباشاوات» مع صغار الرتب من كتبتهم. قام الباشا بقراءة الرسالة ثم قال:

● يقول والدك: إنه يعترف بسلطتنا ولكنه لم يضع أي شروط.

استفسر الغلام:

■ ما هي شروطك؟!

أجاب الباشا:

● شروطي أن تقوم قبيلتك بتقديم اللحم والدقيق لإطعام جيشي أثناء مروره ببيشة، وتقديم التمر غذاء للجمال والخيل، وبهذا نكون أصدقاء.

■ أوافق على هذه الشروط، ومكانتي لا تسمح لي بالتصرف بأكثر من هذا.

كانت السماء ملبدة بالغيوم منذ طلوع الشمس. وحوالي العصر ثار إعصار حقيقي مصحوبًا ببعض الأمطار. والمعيار الحراري الذي كان ٢٧°م انخفض فجأة إلى ٢٤°م، وكالعادة في مثل هذه الأحوال الجوية، سقطت كل خيام المعسكر.

١٢ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في العقيق

موقع العقيق يتكون من سهل زراعي فيه الكثير من مزارع النخيل، ومحاط بسلسلة من الجبال تمتد من الشمال إلى الشمال الغربي، وسلسلة أخرى تمتد من الشمال والشمال الشرقي إلى الجنوب والجنوب الغربي، وبأعلى أحد جبال العقيق الصغيرة بنيت قرية العقيق المتواضعة [1].

أُقيم معسكر الجيش النظامي مقابل التلال المحيطة، واتُّخذت قمم تلك التلال مناطق عسكرية متقدمة، بينما عسكرت الخيّالة التركية بشكل دائري في أسافل سلسلة الجبال. أما المغاربة فقد نصبوا خيامهم في أسفل

(١) ورد في كتاب: «سراة غامد وزهران» لحمد الجاسر ص٧٠ عن العقيق ما نصّه: «العقيق لغة كل مسيل ماء شقّه السيل فأنهره ووسّعه. وفي جزيرة العرب أعِقَّة أي أودية عادية شقتها السيول. وقد ورد ذكر العقيق هذا في كتاب: «الاشتقاق» لابن دريد ص٤٩٣ في ترجمة ظبيان الأعرج من غامد: . . ينحدر وادي العقيق هذا من فرعين رئيسين، هما: وادي بُهْر ووادي اللحيان في شرق سراة غامد، ثم يسير الوادي صوب الشمال مارًا ببلدة العقيق، ثم يجتمع به من الغرب وادي الطويّ فإذا اجتمعا عرف الوادي باسم (كُرا). . ويسكن في وادي العقيق بادية قبيلة غامد في أعلاه آل جلّه وفي أسفله وشماله آل رفاعة. وفي العقيق بلدة تدعى بهذا الاسم، ويقارب عدد المستقرين بها من السكان حوالي (١٠٠٠) نسمة. ويكثر النخل في وادي العقيق والماء قريب من وجه الأرض. والتربة ملحية يكثر فيها السباخ، ويبعد العقيق عن بيشة بما يقارب ٨٠ كيلو مترًا.

القرية بالقرب من مجموعة أشجار نخيل. والبدو المشاركون في الحملة يخيّمون في أي مكان يرغبونه من المعسكر. والجدول الذي ينحدر من الغرب يمر فيما بين معسكر الأتراك ومعسكر المغاربة، ويستمر في طريقه مارًا بمعسكر الفرقة السادسة عشرة، ثم يستمر باتجاه الشرق في وسط الجبال. ومياه هذا الجدول نظيفة وممتازة، ولكن ندّعي أنه يُسبّب الحمى، لأنه على بعد مسافة يمر ببعض المستنقعات وأماكن غير صحيّة. ويمر هذا الجدول في أرض طينية يوجد فيها الكثير من الأعشاب والأشجار، وبصفة خاصة مجموعات الـ Jones. وكلما تقدمنا إلى الأمام اكتشفنا بلادًا غنية مكتظة بالقرى وأشجار النخيل.

تتكون قرية العقيق الكئيبة من حوالي ثلاثين منزلاً نصفها مبني بالحجارة والنصف الآخر بني بالآجر الطيني، ولها شكل مكون من ستة أقدام مربعة، وبعضها ليس له سقف، ومع هذا فإن الناس يسكنون بها.

هرب سكان البلاد بمجرد سماع نبأ وصولنا، ولا يوجد بهذه القرية إلا المرضى والعبيد من الجنسين الرجال والنساء الذين يقومون بحراسة ممتلكات أسيادهم. خرجوا لاستقبالنا في منظر مؤلم جدًا، وملابسهم عبارة عن خِرق رثّة، بينما الأطفال عراة، والكبار يرتدون ملابس جلدية. تُشبه تلك التي يلبسونها في السودان.

سألت واحدًا من السود عما إذا كان أبناء جنسه وشكله من المقيمين في العقيق جميعهم من المماليك، فكان جوابه بالنفي. ثم قال:

* إن البعض من الذين تراهم أمامك من التكارنة الأحرار، ولكن بعد الحج إلى مكة ساقنا قدرنا إلى هنا.
* سمعت أنكم تبيعون أطفالكم، هل هذا صحيح أم خرافة؟!
* إنها الحقيقة.

* هل ترغب في بيع هذا الطفل؟!

* لا، إنه أصبح يساعد في العمل، ولا أستطيع التفريط فيه، ولكن إذا كنت ترغب في شراء هذا الأصغر، فسأبيعه لك بـ «تلري»[1].

في هذا الوقت كنت محاطًا بجيش من صغار السود الذين أحدثوا دويًا، فكل منهم يقول: إذا كنت ترغب في شراء هذا فقيمته أربعة تلري، وإن كنت تريد هذا فبثلاثة تلري، ثم اشتبك الصغار في معركة. دار كل هذا السيناريو على مشهد من أمهات هؤلاء الأطفال، ويبدو أن هذا لم يُحدث لهن حتى أقل أنواع الحرج.

(١) التلري هو الريال الفرانسي (ريال ماري تريزا) الذي كان إلى وقت قريب من العملات الأكثر استعمالاً في الجزيرة العربية.

الفصل الخامس

الحصير - منسوجات الصوف - القلاع - مرسول جديد من بيشة - معلومات عن العدو - الخيول - أنثى الخيل - علامات الخيول الأصلية - تعاويذ - تحقير رجال الشريف منصور - محمد بك - وصول الشريف الكبير - المناصرين من البدو - تهديدات الباشا - وصول المجموعة الثانية من الجيش - الحبق - مائتين بدوي من نواحي الطائف - طعام الخيل - الصوفان - النباتات - درجة الحرارة في العقيق - الأمر بالرحيل - بيشة - دوسري أبونقطة - الشريف الكبير محمد بن عون.

الفصل الخامس

١٣ يوليو ١٨٣٤م - في العقيق

يتكون أثاث منازل العقيق من فراش واحد فقط يُستخدم لغرضين، الأول للجلوس عليه في النهار، والآخر فراش لكل العائلة عند المنام. وتصنع النساء بطانيّات من الصوف الخالص الملون [١].

رأينا بالقرب من القرية بناءً مربعًا يشبه القلعة قد هدمته السنون، وإلى الشمال الغربي من القرية توجد أبراج كثيرة مبنية على قمم الجبال، وذات لون رمادي، هذا النوع من الأبراج لا يستفاد منه إلاّ أثناء حروب البدو مع بعضهم، إذْ أن رصاصات قليلة كافية لهدمها.

وصل اليوم سفراء جُدد من بيشة يمثلون القبائل المتاخمة لمنطقة عسير، ويبدو أن ظهورهم هنا يعدّ إعلانًا عن انسحاب العدو. وسألهم القائد:

* ما الذي يحدث في دياركم؟!
* قبل أيام من مغادرتنا أرسل عايض [٢] مندوبين إلى ديارنا يأمر البدو بأخذ سلاحهم واللحاق بمعسكره.
* وهل أطعتم؟!
* لا، كان جوابنا له: إنك تطلب منا اللحاق بك وترك منازلنا

---

(١) اشتهر هذا [illegible] الصناعة الصوفية وادي العقيق، ووادي بيده وكان النساء إلى وقت قريب يصنعن أجود أنواع العبي، وتسمى العبي البيدية نسبة إلى وادي بيده الذي لا يبعد كثيرًا عن العقيق.

(٢) يقصد الأمير عايض بن مرعي أمير عسير.

وأطفالنا ونسائنا تحت رحمة الحُمْر[1] الذين أوشكوا على الوصول، وطلبك غير معقول. لماذا لا تنتظر أنت هنا لمواجهة العدو والاشتراك معنا في قتاله؟ . . يجب أن تفعل هذا وإلّا فانسحِبْ ولا تجبرنا على ترك قرانا وهي معرضة للغزو. ولم يكن للأمير عايض خيار أمام هذا الجواب المقنع إلّا أن تركنا لوحدنا لنواجه مصيرنا.

* هل مازال رجال عسير يرابطون في القلاع الموجودة هناك؟!

* لا، بعد أن رأى الحاكم الذي كان قد عيّنه الأمير (علي بن مجثل) تخاذل الشيوخ، قرر الانسحاب والعودة إلى بلاد عسير مصطحبًا معه الجيش والموظفين، وعند مغادرته كان قلبه مملوءًا بالحقد علينا، ونأمل من الله أن يحفظنا فلا نقع تحت قبضة حكمه مرة أخرى.

أهدى الشيوخ الذين قدموا لمقابلة الباشا خيولهم إليه، وكانت في منتهى [illegible]زال والضعف [illegible] لو عرضت من قبل إنسان أور[illegible] فيها أي ثمن.

وسألت أحد البدو:

* كيف تتجاسرون على تقديم هذه الخيول الهزيلة هدية للباشا؟!

كان جوابه:

* انتظر. عندما تُغذّى هذه الخيول بالشعير والبرسيم لعدة أشهر سترى حينئذٍ كيف تصبح.

* ولكن لماذا هي ضعيفة بهذا الشكل الآن؟!

أجاب البدوي:

* اعتاد العرب على إهمال خيولهم، ولكن اهتمامهم ينصَبُّ على العناية بالمهرة (أي أنثى الخيل)، ولها مكانة عالية عندهم.

---

(١) يقصد بـ «الحمر» . الترك.

* ولكن الإنتاج سيكون مشتركًا بين الأب والأم فيصبح من الضروري الاهتمام بالجنسين.

أجاب:

* كل سنة نجلب فحولاً ممتازة من نجد، وعندما يتم تلقيح المهار الأناث تعطي إنتاجًا ممتازًا. وعسير تمتلك أحسن الخيول العربية في يومنا هذا، لأن عليًّا[1] كان يأخذ كل فرس تتميز وتشتهر في أثناء حملاته، وعند وفاته ورث أولاده ثلاثمائة مهرة لا تقدر بثمن.

* كيف تعرفون أن الخيل من سلالة جيدة؟!

* كل الخيول النبيلة توسم بثلاث كيّاتٍ على مؤخرة وروكها بحجم نقد العشرين بارة.

* لكن من الممكن وبكل سهولة وضع هذه العلامة على أي حيوان.

* ليس مستبعدًا على الأتراك أن يفعلوا ذلك، أما البدو فلا يفعلونها.

عندما يوافق العربي على بيع مهرته (اللقحة)، فإن الفلوة[2] دائمًا تكون من نصيب المالك الأول، مع أن الطرفين لا يعرفان شيئًا عن ظروف المستقبل عند توقيع عقد البيع.

والحصان دائمًا يُدعى لأبيه أو يُسمى بأبيه، والإناث تُدعى بأمهاتها، وعند الولادة يكتب العرب على ورقة اسم الأم واسم الأب والفصيلة التابعة لها المهرة، بالإضافة إلى المميزات التي تميز المهر، ثم توضع الورقة في غلاف من جلد أو في صندوق صغير من الفضة وتعلق في رقبة المهر على شكل حجاب.

---

(١) يقصد الأمير (علي بن مجثل) أمير عسير الذي سبقت الإشارة إليه.

(٢) الفلوة، صغيرة أنثى الخيل.

بينما كنت أسجل هذه الكلمات، أعلن عن وصول الجيش الثاني بقيادة محمد بن عون الذي ترافقه شخصيات مهمة. امتطى الأشراف المقيمون بمعسكرنا خيولهم وهرعوا لاستقباله.

بعد قليل، سيمتلىء السهل بالطرابيش والقفطانات الملونة. نعم، ها قد ظهر لنا في الأفق - ومن خلال أعمدة الغبار المتصاعدة - مجموعات من العسكر في الزي الأحمر. وعرفنا أن الجيش النظامي قد قدم، فرجع الأشراف بعد نصف ساعة بخيبة أمل، حيث بدلاً من أن يكون استقبالهم للشريف محمد بن عون، كانوا في استقبال محمد بك، على رأس فرقة مكونة من ثلاثمائة من الخيّالة. وقد كانت حرارة الاستقبال والاستعداد الذي أعد لهذه المناسبة أمرًا مستغربًا. كان يتقدم فرقة الخيالة تحت قيادة محمد بك ثلاثة أعلام بيضاء محاطة أطرافها بدوائر خضراء، وفي أركان تلك الأعلام يقع الهلال (علامة العلم التركي). كان هناك خطأ، حيث كان المتوقع أن يكون القادم هو الشريف محمد بن عون، فعاد رجال المدافع الذين كانوا على أهبة الاستعداد لإطلاق مدافعهم - تحية لسلالة رسول الله - إلى خيامهم.

وفي الساعة التاسعة مساء، وصل الشريف الكبير بطريقة الراغب عن مظاهر الاستقبال الرسمية، وكانت معه مجموعة صغيرة من المرافقين. أما الجيش الثاني فقد تركه في جبل (كُرا) حيث سيقوم بزيارته هذا اليوم.

١٤ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في العقيق

عند الغروب أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة معلنة وصول الشريف بصفة رسمية، وبعدها بقليل سمعنا إطلاق عيارات بنادق الـ «مسكاتي» Mousketeny وأغاني وأهازيج معلنة وصول جيش الشريف

منصور غير النظامي من البدو، ومن ضمنهم أربعمائة وخمسون يحملون بنادق رشاشة، ومائتان منهم يحملون رماحًا تتراوح أطوالها ما بين القدمين والثلاثة الأقدام(١).

وحين سمعتُ صرخاتهم الغنائية، تسلقت إحدى الهضاب المجاورة لمكان خيمتي حيث تمكنت من رؤيتهم وهم على بعد دقائق من المخيم. كانوا يشكلون صفوفًا يتكون كل صف من عشرة أشخاص يتبع بعضهم بعضًا، بينما تظهر الجمال التي تحمل الأمتعة خلف الصفوف. كان اثنان من البدو يرتديان ملابس جوخ حمراء، ويحمل كل منهما علمًا أبيض. وكان الشيوخ من الدرجة الثانية يشكلون صفًا يحيط بشيوخ الدرجة الأولى وهم يتقدمون الصفوف على صهوات خيولهم وفي أيديهم رماح طويلة مزينة بريش النعام.

تقدم بعض البدو وهم يخترقون الصفوف إلى الأمام في رقصات استعراضية وبنادقهم مشحونة في أيديهم، حيث يقومون بإطلاقها في الهواء ثم يعودون إلى صفوفهم بطريقتهم الاستعراضية، ويخلفهم آخرون بالنظام نفسه. ومضى الجيش (جيش الشريف منصور) في تقدمه وأفراده يغنون ويرقصون في صفوف منتظمة.

كان الباشا والشريف الكبير (يعني ابن عون شريف مكة) ينتظران وصول الجيش بالقرب من المخيم، بينما قام الجيش القادم الذي ما زال على طريقته الأولى في التنظيم، بالتحلق حول خيمة الشريف والباشا ثلاث أوأربع حلقات، ثم أخذ له نظامًا دائريًا، وكان الجيش قد أخذت أصوات أفراده ترتفع بالأغاني مع الحفاظ على نظام نغمات الصوت تحية للباشا

---

(١) لعله يقصد الجنابي الذريع والسبك كما تسمى محليًا. وتسمى في تهامة بالمعيرة.

والشريف الكبير محمد بن عون: «المجد للحُمْر[1] والتقدم للعرب».

جرى تقديم الشيوخ للقائد، فتحدث الأخير إلى كبارهم ثم تساءل:

* ما لي لا أرى أمامي إلا القليل من الرجال؟!

فرد أحد كبار الشيوخ قائلاً:

* نحن ستمائة وخمسون رجلاً. إنه عدد الرجال الذين جاءوا تلبية لطلب شيخنا الشريف منصور.

المعـروف أنه عندما يعتزم البدو إعداد جيش، فإن المجلس الأعلى للقبيلة يقـرر عدد المحاربـين الذين على كل شيخ أو قرية أو قبيلة أن تقـدمهم، والشخص الـذي يُجنّـد يزود بالسلاح والطعام من قبل أفراد عشيرته أو قريته الذين لا يشاركون في الحرب، بالإضافة إلى وجوب تقديم الحماية والرعاية لعوائل المشتركين في الحرب من قبل أفراد القرية أو القبيلة، وإذا قتل البدوي في الحرب فإن إعالة زوجته وأطفاله تتحملها القبيلة، وإذا انتصر وعاد بشيء من الغنائم فيجب عليه مشاركة القبيلة فيما غنمه![*]

قال أحمد باشا لكبير جيش الشريف منصور:

* أنا أعرف أن الشريف منصور حليفنا المخلص، وقد وعدنا بإرسال ألفي رجل وسيحافظ على وعده، لذلك إذا كان البدو قد تجاهلوا هذا فإنه بسبب عصيان بعض الشيوخ. ولكن يجب أن يُوجَّه لأولئك العصاة إنذار بأنهم إذا لم ينضموا للمشاركة معنا في الحملة قبل تحركنا من هنا، فإنني

---

(١) لفظة حُمْر تعني شيئين: إما لكون الجنود (النظامية المصرية) ترتدي الزي الأحمر، خاصة الطربوش أو أنها تعني العلم التركي العثماني ذا اللون الأحمر والنجمة البيضاء.

(*) هذا التنظيم الذي أشار إليه المؤلف تنظيمًا متوارثًا في منطقة عسير، واستمر العمل به إلى عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م حين حل الجيش النظامي محل محاربي القبائل، وأصبح أبناء هذه القبائل هم الركيزة الأولى للجيش النظامي.

أقسمُ بالله أن أقطع رؤوسهم، وعليكم بإبلاغهم هذا.

في هذا اليوم، وصلت سريتان من الكتيبة السابعة مع وحدة مدفعية مصحوبة - أيضًا - بأمتعتهم وأمتعة الشريف، ومن ثم وصل بعدهم عدد من العرب من ذوي الرتب العالية، ولقلة الجمال، اضطر العقيد شريم بك إلى ترك كتيبته الثالثة في الطائف لكون أفراد هذه الفرقة أقل من أفراد الفرقة السادسة عشرة، ومع هذا تم إدخال ثلاثين منهم إلى المستشفى.

١٥ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في العقيق

ذهبتُ لزيارة عدد من مخيمات البدو في هذا الصباح، كان عدد كبير من البدو متحلقين على شكل دوائر يتناولون طعامهم. وبمجرد مشاهدتهم لي، طلبوا مني التفضل ومشاركتهم بكلمتهم التكريمية: «بسم الله».

قلت:

* أقبل دعوتكم بكل سرور، ولكن هل من الممكن أن أعرف اسم ونوعية هذه الوجبة، وهذا النوع من الطعام الذي تأكلونه؟

* إنه «حبك».

* كيف تعدونه، وتحضّرونه؟!

* عندما نلتقط النبتة، نهرسها في المهراس ثم نضيف إليها الفلفل ثم نعمل منها عجينة، وهذا هو غذاؤنا اليومي.

قمت بتـذوق الـطعـام احـترامًا لمشاعر المضيفين. ولكن بعد قليل أحسست باشتعال حريقة في فمي وطلبت منهم السماح لي بالتوقف عن الأكل.

قدم إلى المعسكر مائتا بدوي من المقيمين قرب الطائف، وتقدموا إلى خيمة القائد، حيث ردد لهم ما قاله لبدو الشريف منصور. وقرب المساء

قدمت إلى المعسكر فرقة جديدة مكونة من مائة وخمسين رجلًا، يتقدمها علم أبيض مزيّن في الوسط بعبارة مكتوبة على قطعة قماش باللون الأحمر.

أصيبت فرس أحد البدو بمرض فأطعمها زبيبًا، فسألته:

- هل تطعمون خيولكم الزبيب عندما تصاب بمرض؟!

أجاب البدوي:

* نادرًا، ولكننا نفعل هذا خاصة عندما تصاب الفرس بالتعب بعد قطعها المسافات الطويلة.

* أصحيح أنكم تطعمون خيولكم اللحم بعض الأحيان؟!

* نعم، والأغنياء من البدو يقدمون لخيولهم المفضلة الخراف المسلوقة، حيث تأكل الخيول اللحم وتشرب المرق. إنها وجبة مفضلة لديها. رأينا في نجد خيولًا تأكل لحم الجمال، ولكن نحن في بيشة اعتدنا على تقديم الحليب للخيول.

١٦ يوليو ١٨٣٤ - الإقامة في العقيق

وجدنا بالقرب من العقيق نوعًا من (الزقوم)[1] absynthe، يشبه الذي نجده في أوربا، ولونه هنا يميل إلى الأخضر الداكن، ويستخدمه العرب هنا كبهارات عند الطبخ، ويستخرجون منه عصيرًا - أيضًا - وأود أن أورد هنا بعض أسماء النباتات التي لاحظتها في الطريق ما بين الطائف والعقيق:

* ما بين الطائف وليّه :

أثل Suimaves (Velety Clover leaf) ورق البرسيم الناعم - غير حاد المذاق -.

(١) يسميه العرب «زقوم» - ملاحظة المؤلف.

* ما بين ليّه والمظللة :

Artémisia de linne -Willous Read Rattan

* ما بين قيا وسيل فرزان :-

Cherry Laurels

Climatis erecta of Linnee

وهذه نباتات وجدناها تقريبًا في كل مكان :

(أثل وعرين Coloquintes. Ethel and Arin طلح Mimosas. Acacia ميموسا).

في مظللة شاهد الفوج السابع جثة ذئب قتله البدو وقاموا بتعليقه على غصن إحدى الأشجار. وكانت درجات الحرارة في العقيق أثناء إقامتنا به :

الشهر	اليوم	السنة	الصباح	الظهر	في المساء
يوليو	٩	١٨٣٤م	١٩	٢٩	٢٤
يوليو	١٠	١٨٣٤م	١٨	٣٠	٢٣
يوليو	١١	١٨٣٤م	٢١	٢٨	٢٣
يوليو	١٢	١٨٣٤م	٢١	٣٣	٢٣
يوليو	١٣	١٨٣٤م	١٩	٣١	٢٤
يوليو	١٤	١٨٣٤م	١٩	٢٩	٢٣
يوليو	١٥	١٨٣٤م	٢٠	٢٩	٢٥
يوليو	١٦	١٨٣٤م	١٨	٣٠	٢٥

درجـة الحـرارة في العقيق أكثـر ارتفـاعها منها في الطائف، بسبب الانخفـاض النسبي في العقيق. الجـو بارد ليلاً، والـرطوبة تكاد تكون معـدومة. وعندما تتراكم السحب وتركد الرياح، تصبح الإقامة في هذا المكان غير مُرضية ونُحسُّ بما يشبه الاختناق. وعندما تصبح السماء صافية تقلُّ الحرارة بسبب الرياح التي تساعد على تلطيف الجو قليلاً. وهكذا حالة المناخ في العقيق.

وجـاء الليل، وأصبحنا نرى في دائرة مكونة من عدة أميال مخيمات العرب المختلفة والتي من السهل علينا تمييزها تمامًا عن غيرها بسبب النار التي أشعلوها توًّا.

اليوم أُعطيت الأوامر بالرحيل في صبيحة اليوم التالي. قام الشريف منصور بتعويض الجمال التي هرب بها أصحابها، بالإضافة إلى أن الفوج السابع سيعطينا جماله ـ أيضًا ـ، حيث سيمكث في العقيق منتظرًا الجمال التي أمرت القبائل المجاورة للعقيق بإحضارها.

ستكـون بيشـة هي المحطة القـادمة لتجمع الجيش. كانت بيشة خاضعة لسلطة شريف مكة، إلاّ أنه منذ بضع سنوات تمكن الأمير عليّ أمير عسير من إخضاعها وعيّن عليها واحدًا من شيوخها المرموقين كحاكم لها. والبـدو في هذا الـوادي (أي وادي بيشـة) أقل رغبة من غيرهم في الحـروب، لذا فإن القبائل الأخرى تعتقد أنهم ينتسبون إلى عنصر أقل مكانة في نسب القبائل[*].

(*) [illegible] وادي [illegible]
[illegible]، إما [illegible] أقل من غيرهم رغبة في الحروب [illegible]
على سكان يعدون أكثر من غيرهم من القبائل المجاورة تحضرًا، ولكنهم ليسوا بأقل [illegible]
غيرهم عند اللقاء، وهذه طبيعة الإنسان المتحضر المستقر العزوف عن الحروب لأن =

تقـع بيشـة على حدود الحجاز[1]، بينما سكان بيشة نفسها يطلقون عليها هذا الاسم: (بيشة)، ويعتبرونها وحدة جغرافية مستقلة خالصة لهم دون غيرهم. وهذا الإقليم الغني القادر على تزويد الجيش بتسعة آلاف رجل سيكون لمساعداته وزن كبير في مسار الحرب القادمة.

منذ فترة طويلة، ومحمد علي يعرف مدى كره العرب للأتراك، ولهذا فإنه في حالة السيطرة على عسير سيرشح لإمارتها عربيًّا كان قد تلقى تعليمه في المدارس المصرية في القاهرة، ويرى أنه محلّ ثقته. هذا العربي هو ابن (أبو نقطة). وأبو نقطة هو أحد الشيوخ المشهورين الذي لعب دورًا كبيرًا في الحروب الوهابية[2]. ابنه يدعى «دوسري» «أبو نقطة». وقرائي ما زالوا يتذكرون حديثي معه قبل مغادرتي الطائف.

هنا أورد بعض التفاصيل عن حياة دوسري.

= الحرب هي العدو الأول للاستقرار والبناء الحضاري، ومع ذلك فلم تكن بيشة سهلة المنال للطامعين من القبائل الأخرى التي اعتادت امتهان الحرب.

(1) كان أمراء عسير ينظرون إلى بيشة نظرة خاصة ومهمة فهي بوابة بلادهم الشمالية الشرقية، وهي سلة أمنهم الغذائي، لخصوبة أرضها وكثرة مياهها، حيث هي ملتقى ومصب كل مياه أودية عسير المنحدرة من سفوح جبال عسير الشرقية، كما أنها منطقة جذب مهمة ففيها تلتقي معظم قبائل منطقة عسير على اختلاف انتماءاتهم القبلية فيندمجون في وحدة سكانية واحدة تؤمن بالولاء للأرض أي بيشة أكثر من الولاء للقبيلة. ولهذه الأسباب حرصت القيادات العسيرية المختلفة والمتعاقبة على الاحتفاظ [illegible] لكل طامع فيها.

(2) انظر [illegible] آل زلفة، أثر دعوة ابن عبد الوهاب على مقاومة [illegible] منطقة عسير للحكم المصري ـ التركي، (١٨١١ ـ ١٨٤٠م) ـ رسالة ماجستير، جامعة كانساس ١٩٧٩م ـ في طريقها للنشر.

عندما تمكن باشا مصر من هزيمة «الوهابيين» في معركة «بسل»[1]، عبر وادي بيشة وتقدم إلى عسير لاحتلالها. ومن أجل ضمان ولاء سكان منطقة عسير له، قام بأخذ أولاد الأمراء والشيوخ كرهائن، وأخذ بتخويف آبائهم، بأنه في حالة أي تمرد أو عصيان ضد حكمه، فإنه سيقوم بقتل أولادهم.

لم تمض فترة قصيرة على مغادرة نائب السلطان (يعني محمد علي) للأراضي العسيرية مخلفًا بها حاميات عسكرية، حتى أصبح السكان لا يطيقون وجود هذه الحاميات المعادية على أرضهم، حيث بدأت حرب الاستقلال والتي انتهت بإخراج الأتراك نهائيًا إلى ما وراء حدود عسير. والعرب يدركون تمامًا ما قد سيحدث لأبنائهم، ولكن حب الحرية طغى على العطف الأبوي لديهم، والفرد يضحي بالعائلة من أجل مصلحة الأمة.

ولكن محمد علي لم يقتل الأطفال بل عاملهم بالعطف وربّاهم تربية تشبه تربية أبناء أحسن العائلات في القاهرة. والآن وقد قام بتجريد هذه

(١) احتلت أسرة آل (أبونقطة) مكانة مهمة في تاريخ عسير الحديث، وقد برز منهم إبان الدولة السعودية الأولى ثلاثة من كبار قادتها، الأوّل هو محمد بن عامر، توفي في بيشة، وخلفه أخوه عبدالوهاب بن عامر، وقد كان له دور بارز في ترسيخ النظام السعودي في منطقة عسير وأجزاء مختلفة من اليمن. ونشر دعوة الإصلاح فيها. وكذلك كان له دور في إخضاع الشريف غالب في الحجاز لطاعة السعوديين. مات قتيلاً في معركة خاضها ضد الشريف حمود أبو مسمار وذلك في عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م وخلفه في إمارة عسير ابن عمه الأمير طامي بن شعيب، الذي اشتهر بشجاعته وحكمته وورعه. ونضاله ضد غزوات محمد علي باشا في مراحلها الأولى التي شنها على منطقة عسير حتى وقع أسيراً في يد محمد علي باشا بنفسه في عام ١٢٣٠هـ/١٨١٥م ورحل إلى مصر ومن ثم إلى الاستانة حيث أعدم في عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م.

الحملة على عسير، فقد رأى أن ابن (أبو نقطة) قد يتمكن من استقطاب حزب كبير من العسيريين إلى جانبه، وكان دوسري قد قدم إلى العرب على أنه أميرهم في المستقبل.

قبل مغادرته القاهرة، تسلّم عشرين عبدًا والكثير من الهدايا القيمة الأخرى بالإضافة إلى أن خزينة الجيش قد عُمّدت بصرف عشرة أكياس[1] شهريًا لمصروفاته الخاصة.

عندما كنت معسكرًا في بيشة في شهر ذي الحجة سنة ١٢٤٩هـ، غادر دوسري بيشة متوجهًا إلى مكة لأداء فريضة الحج. في هذا الوقت كان هذا العربي تبدو عليه سمات الصمت، وكان حزينًا ولونه شاحبًا، وكان يعاني من ألم في إحدى رجليه، فلعل سبب هذا الصمت الظاهر عليه نتيجة لمرضه.

رأيته أكثر من مرة منذ مقابلتي له للمرة الأولى بالطائف عند قدومه إليها في العشرين من شهر يونيو سنة ١٨٣٤م. وبما أنه يحب الأوربيين كثيراً، فقد نصب خيمته بالقرب من خيمتنا، وقضينا معًا الساعات الطويلة. كان هذا البدوي مندهشًا لبساطة لغتي العربية. وسألني في أحد الأيام عما إذا كنت من «مالطا» حيث يعرف أن الناس هناك يتكلمون العربية بالطريقة التي أتكلمها.

يبلغ دوسري من العمر ٣٥ سنة، معتدل القامة، يميل إلى البدانة على غير صفة البدو، ولد في وسط جبال عسير، وتعلم في القاهرة على أيدي الأتراك، وله سمات مشتركة مع العرب والأتراك: عيناه العميقتان، لونه الأسمر، شعره الأسود، كل هذه الصفات مستمدة من أصوله العربية،

(١) الكيس أو الكيسة تساوي ٥٠٠ قرش، وربما تزيد في بعض الأحيان.

بينما بدانته، وطريقه مشيه، وعدم اكتراثه فهي صفات عثمانية بحتة. وهو يتكلم بطريقة لطيفة وبكلمات منتقاة، ولا تجد هذه الطريقة إلاّ لدى المشائخ المتعلمين في القاهرة ومكة. إنه الرجل المناسب للمحظوظين الذين يودون معرفة أحوال الجزيرة العربية، وفي الحقيقة إنني مدين له كثيراً.

يجب دوسري أن يتكلم كعربي، ولأنه تعلم في القاهرة فقد تمكن من الاتصال ببعض الأوربيين . يبدو أن تعصبه أقل عمقًا من بعض المسلمين الآخرين. سألته مرة عما إذا كان قد شدّه الحنين إلى مصر أم لا، فقال: عندما كنت في القاهرة وأخبرني الباشا بالدور الذي رغب إليّ القيام به في هذه الحملة، لم يكن وقع هذا الخبر ممتعًا إطلاقًا بالنسبة لي. كنت شابًا صغيراً عندما قدمت إلى مصر، وأصبح هذا البلد وطني الثاني، وتركته والألم يحز في قلبي.

قلت لدوسري:

* هل تفضّل البقاء (مع ضعفك البسيط) في مصر على أن تصبح أميراً لعسير؟

قال دوسري:

بالتأكيد نعم. ولكن ما إن وطئت قدماي هذه الأرض حتى منحتني مولدًا جديدًا. أحسست بمشاعر وطنية تنمو في أعماق نفسي، قابلت بعض أفراد أهلي وعددًا من أصدقاء الطفولة. إن رؤيتهم مرة أخرى منحتني الشعور بالسعادة التي تنتظرني في وطني، ولكن لن أشعر بطعم السعادة الحقيقية حتى يأتي اليوم الذي استطيع فيه أن أضم إلى صدري ولدي الذي لا أعرفه حتى الآن. كانت زوجتي حاملاً في شهورها الأولى

عندما غزا محمد علي عسير وفرق بين حبيبين. وإذا حالف النجاح بنادقنا، فسأستوطن بلاد عسير وأصبح واحدًا من أبناء بلدي معتبراً أنه أحسن بلد في العالم.

هل هذه طبيعة بدوية؟!

يتصور البدوي دائمًا أن قريته فريدة زمانها، وإن جباله أمتع مكان في الكون كله، إن هؤلاء الذين قدموا إلى الطائف قد منحوها بدون شك ميزة على غيرها في تقريرهم عنها، وأعطوها سمعة محترمة إذا ما قورنت بغيرها من مدن بلادنا، لدرجة أن سكان الطائف يتصورون القاهرة واستانبول لا تساويان شيئًا إذا قورنتا بمدينتهم.

قَدَّمتُ لقرائي صورة عن أحمد باشا،[1] ولتوّي انتهيت من الحديث عن أمير عسير. وما زلت أرى لزامًا عَليَّ أن أحدثهم عن الشخصية الثالثة في هذه الحملة، وهو الشريف محمد بن عون.

ولد هذا الشريف في مكة سنة ١٧٨٩م، من أبوين لهما مكانتهما من حيث الغنى والأصالة. قضى سنوات حياته الأولى في وسط قبيلة بدوية، حتى بلغ الثانية عشرة من عمره. إنه مدين لأحمد باشا الذي حماه حتى تمكن من الوصول إلى المركز الذي يحتله الآن. ولقد أبدى الشريف عددًا من أعمال التودد والتقرب من الأتراك[2].

(١) عرف بأحمد باشا قائد الحملة في الجزء الأول حيث قال عنه: أحمد باشا ابن بائع بهار وجبن، وهو ابن أخت محمد علي وأما جده فهو بائع تبغ في القاهرة، وهو أي أحمد باشا بادي السقام، خلق للتمتع بمفاتن الحياة والعيش مع الحريم ولا ينقصه كقائد المهارة والفطنة، ولكنه يفتقر إلى الإرادة والقوة.

(٢) هو الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون بن محسن بن عبدالله بن حسن بن عبدالله بن حسن بن أبي نمي، وكان ابن عون هذا قد ولاّه محمد علي باشا أميراً على تربة، ثم أقامه أميراً على قبائل عسير ومن يتبعهم من القبائل والقرى، ثم بعد سنتين من إمارته فيهم وقع خلاف بينه وبينهم فثاروا عليه وأخرجوه من بلادهم. وكتب إلى =

يبلغ طول ابن عون خمسة أقدام وسبعة أنشات. جميل الطلعة، أطرافه القوية ومشيته المملوءة بالفخر تنم عن قوة تركيبه. له لحية سوداء كثة عند الذقن أكثر منها عند الأطراف العلوية. له عينان سوداوان، ورؤاه تأخذ كل الأشكال الوجدانية وتبحر بشكل سريع في كل الأبعاد الفاصلة بين الفخر والوضاعة.. مخادعةٌ من السذاجة البريئة. العلامات على وجهه البيضاوي مرسومة بالحيوية، فكُّهُ الأسفل متقدم على فكّه الأعلى. وأنفه مقوس كمنقار النسر، وله جبين عريض تتجمع به عضلات تمتد من الجزء الأوسط إلى جذع الأنف بشكل هرمي باتجاه الرأس. وله أسنان جميلة تشبه العاج، وله فم متوسط وابتسامة ذكية ماكرة دائمًا مرتسمة على شفتيه، وعندما يتكلم فإن إيماءاته دائمًا تسبق حديثه وتجعل الإنسان يخمن أفكاره مقدمًا. ويغطي رأسه بكوفية جميلة مظللة بالأحمر والأصفر والأخضر وممزوجة بألوان مزركشة مموجة بالحرير. وفوق كل هذا يلبس عمامة كبيرة بيضاء مصنوعة من الكشمير الهندي. ويلبس الشريف عادة سترة طويلة حمراء وثوبًا طويلاً مخططًا باللونين الأحمر والأخضر يصل إلى القدمين، وتحته رداء من الموسلين الجميل، ويحتزم حول وسطه بشال رائع تشع منه جنبيّه مذهّبة، وحول الكتف سيف فارسي معلق على الطريقة العثمانية، يكمّل هذا الزي الرائع. ويحمل ابن عون عصا معقوفة، عادة ما يستخدمها العرب عندما يركبون الجمال، لكي يتناولوا بها الرسن أو الخطام عندما يفلت من أيديهم.

= محمد علي باشا يطلب منه تجهيز عساكر لمحاربة قبائل عسير، فأرسل محمد علي باشا عساكر كثيرة نظامية، وكان ذلك في ابتداء استحداث العساكر النظامية، فتوجه الشريف مع تلك العساكر لمحاربة عسير سنة ١٢٣٩هـ، فانهزمت تلك العساكر وقتل الشريف راجح بن عمر الشنبري فرجع الشريف محمد بن عون إلى مصر، وبقي فيها إلى مطلع سنة ١٢٤٣هـ، حيث صدر في تلك السنة فرمان بتنصيبه شريفًا لمكة لأول مرة - خلاصة الكلام ص ص٣٤١ - ٢ -. توفى الشريف ابن عون بمكة عام ١٢٧٤هـ.

الفصل السادس

مغادرة العقيق - الوصول توراق - درجة الحرارة - وصول هجان من بيشة - معلومات عن العدو - شريم بك - ابن عون - الطريق - شيوخ جدد من بيشة - بدو عسير - عبد أسود وسيدة - وادي شهران - دوسري - سيل رنيه - طريق بدون ماء - أمين بك - أسوار من بغداد إلى مكة - الثنية - الشيخ سعيد - تفاصيل حول وادي الثنية - درجة الحرارة - مزرعة نخيل - المقابر - الأبراج - النباتات - أحمد باشا - مراحل طويلة ومضنية - حوادث.

الفصل السادس

١٧ يوليو ١٨٣٤م - المغادرة من العقيق

في الصباح الباكر غادر البدو والخيّالة في مسيرة غير منتظمة قبل تحرك الجيش، أما مسيرتنا نحن فيجب أن تبدأ عند طلوع الشمس حسب التعليمات. وصدرت الأوامر إلينا لبدء مسيرتنا، ولكن توزيع أربعة آلاف جمل أمر غير يسير، حيث لم يتحرك الجيش إلا بعد نصف ساعة من بعد ظهر هذا اليوم.

عند مغادرتنا العقيق، تتبّعنا بطن الوادي لمدة عشرين دقيقة، وبعد ذلك أصبح عبور المياه المتدفقة بشدة في اتجاه الجنوب أمرًا مستحيلاً. ولكي نغادر الوادي، تسلقنا التلال الجافة متخذين من الوديان الرملية الخالية من الماء طريقًا، ثم تسلقنا عبر سفح جبل حيث تمكنا من رؤية الوادي الذي عبرناه قبل قليل. واستمر طريقنا في معبر ضيق حتى وجدنا أنفسنا فجأة في واد بين سفوح عالية، إذ يستطيع الإنسان من على القمم المحيطة بنا أن يرى - حينما ينظر إلى الجهة الجنوبية الشرقية - جدولاً صافي المياه، محاطًا بحشائش جميلة الخضرة. وقد نصب الخيّالة خيامهم على ضفته الضيقة.

وعلى مسافة غير بعيدة من المكان الذي أقف به، أطلق الأتراك خيولهم لكي ترعى الحشائش التي تنمو طبيعيًا في هذا المكان. وأطلقت حصاني ليرعى بينما شرعت في تدوين ملاحظاتي وجمع أوراقي انتظارًا لوصول أمتعتي.

درجات الحرارة:

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٩°	٢٩°	٢٩°

وتلبدت السماء بغيوم كثيفة بقية ذلك اليوم، وازدادت كثافة الغيوم بعد الظهر مما أدى إلى خلق جو خانق.

١٨ يوليو ١٨٣٤م

المحطة التي وصلنا اليها عند الغروب تدعى «توراق»، حيث قررنا الاستراحة بها وإطعام الجمال التي لم تذق الطعام منذ يومين. والوادي الذي أقمنا به وارف الظلال نتيجةً لاكتظاظ أشجاره. والمساحات المحيطة بهذا المكان كثيرة الحشائش ويوجد فيها جدول ماء جار يغذي الوادي بالإضافة إلى وجود أسماك فيه أكبر من الأسماك التي رأيتها حتى الآن منذ القيام بالرحلة. ويتجه الوادي من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي.

قبيل منتصف اليوم بدقائق قليلة، شاهدنا بدويًا قادمًا مغطى بالغبار والعرق، وراكبًا ذلولاً جميلة يبدو عليها أثر الإنهاك. سأله الباشا:

● من أين جئت؟!

■ من بيشة وما غير ذلك.

● هل هناك أي جديد؟!

■ لقد بلَّغ العَرب الذين يعملون في خدمة عسير سكان الوادي (يعني بيشة) بالاستعداد واستخدام القوة لمجابهة حملتكم، وقد استجاب أغلب البدو لهذا النداء وهم على أهبة الاستعداد انتظارًا لمجابهتكم.

● أولئك الذين قابلونا في العقيق لم يكونوا إلاَّ مجرد جواسيس!!، أليس كذلك؟!

■ البعض منهم، ولكن يوجد القليل منهم مخلصون.

أ[illegible] القائد

من هم؟!

أجاب البدوي:

■ أولئك الذين لم يأتوا إلى معسكر الحاكم العسيري.

■ هل تعرف أسماءهم؟!

● هذا الخطاب من سيدي سيجيب على سؤالك.

تناول القائد الخطاب، وبعد أن فرغ من قراءته منح البدوي جائزة، وصرف له أمين الخزنة عشرة (تلريز)، وأمر القائد أحد مساعديه بالكتابة إلى شريم بك قائد الفوج السابع طالبًا منه التحرك على وجه السرعة من العقيق. وفي المساء شُددت الحراسة عما كانت عليه من قبل، ووضعت مراكز مراقبة متقدمة في رؤوس التلال المحيطة بالمعسكر، وأخذ البوليس الحربي يجوب أنحاء المعسكر بصفة مستمرة، وبالرغم من تقديم مظاهر الولاء والصداقة من قبل سكان بيشة، فإن الشريف الكبير على علم بمجريات الأمور في الوادي، وقد عمل الكثير من أجل توزيع مسار الجيش إلى قسمين، كل قسم منفصل عن الآخر من أجل إضعاف قوة الحملة.

لا أعرف كيف سيتمكن «شريم بك» من تنفيذ أوامر القائد، حيث قد تمكن ابن عون من ترك الفوج السابع دون جمال، بالإضافة إلى أن الشريف قد وعده بمساعدة القبائل بتزويد الحملة بالجمال، ولكنه لم يف إلا بستة أعشار ما كان قد وعد به من قبل. كان الجيش يتوقع مساعدة ابن عون، ولكنه بدلاً من ذلك أصبح لا ينظر إليه إلا كعدو وجاسوس.

في الوقت الذي كنت فيه مشغولاً بكتابة ملاحظاتي، سمعت أصواتًا عالية خارج خيمتي، وإذا بأرنب ضعيفة وقعت أسيرة بأيدي مجموعة من ال[illegible] وذات شكل جميل وتختلف عن تلك التي شاهدها في أوربا.

الوادي الجاري الذي يقع على جانبه مخيمنا هو الوادي نفسه الذي يمر بالعقيق ويدعى «سيل العقيق».

عند الظهر، طوينا خيامنا وتحرك الجيش تتقدمه فرقة الخيّالة يتبعها جيش البادية ثم فرقة المشاة النظامية ثم المدفعية، وعبرنا الوادي المتكونة أرضيته من الصخور والرمل الناعم.

وهنا أسماء بعض الأشجار التي تمكنت من رؤيتها أثناء الطريق:

* أشجار الصنوبر Pine Cypres
* اسكليبيوس Asclepius ، لها أوراق كبيرة وفاكهة في حجم البرتقال.
* الداتورة Stramonium
* النعناع Mint أو حبق له رائحة قوية.

كلما تقدمت إلى الأمام ظهرت بالقرب مني الجبال التي تكوّن منابع الوادي. وعندما وجدنا أنه من الصعب اختراقها تجنبناها واتجهنا جنوبًا. الطبيعة أمامنا قاتمة ومحزنة بل وحتى مخيفة. الجبال تتكون من قطعة واحدة من الصخور وبها نباتات تتكون من أشجار شوكية غير مكتظة، ترسم جوانبها الخالية من اللحاء ظلاً قاتمًا على الدرب الأحمر في أرض خالية تذكر الإنسان بأبشع المناظر التي وردت في كتاب جودي (١) Judee .

بدت الشمس تغطيها السحب المتقطعة التي تشبه القطن حيث تحجب الشمس من وقت لآخر دونها إحداث زغللة لأنظارنا. وادعو الله أن يبقي الجو بهذه الطريقة طوال مسيرتنا.

يمضي الخيّالة أمامنا يطوون الأرض القفر على صهوات خيولهم،

---

(١) قصة من كتاب: «العهد القديم» تصف بعض المناطق التي تشبه هذا الوصف.

ويواصل جنود الجيش النظامي مسيرتهم بانتظام مرتدين زيهم الرسمي، والبدو الذين لم يبد عليهم أي مظهر من مظاهر التعب، يغنون ويحثون سيرهم، بينما المحامل وضعت بأثقالها على ظهور البغال الجميلة بمظهرها الأسباني البديع. ويتبع الكتبة على ظهور حميرهم المتواضعة، ثم تبدو في الأخير قافلة الجمال المقطورة تمشي على نغم متناسق، يصدر من الأجراس المعلقة في أعناقها والمترابطة بشكل متصل بقائد القافلة.

وصل أشخاص في هذه اللحظة يمتطون جمالاً محلّية من الجهة المعاكسة للمسيرة، ولما اقتربوا من مقدمة الجيش ترجّلوا من على جمالهم وذهبوا لمقابلة القائد حيث سلموا عليه، وأعلنوا له طاعتهم، وتقديم خدماتهم. وقد اكتشفنا فيما بعد أنهم من شيوخ بيشة، وقد ادعى البعض أن البدو هربوا إلى الصحراء مختفين خوفًا من غضب الباشا.

في هذا الفصل حدث أن الوادي الذي اتخذناه طريقا لنا لا تجري فيه المياه بصفة مستمرة إنما نجدها بشكل متقطع. ويعرف هذا الوادي عند البدو باسم «سيل رنيه»، وهو من الوديان المشهورة في الحجاز(*).

درجات الحرارة:

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
٢١°	٣٢°	٢٤°

(*) وادي رنية، وادي فحل من الأودية الشرقية، وكثيراً ما يطلق عليه وادي سبيع، وذلك أن كثيرًا من بطون قبيلة سبيع تقيم في هذا الوادي وعلى جنباته، يسيل وادي رنية من سراة غامد على قرابة مائتين وثلاثين كيلو مترًا جنوب الطائف ثم ينحدر شمالاً شرقيًا، وأعلاه لغامد، ثم يسمى الأملح لآل عمير من سبيع، ثم يسمى رنية مرة ثانية، وفيه الروضة بلدة هي قاعدة إمارة سبيع في هذه الناحية. غيث البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ص١٧١، ١٧٢.

١٩ يوليو ١٨٣٤م

بعدما قام بدو بيشة بتعريف أنفسهم للباشا خاطبوه قائلين:

● أحمد، جئنا لطلب مكرمتك وحمايتك في الوقت نفسه.

أجابهم الباشا:

■ أهنت بمخادعتكم و «لفّكم ودورانكم»، وسيكون لهذه التصرفات حد.

● لم يكن تصرفنا ـ لسوء الحظ ـ نابعًا من إرادتنا المطلقة، نحن كالأغنام المحاطة بالأسود والنمور.

■ من هم النمور؟!

أجاب شيوخ بيشة:

● العسيريون

قال الباشا:

■ ونحن الأسود إذن؟!

● نعم، وبدون شك، كنا نتمنى أن تكونوا كرماء مثلها.

سأل الباشا:

■ أين الأغنام؟!

قال شيوخ بيشة:

● إذا أردت أن تكون واقعيًا فيمكن اعتبارهم ثعالب إذا لم يكونوا ذئابًا.

■ فسواء كنا أغنامًا أو ثعالبَ أو ذئابًا، لا فرق في ذلك لدى الأسود والنمور.

قال شيوخ بيشة:

● لقد بعث العسيريون إلى بلادنا بأربعمائة خيّال وستمائة من المشاة ومعهم أمر بجمع الضريبة السنوية.

قال القائد:

■ ماذا؟! واديكم قادر على تجهيز تسعة آلاف رجل مسلح وتصبحون تحت رحمة ألف بدوي من الأعداء؟! إذا أنتم قدمتم أقل أنواع المساعدة لهذا الجيش الصغير (يعني القوة العسيرية) فستعتبرون متمردين، وسأقوم باقتلاع أشجار نخيلكم، وإحراق قراكم، وسأضع رقابكم تحت حد سيفي.

أجاب شيوخ بيشة:

منذ بضع سنوات ونحن ندفع الجزية لعسير، وإذا امتنعنا فإن ذلك يعني تعريض أنفسنا لرعب الغزو العسيري. لقد بلّغنا سادتنا ـ يعني العسيريين ـ بأن الجيش المصري الذي تخافون منه ما هو إلا مجرد حثالة فلاحين و «تكارنة» ولن يقدر على مهاجمتكم. «أصغت عدد من القبائل لهذه المقولات وأصبحت مستعدة للحرب، ولكن بعد عودة المبعوثين الذين عادوا من العقيق وسمعوا عن عدد المشاة والخيالة والمدافع والقنابل والصواريخ الشيطانية التي يمتلكها جيشكم غيروا قرارهم» وبذلك انخفضت جذوة حماسهم، وأصبحوا قادرين على أن يقولوا للعسيريين: إن أحمد باشا يهدد بإحراق قرانا والقضاء علينا إذا نحن قبلنا الدخول تحت سيادتكم، وأنكم من هنا تستطيعون سماع المدافع في العقيق، ولهذا لن نستطيع أن ندفع لكم الضريبة، وإذا كان الجيش المصري ضعيفًا كما تقولون، فاصمدوا أمامه، وإذا حققتم النصر، فحينئذ سندفع لكم ماهو مقرر علينا سنويًا. وبهذا لم يتمكن البدو العسيريون من الحصول على شيء. وبناء عليه فإنهم يتأهبون للعودة إلى الأمير عايض في اللحظات التي غادرنا فيها بيشة قادمين إليكم، ونأمل أنهم الآن في الواحات بعيدًا عن بيشة.

في هذه اللحظة، قدِمَ عبد أسود وقدَّم نفسه للقائد قائلاً:

● إنني مبعوث من سيدي أحد كبار شيوخ بيشة.

سأل القائد:

■ لماذا لم يأت الشيخ بنفسه؟!

● إنه خائف على حريته، لذا فقد بعثني إليك ليعرف موقفك منه، فإن كان في صالحه فإنه سيأتي بشخصه ليشكرك، وإن كان غير ذلك فإنه سيهرب.

قال القائد:

■ اذهب وأخبره بأنني عفوت عنه، وإنني قبلت استسلامه.

تسلق العبد الأسود التلّة المجاورة ثم نادى بأعلى صوته. وبعدها بقليل انحدر من التلة عائدًا إلى المخيم، ولكنه لم يكن بمفرده، بل كان الشيخ ماشيًا أمامه.

ونتيجة للمحادثات التي تمت فيها بعد، تعهد رئيس بيشة بالدفع لخزينة الجيش ما كان يدفعه من قبل لأمير عسير، بالإضافة إلى أنه سيزود الجيش بما يقدر عليه من خيل وجمال.

وقدم القائد للشيخ هدية عبارة عن غطاء للرأس من صناعة الهند (غترة)، وعباءة حمراء مخططة. وبعد ذلك عاد الشيخ إلى بلاده فرحًا على عكس ما كانت عليه حالته عند قدومه.

يتميز وادي شهران بخصوبته وجماله، يقع بين بيشة وعسير وكثيرًا ما يفلت وادي شهران[1] من سيطرة والي مصر.

---

(١) وادي شهران هنا هو وادي ابن هشبل حاليًا نسبة إلى ابن هشبل شيخ قبائل هذه المنطقة من بلاد شهران.

في هذا اليوم اندهشنا لرؤية الشيخ ناصر بن هيف الفويه[1]، شيخ وادي شهران وهو قادم إلى المعسكر معلنا للباشا بأن والده قد تخلى عن حزب العسيريين وأنه بعثه ليعلن استسلامه.

استُقبل الفتى باحترام كبير من قبل الباشا وحصل على كل مطالبه، وغادر خيمة القائد حافي القدمين يرتدي غترة وعباءة مخططة أهداهما إليه الباشا.

جاء دوسري لزيارتنا، فطلبت منه أن يخبرني عما إذا كان هناك أخبار جديدة. فكان جوابه:

* في هذا المساء سيغادر أحمد باشا المعسكر بصفة سريّة ليباغت معسكر العدو على بعد أميال من هنا.

* من هم العسكر الذين سيصطحبهم؟!

* الترك وخيالة المغاربة والشريف منصور ورجالهُ من العرب، وقطعة مدفعية.

* ألا تعتقد بأن العدو سيسمع عن هذا القرار؟!

* البدو شكاكون جدًا وحذرون بشدة، ولا يقدّرون أي حساب للعدو إلاّ إذا رأوه بأعينهم. وأولئك الذين على بعد ساعات من هُنا يشكّون بالتأكيد في تحركه (أي تحرك القائد بالهجوم).

* ولكن الشيوخ أكثر توقعًا، وكما نعرف أنهم أرسلوا بعض رجالهم إلى الطائف.

* عند بداية الحملة - حيث أصبحوا في حيطة للعاصفة التي تهددهم.

---

(١) الفوية.. شيخ قبائل بني واهب من شهران.

رد عليه دوسري بالتالي:

ـ نعم سيقتنعون في هذه الحالة بعدما رأوه بأعينهم من تمكُّن الفرقة الثالثة أو الفوج الثالث من فتح مدينة (أبو عريش) والاستيلاء عليها، ولكن مهما تكن الظروف فإنني أعتقد أن محاولة الباشا ستكون عديمة الجدوى، لأن استراتيجية العسيريين هي الاستمرار في التراجع حتى تنفذ مؤونة جيشنا.

يعتقد رجال عسير بأنه يرافق الحملة الكثير من المسيحيين، لأنهم لا يفرقون بين الجيش المنظم بالطريقة الأوربية والأوربيين أنفسهم. إنهم يعتبرونهم جميعًا غير مؤمنين ومغررًا بهم.

نصبنا مخيمنا في وادي رنية، ثم واصلنا مسيرتنا مع طلوع الشمس وفي اتجاه طلوعها، حيث كان جدول المياه جاريًا ينبع من الشمال تحيط به ضفاف الوادي الرملية. وتسقي الأقسام الجنوبية بمياه صافية وتكثر فيها الأشجار الخضراء، إلَّا أن هذه المنطقة لا يوجد فيها أثر للسكنى. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر غادر الجيش سيل رنية يقوده أمين بك نائبًا عن الباشا أثناء غيابه. وسرنا على ضفة الوادي خمسًا وعشرين دقيقة ثم انحرفنا باتجاه اليمين. من هنا تقلصت جبال الجنوب إلى تُربة جافة.

انحرف بنا الطريق المتجه شمالاً إلى الطريق المقصود وهو الشمال الشرقي، وتأخذ الطرق في التعرج عبر سلسلة من المرتفعات تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. ثم دلفنا في وادٍ حيث تبين لنا للوهلة الأولى أنه مغطى بالصخور. حيث تأتي بعدها الرمال الخفيفة التي تذروها الرياح.

ثم وصلنا إلى هضبة اتخذ منها الجيش مكانًا للاستراحة لمدة أربع ساعات وبعدها أصبح الطريق سهلاً مع انعدام المياه حيث لم نجد أثرًا لقطرة ماء.

عانى الجنود الكثير بسبب قصر النظر لدى الضباط الأتراك، لم يكن يوجد سوى أربعة جمال تحمل الماء لكل قطاعات الحملة. وقد قام الممرضون الذين كانوا يحافظون على ماء المستشفى بشربه، بينما كاد المرضى يهلكون من العطش.

درجات الحرارة:

عند طلوع الشمس	الظهر	عند الغروب
٢١°	٣٢°	٢٤°

٢٠ يوليو ١٨٣٤ م

قُرعت الطبول ـ قرب منتصف الليل ـ بصوت إيقاعي معلنة الرحيل. كان في السماء غيوم كثيفة، ونزلت دفعات من رشاش المطر التي أدخلت السرور إلى نفوسنا.

كان الطريق حسنًا وعاديًّا، ولكنا كنا من وقت إلى آخر نسير عبر ممرات ضيقة تسبب تخفيف سرعة وسائل نقل أمتعتنا. وقفت في ظل إحدى المظلات التي أقامها العرب على جوانب الطريق لتحميهم من حرارة الشمس، وتناولت إفطاري المتواضع المكون من تمرات قليلة وكوب من الماء «العزيز»، وعندما فرغت من تناول طعامي وصلت وسائط نقل الأمتعة فامتطيت حصاني مواصلاً سيري. من هنا رأيت على الهضبة بصمات آثار قديمة لحائطين متوازيين، وكانا مغطيين تقريبًا بالتراب. لاحظ أمين بك ـ أغبى رجل في رجالات الجيش ـ رغبتي في معرفة سر ذلك البناء، فسألني عما إذا كنت أعرف تاريخ هذين الحائطين، فكان جوابي له:

* حاولت الحصول على معلومات من أحد البدو، ولكنه لم يعطني جوابًا مقنعًا. قال لي إنها الحائطان اللذان بناهما المسلمون على طول

الطريق من بغداد إلى مكة، حيث بهما لا يحتاج الفقراء إلى دليل، كما أن القوافل تأمن مخاطر الضياع، والرجل الأعمى يستطيع أن يقوم بالرحلة دون خوف، علاوة على أهميتها الدينية والاقتصادية ـ أيضًا ـ.

أما صحة أو خطأ هذه المعلومات فأترك أمين بك يتحملها وحده.

بينما كنا نتحدث جذب انتباهنا واد مغطى بأشجار النخيل، وتبين لنا من خلال أوراق الأشجار الخضراء برج بُني ليحمي القرية التي تقع في الجانب الآخر من التل. هذا الوادي يدعى «ثنيه»(*) أو «تسنيه» حسب النطق المحلي، ويتزعم هذا الوادي شيخ يدعى «سرط» أو «سرد» أو سعيد.

إن العسيريين يعسكرون في حدودهم ويحاولون كسبهم إلى جانبهم، ولهذا السبب عجل القائد بمداهمة «ثنية» لمباغتة العسيريين، إلا أنهم أخلوا المكان قبل وصول الجيش بأربع ساعات، وأخذوا معهم ستين جملاً جبراً من سكان المنطقة. وبمجرد أن رأى الشيخ سعيد أو سرد طلائع جيش الباشا، أسرع إلى جمع مائة فارس وأربعمائة راجل بطريقة عشوائية ومضى في أثر العسيريين.

يبلغ طول وادي رنية حوالي ثلاثة أميال(؟)، ويتراوح عرضه ما بين الميل والثلاثة الأميال، وكل هذه المساحة مغطاة بغابة حقيقية من أشجار التمر، ولهذا جَعَلَتْ مالِكتَها المرأة البربرية [1]، تعيش فيها برغد.

(*) الثنية بلدة معروفة تقع على وادي تبالة، ويسمى وادي تبالة عند مصبه في وادي بيشة بالثنية، وتقع الثنية إلى الشمال الغربي من بيشة، وتبعد عنها بحوالي ٤٥ كيلو مترًا.

[illegible] في بلاد عسير ص٧٥

(١) [illegible] «المرأة البربرية أو الحبشية» الأميرة [illegible]

يقوم سكان هذا الوادي من البدو بتربية الماشية والجمال والخيول التي لا تقدَّر بثمن، ويتمتع أهالي هذا الوادي بمكانة محترمة بين القبائل الأخرى، ويقدر عدد سكانه بـ «٢٥٠٠» نسمة.

وبين العرب الذين رأيناهم عدد من الزنوج يحملون اسم «تكارنة»، وتوجد إشاعات عن أن النساء البدويات لا يمانعن من الزواج من بعض «التكارنة»!.

يقوم عرب رنية ببيع منتوجاتهم على قوافل الحجاج التي تأتي من بغداد(*) والتي تتوقف في قريتهم كل سنة. في تلك الفترة يقوم العرب بتحميل جمالهم بكل شيء يزيد على حاجتهم وينقلونه إلى رنية انتظارًا لقافلة الحج، بينما يقوم الملاك الكبار من أهل رنية بمرافقة القافلة حتى تصل إلى مكة، وهناك يبيعون كل ما لديهم. أما تمور رنية فتُصدَّر إلى جدة، وعندما يكون الموسم على غير ما يجب، يكتفي البدو بنقله مباشرة إلى القنفذة بينما يبيعون بعضه على القبائل الضاربة في الطريق بين رنية والقنفذة، أما بعضهم فيكتفي بانتظار قافلة الحج كل سنة حيث يبيع منتوجاته مقايضة بما يحتاجه من تجار القافلة.

تثير حياة هذه القبيلة المزدهرة حسد البدو المجاورين الذين لا يملكون أرضًا غنية كتلك التي يملكها سكان رنية. فعندما يحين وقت نضج التمور في رنية يغير عليها بدو الشريف منصور الذين اشتهروا بكونهم أخطر السارقين في الحجاز. فهم يغيرون بسرعة من وادي زهران وينتهي بهم المطاف لسوء الحظ في هذا الوادي الكبير. ويصطحب

= الشجاعة والفروسية أمام جيوش محمد علي ما جعل الأتراك ومرافقيهم الأجانب يشيدون [illegible] بالسمر والشموخ [illegible] أعدائها.

اللصوص معهم خيولاً وجمالاً لينقلوا عليها غنائم سرقاتهم إذا وفقوا بالنجاح، ولكن إذا وجدوا مكان ضحايا سرقاتهم محميًا وأجبروا على الهرب، عادوا يجرّون أذيال الخيبة والعار.

ولتجنب غارات البدو على النخيل عند اقتراب موسم الحصاد، يعقد المزارعون اتفاقيات مع البدو من القبائل المجاورة يتم بموجبها حماية محصول النخيل. ويقوم المتفق معه على حماية المحصول - وبموجب العرف - بتنفيذ الاتفاقية بالكامل وبشرف. وقد اعتاد الملاك على تأجير قبائل العقيق لهذا العمل.

ويتكون وادي رنية من عدة قرى صغيرة ذات منازل متناثرة هنا وهناك، ولكن أكبر مجمع سكني في الوادي هو قرية رنية نفسها حيث إنها محاطة بسور مبني من اللبن، وله أربعة أبراج تستخدم لحماية القرية ضد أي معتد. ولا يوجد لتلك الأبراج أي أبواب، ولها من الداخل شكل اسطواني به سلالم للصعود والنزول. أما كيف يتم الدخول إلى البرج، فإن له حبلاً مُدلّى من الخارج، ويستخدمه المدافعون وسيلة للصعود إلى البرج.

وفي وقت السلم يترك الحبل مُدلّى من الخارج على ارتفاع قامة الرجل. أما في وقت الحرب فإن الحبل يُدلّى إلى الداخل ويستخدم في تزويد المدافعين بالمؤن.

عندما دخلتُ القرية لم أر فيها إلا النساء والأطفال، بينما لحق القادرون من الرجال بالشيخ سعيد. ويبدو أن كبار السن يسكنون قسمًا خاصًا في القرية. وقد تمكنت من رؤية عدة نساء طاعنات في السن جالسات في الشمس أمام أبواب منازلهن مسترخيات على فرش مصنوعة من جلود الأغنام. والبيوت مبنية من اللبن ومسقوفة بأخشاب من جذوع النخل. وتستخدم مفاتيح مصنوعة من الحديد لفتح الأبواب الخارجية

للمنازل كما شاهدنا في العقيق.

والزنوج هنا - أيضًا - يبيعون أطفالهم. وقد عُرض عليَّ طفل عمره ست سنوات للبيع بمبلغ قدره «ستة تلريز».

وتضع النساء في أنوفهن حلية تشبه النجمة [١]، وأخرى مثبتة في الشعر ومدلاة على الجبهة [٢]، ومثلها ملصقة بالأذن [٣].

تبدو ملامح عرب رنية أكثر نقاء من ملامح عرب القبائل البدوية الأخرى التي شاهدتها منذ مغادرتي لمدينة جدة. النساء جميلات ذوات بياض كبياض الأوربيات، ويبدو أن الرجال هنا يحكمون السيطرة عليهن تمامًا، لأننا في كل مرة نرغب في تبادل البضائع معهن، بعد الحصول على أسعار أفضل، لا يقدرن على اتخاذ القرار بأنفسهن إذ لابد من موافقة أزواجهن على السعر المناسب.

قامت عدة نساء بزيارة أطباء الجيش وطلبن منهم استشارات طبية بدافع حبّ الاستطلاع، وتفحّصن ساعاتنا وسلاحنا وسألن عن أحوال زوجاتنا.

وعلى العموم، فقد تحدثن إلينا بطلاقة، ويبدو أنهن راغبات في الحديث إلينا. وملابسهن متناسبة ومميزة، وتدل على حسن أذواقهنّ. والاعتقاد السائد في الحجاز أنهنّ نساء مجدات في أعمالهنّ. ويسرّحن شعورهن بطريقة أنيقة مع ترك ضفيرة متدلية على الجبين.

وعندما تندلع الحرب بين القبائل فإن النساء أول المبادرات في نخوة أزواجهن بالاشتباك في الحرب. وإذا سمعت المرأة جلبة حرب أو عراك

(١) يسمى في المنطقة الجنوبية «الزميّم».
(٢) يسمى الخاتم، وهو عادة مصنوع من الفضة. ويسمى في الثنية بالمرسن
(٣) يسمى الخرص وجمعه خرصان.

خارج المنزل فإنها تقول لزوجها صارخة: (الرجال.. قم)! وإذا لم يستجب زوجها لطلبها أخذت البندقية وغادرت منزل زوجها وسلاحها في يدها صارخة حتى تصل إلى بيت والدها ثم تطلق صرخة احتجاج على والدها قائلة له: «حتى الآن اعتقدت أنك زوجتني لرجل، ولكن وجدت أنه ليس بأفضل من المرأة! وأنا رجعت إليك لتختار لي زوجًا أفضل».

ويقوم بدو رنية بزراعة الخضروات في بساتين مجاورة للقرية والمحصول الزراعي بشكل عام يتكون من القمح والذرة والبطيخ، وفي الغالب تسقط أمطار كافية لري المزروعات، ولكنهم في أوقات الجفاف يقومون بسقي مزارعهم معتمدين على السواقي مثلما يفعل أهل الطائف. ويميل الجو إلى الحرارة والأيام التي قضيناها هنا تثبت صحة تنبؤات البدو فيما يختص بالجو.

درجات الحرارة:

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
٢٥°	٣٥°	٢٨°

ويشوب سكان رنية خوف عظيم من «الحُمْر». وجدت ما يؤكّد بعض تلك المخاوف حينما حاول أحد الجنود تسلّق إحدى أشجار النخيل. ولكن العقيد بنفسه يمنع الجندي من ذلك. أما صاحب النخل الذي كان واقفًا فلم يستطع أن يعمل شيئًا للفلاح (لعله يعني أحد الجنود الفلاحين المصريين). ولكن بعد أن لاحظ أن العقيد مصطفى قام بمنع الجندي قال للعقيد: (اعط أوامر لجنودك بعدم التعدي على نخلي مرة أخرى). فابتسم له العقيد ابتسامة استهزاء، ثم أدار له ظهره.

٢١ يوليــــو ١٨٣٤م

يلاحظ أن الطريق الذي اخترناه لمسيرتنا طويل وصعب. ولكي نتمتع بجو الليل اللطيف المنعش، فقد غادرنا القرية في منتصف الليل. تركنا قرية رنية على اليمين، ومشينا لمدة ساعتين تحت ظلال غابة النخيل، وشاهدنا على اليسار عدة مقابر صغيرة. أما القبور فلم تكن إلا عبارة عن أكوام من الطين الرملي، موضوع عليها قليل من جذوع النخل. وشاهدنا بين الطريق والوادي أبراج مراقبة صغيرة بنيت للمحافظة على الوادي من هجمات اللصوص. وسار بنا الطريق المتعرّج في أرض قاحلة يتخللها من وقت إلى آخر مجموعة أشجار ونباتات، منها أشجار السرو البريّة الخالية من الماء تمامًا.

في الجانب الآخر المعاكس للوادي، شاهدنا عن بعد تلالاً صغيرة محاطة بمزارع جميلة. وبعد القيام بانحراف ضروري لمسارنا خلال غابة صغيرة، اكتشفنا أرضًا منبسطة مكشوفة مملوءة بأشجار السرو البرّي».

تنمو نباتات الاسكليبيس في هذا المكان بأعداد كبيرة، وقد أصبح بعضها جافًا، ونبتت حول جذورها بعض الشجيرات، ولاحظت - أيضًا - أشجار زهرة «الحنطية» وزهرات الفلّ الصغيرة.

بعد مسيرنا خلال مرتفعات مفروشة بالصخور السوداء، وسهل صغير تناثرت فيه الصخور[1]، شاهدنا أمامنا موقعًا جميلاً محاطًا بأشجار النخيل. ولسوء الحظ.. فإن ذلك المنظر الجميل اختفى عن الأنظار نتيجة للطريق المتعرج الذي كنا نسلكه، بالإضافة إلى عدم استواء سطح الأرض.

---

(١) (لعله يعني الحرّات).

وأخيراً، بدا لنا وادي بيشة بكل عظمته وجماله فوق بحر من الرمال، حيث يتعارض هدوؤه وجَاذبيّتُهُ مع مزارعه الجميلة التي تقف خضراء من وراء الأفق.

تقدم الجيش قائده أحمد باشا يتبعه ثلّة من رجاله، وترجّل من على حصانه وسار ماشيًا يساعد الجيش الذي أنهكه المسير المخيف.

توفي أحد الجنود نتيجة للإنهاك والعطش وعدم السماح له من قبل قائده بامتطاء أحد الجمال التي كانت تحمل الأمتعة. كما عثرنا على اثني عشر «فلاحًا» صرعى على الرمل يموتون من العطش، وكان من الممكن أن يموتوا لولا مساعدة الأطباء الأوربيين. أما المستشفى الذي تركناه وراءنا تحت حراسة سبعة من الرجال، فقد داهمه اللصوص. ووقع أحد المرضى من على جمله وتهشم رأسه عند ارتطامه بصخرة، واختفى آخر مع حصانه في الصحراء. وهاجم البدو أحد الجنود السود وسرقوا ملابسه وسلاحه بعد أن قاموا بضربه على رأسه، وفي الوقت نفسه كان جماعة من أتباع الشريف منصور الذين يرافقوننا في رحلتنا إلى بيشة، لهم عداوة قديمة مع سكان بيشة أدت إلى قتل أربعة أشخاص من أهل بيشة. لذا فقد تقدم أهل بيشة إلى أحمد باشا مطالبين بثأرهم من القتلة.

وكانت درجات الحرارة في هذا اليوم كما يلي:

عند طلوع الشمس	٢٠°
عند الظهر	٣٤°
عند الغروب	٢٩°

الفصل السابع

تفاصيل حول رحلة الباشا الاستطلاعية - وادي بيشة - سعة وادي بيشة - المروة - القرية المجاورة للمعسكر - شيوخ بيشة - سكانها - أسماء القرى الرئيسة - نمران - المدرسة - المسجد - السوق - مبعوث من عسير - عروض وصول الشريف الكبير - أخبار من عسير - وصول الجزء الثاني من الجيش - مختار أغا - مبعوثين من عسير - مبعوثين من رجال ألمع - بعض التفاصيل عن هذه القبيلة - عروض مقدمة من «مفرح» - التموين والجمال الواصلة إلى المعسكر - بدو يحرسون مزارع النخيل - أهازيج بدو الثنية - إقالة علي الصعيري - تاريخ علي الصعيري - صورة وصفية لعلي الصعيري - شبابه - حرب محمد علي - بيشة تخضع - ثورة حسن باشا - القلعة - هزيمة البدو - علي الصعيري وقلعته - الحصار - المدافع - القنابل - الاستراتيجية - الألغام - قطع مزارع النخيل - الاستسلام - الاستيلاء على عسير - الثورة - علي وسعيد - أحمد باشا - فشله - سليم بك أبوخازوق - الختم - السجن - الإدانة - التعذيب - الطلاق - السراح - كرب جديد - ابن دهمان - الأحداث الأخيرة - ابن علي الصعيري - زيارة لقلعة بيشة - وصف - شغف البدو للريالات «الفرنسية» - تغيير العملة - البقر أبو سنام - أصل السنام.

الفصل السابع

٢٢ يوليو ١٨٣٤م - البقاء في بيشة

ظهرت على دوسري ملامح البهجة والسرور عندما رأى عرب بيشة يخرجون لاستقبالهم. لم أكن قد رأيت دوسري منذ أن تقدّم القائد الجيش في رنية، فذهبت لزيارته في خيمته وسألته عن تفاصيل الموقف.

أخبرني دوسري أن البدو ليس لديهم شيء جديد، وأن الشريف منصور صديق وحليف للباشا، ولكن صداقة سكان بيشة مازالت أمرًا يُشَكُّ فيه.

سألته:

● كيف تشعر بعد اشتراكك في مطاردة الجيش العسيري؟!

أجابني دوسري قائلاً:

■ لم تكن هناك خطورة، ولكن إنهاك. بعد أن تركنا رنية في اتجاه «الثنية»، وجدنا العدو قد انسحب من هناك فتتبعناه حيث سلك الطريق المتجه إلى مروة التي امتنع شيخها عن إعلان خضوعه، وبذلك أصبحنا في حدود بلاد معادية. وعلينا أن نكون على قدر كبير من الحيطة والحذر. وكان يتقدم جيشنا العناصر البدوية كسرايا استطلاع يتبعهم فرسان الترك ثم المدفع الوحيد، ثم يأتي الجيش المغربي في المؤخرة. وكان علينا أن نمر من خلال اثنين أو ثلاثة ممرات ضيقة وخطيرة، إذ من المحتمل أن يتربص العسيريون لنا فيها، ولكن تأكد لنا أنه لا وجود لهم، وأن وقوع المقاومة أصبح غير وارد، وما هي إلا لحظات حتى بدا أمامنا رجل ضخم، بينما كان عدد قليل من البدو يختفون في الهضاب المحيطة بالمكان ويراقبوننا، ولم يتمكن الترك من رؤيتهم، ولكن عيون بدو الشريف منصور المتمرسة لمحتهم في الحال، فانطلق الفرسان لمطاردتهم بغية القبض عليهم، وبعد ثلاثين دقيقة من الصمت عادوا يحملون معهم جثث ثلاثة من العرب

الذين تمكنوا من قتلهم. وفي الوقت الذي شارفنا فيه على وصول «مروة»، وجدناها خالية من سكانها، ولكن ما أن أسدل الليل ظلامه حتى تقدم أوائل السكان معلنين خضوعهم وطاعتهم في حين كان شيوخهم قد هربوا. وسألهم القائد:

● لماذا لم تحضروا قبل هذا؟!. لقد وضعتم أنفسكم في حكم العاصي الآن.

أجابوا:

■ إن العسيريين لم يغادروا قريتنا إلّا توًّا، وكان من المستحيل أن نقف أمام جيشكم.

وسألهم القائد:

● هل العسيريون بعيدون من هنا؟!

أجابوا:

■ إذا كان ممشاهم عاديًا فإنهم سيكونون على بعد أربع ساعات من هنا.

قال القائد:

● سنلقي عليهم القبض فيما بعد. لكن عليكم الآن أن تعترفوا بـ «محمد علي» كحاكم شرعي لكم، وبعد ذلك نترك لكم حق العودة إلى بيوتكم.

قالوا:

■ إن عوائلنا على بعد مسافة كبيرة من هنا ونرغب في العودة لنكون بالقرب منهم، فهل لنا أن نفعل ذلك؟!.

قال القائد:

● إنني سأقدم لكم النصيحة بأن تتصرفوا بالطريقة الحسنة التي تجنبكم أي مداهمة من قبل الجيش.

أضاف دوسري قائلاً:

■ تحركنا من «مروة» إلى بيشة مباشرة نسوق أمامنا ما غنمناه - أثناء غيابنا - من الحمير والماعز والجمال. أما الشيخ سعيد «شيخ الثنية» فقد عاد إلى قريته لأن أهل بيشة أعداؤه.

سألت دوسري:

● وما هو منبع العداوة؟!

قال دوسري:

■ العداوة من هنا نبعت. في الماضي اعترف بدو الثنية بسلطة أهل بيشة عليهم، ولكن أهل الثنية قرروا تحرير أنفسهم من هذا الالتزام فأدى هذا إلى حروب استمرت بينهم وبين أهل بيشة، ولكن بصفة عامة انقلبت الموازين لصالح أهل الثنية. وحتى الآن يطلب أهل بيشة من أهل الثنية عشرين قتيلاً. وفي الأعراف البدوية لا يمكن التوصل إلى سلم إلا إذا تساوى عدد القتلى من الطرفين. ولهذا السبب فإن الشيخ سعيد لا يشعر بالأمان هنا في حدود بيشة، وهذا سبب عودته إلى واديه.

٢٣ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

تشبه[1] بيشة مصر. فبيشة من الأودية الجميلة المغطاة بأعداد ضخمة من أشجار النخيل، ونيل بيشة هو المجرى المائي الذي تتجمع فيه مياه

---

(١) تقع منطقة بيشة بمفهومها العام بين خطي عرض ١٩°، ٢٠° شمالاً وخطي طول ٤٢°، ٤٣° شرقًا على الحدود الشمالية الشرقية لمنطقة عسير ضمن هضبة يطلق عليها (هضبة بيشة) ويحدها شمالاً رنية من أعمال مكة المكرمة، وجنوبًا الحدود الإدارية لمنطقتي خميس مشيط والنماص، وشرقًا منطقة تثليث، وغربًا منطقة (سبت العلايا) ومنطقة الباحة. انظر: الدليل الجغرافي والإداري لمنطقة عسير، دليل غير منشور إعداد إمارة منطقة عسير.

أمطار جبال الحجاز وعسير حيث يقطع الوادي الإقليم مبتدئًا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، والعرب بمبالغاتهم الشرقية يدَّعون بأن مياه وادي بيشة تستمرّ في الجريان إلى أبواب بغداد. والحقيقة عكس ذلك، حيث إن الوادي يقطع طولاً مسافة ما بين أربعة عشر إلى خمسة عشر فرسخًا(١). ويحدّه من الشرق الجبال، أما الجبال من الجهة الشمالية فإنها

(١) وادي بيشة أكبر أودية السراة الشرقية على الإطلاق، وهو واحد من أكبر أودية الجزيرة العربية، ينبع من سفوح جبال بلاد رفيدة في أقصى نقاطها الجنوبية الغربية، ويسمى بوادي بيشة ابن سالم طوال اختراقه لبلاد رفيدة نسبة إلى ابن سالم زعيم بلاد رفيدة المشهور، وروافده الكبرى في بلاد رفيدة هي المربع والصوح والصفق ووادي المراغة ووادي عنقة والأخيران من الأودية الكبرى حيث يلتقيان بوادي بيشة ابن سالم عند بلدة جروش. حاضرة عسير التاريخية وتكون هذه المدينة التاريخية، شبه جزيرة تحيط بها هذه الأودية الثلاثة، وعند حافة الطرف الشمالي لهذه البلدة تلتقي هذه الأودية وتصب في مجرى وادي بيشة الذي سيبدأ في حمل اسم وادي بيشة ابن مشيط، نسبة إلى مشيط زعيم قبيلة شهران المشهور، وذلك بدأ من قرية مسيحل وهي الحد الفاصل بين بلاد رفيدة القحطانية وبلاد شهران وفي شمال خميس مشيط بقليل يلتقي بوادي بيشة أودية أخرى كبيرة هي وادي تندحة ووادي عتود ووادي أبها، وعند التقاء وادي بيشة بوادي شهران، والذي أصبح يُعرف الآن ومنذ وقت لا يتجاوز بأي حال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بوادي ابن هشبل نسبة إلى ابن هشبل أحد زعماء قبيلة شهران عند بلدة واعر ليصبح اسمه بدءًا من هذه النقطة يحمل اسم وادي بيشة النخل، ومن هنا تتعدد روافده وتتسع مساحته حيث تبلغ عند مدينة بيشة أوسع مدى، ومن أهم روافد وادي بيشة النخل، وهي كثيرة، وادي ترج الذي يبدأ من مرتفعات السراة شرقي تنومة ويلتقي بوادي بيشة عند بلدة الحيفة على بعد ٢٥كم جنوب مدينة بيشة، ووادي تباله ويصب في وادي بيشة عند قرية الصبيحي، ووادي هرجاب، وهو من الأودية الكبرى في بلاد بني واهب من شهران، ويصب في وادي بيشة بالقرب من الحيفة، ويبلغ طول وادي بيشة من منابعه إلى نقطة اختفائه في الرمال الفاصلة بين بيشة وواد الدواسر حوالي ٤٥٠كم. انظر: فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ص٥٤ وما بعدها. وكذلك الدليل الجغرافي والإداري لمنطقة عسير الذي أعدته إمارة منطقة عسير، مازال مخطوطًا بحوزة الإمارة.

تأخذ في الانخفاض والسهولة. وأما الجبال الواقعة إلى الجنوب فإنها على النقيض متكونة من الصخور الصلدة.. مكوِّنةً أشكالاً مثل أسنان المنشار، وترتفع بمنحدراتها السحيقة والعميقة على جميع عرض الوادي، ويتخللها مضيق صغير حيث تقع قرية «مروة»، هذه القرية تعتبر تابعة لسيطرة بيشة.

في الجهة الغربية لاحظنا جبالاً جديدة تخترقها ممرات تؤدي إلى الثنية، حيث نصب مخيم الجيش على حافة غابة من أشجار النخيل. وعددنا عدة قرى من هنا أولها نمران(١) التي تقف كالحامي في المقدمة. ثانياً: الروشن الكبير(٢)، ثالثًا: الروش الصغير(٣). ويحكم منطقة بيشة ثلاثة مشائخ، وأسماؤهم كالآتي:

١ - ابن شكبان(٤)

٢ - محمد بن عون(٥)

٣ - علي الصعيري(٦)

(١) نمران من بلدان بيشة المشهورة وبها سوق أسبوعي كبير هو سوق الخميس.

(٢) الروشن الكبير: وهو مقر الحكومة لمنطقة بيشة وبه سوق الأربعاء، وهو من أسواق بيشة الكبيرة.

(٣) الروشن الصغير، وهو روشن آل مهدي من قحطان.

(٤) وآل شُكبان وفيهم مشيخة قبائل الرمثين الشهرانية وأسرة آل شكبان أسرة مشهورة قامت بدور قيادي إبان فتر الدولة السعودية الأولى، وبرز منها عدد من القادة الذين تولوا مراكز قيادية في جيوش تلك الدولة، ومن أشهرهم سالم بن محمد بن شكبان (ت ١٢٢٠هـ) وابنه فهاد بن سالم، ومازالت زعامة قبيلتهم فيهم إلى يومنا هذا.

(٥) محمد بن عون وهو زعيم قبيلة آل مهدي القحطانية المستوطنة في بيشة.

(٦) علي الصعيري زعيم قبيلة بني سلول من شهران المستوطنة في بيشة، انظر: ما أورده المؤلف عنه في هذا الكتاب ومازالت في أسرة آل الصعيري زعامة قبيلة بني سلول إلى وقتنا الحاضر.

=

ويتمتع هؤلاء الشيوخ الثلاثة بسلطات متساوية، ويتّخذون قراراتهم برأي الأغلبية. وكل الشيوخ الثانويين تحت وصاية سلطة المشائخ الثلاثة المذكورين أولاً.

ويُقدّر عدد سكان بيشة ـ بخمسة وأربعين ألفًا ـ (٤٥٠٠٠ نسمة)[1]. منهم حوالي عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) زنجي. ومن المستحيل قطعيًا الحصول على العدد الحقيقي للسكان سواء من الشيوخ أو من الأعراب. ويرفض الشيوخ الإفصاح عن العدد الحقيقي لقبائلهم نتيجة الخوف، كما يرفض البدو الإفصاح عن عدد قبائلهم نتيجة الجهل بالعدد الحقيقي. إلا أنهم جميعًا لا يترددون في إعطاء الرقم الحقيقي للقادرين على حمل السلاح، ويعتقدون أنه من الممكن تقدير العدد التقريبي للسكان بهذه الطريقة ـ أي طريقة ذكر عدد المحاربين لكل قبيلة.

= ومن مشائخ بيشة المشهورين إضافة إلى الوارد ذكرهم (١) ابن لزهر شيخ معاوية. (٢) ابن عطيان شيخ قبائل اكلب، وسبق أن ورد ذكره، (٣) الفويه شيخ شمل بني واهب. (٤) عمير بن مشاري بن عمير شيخ قبائل بني منبه، وتسمى بيشة من بلدة سحام إلى واعر، بيشة ابن عمير.

(١) قدر فؤاد حمزة سكان بيشة في عام ١٣٥٢/١٩٣٤م بأنهم يتراوحون ما بين أربعين وخمسين ألف نسمة، كما قدر عدد قرى بيشة التي تقوم على أطراف الوادي اعتبارًا من بلدة واعر بإحدى وعشرين قرية. انظر «في بلاد عسير» ص٥٥، ويقدر عدد سكان مدينة بيشة لوحدها الآن بحوالي خمسين ألف نسمة.

أما قرى وادي بيشة فهي تقرب من ستين قرية أهمها ما يلي:

الحرف	الصور	الشقيقة ـ بني سعد
الحريرة	عويفه	شقيقة آل منيع
الحمة	واعر	الرقيطاء[1]
الصبيحي	الروش الصغير (روش آل مهدي)	الرقيفاء[2]
بالشوك	الروش الكبير ـ مقر الحكومة	الجريان
النقضة	نمران	النقيع
الحيفة	المدرى	
الحازمي	الجنينة	دبل[3]

---

(١) وبها قلعة الرقيطاء المشهورة.

(٢) هكذا وردت في الأصل.

(٣) هكذا وردت في الأصل.

إذا كان المؤلف قد أتى على ذكر أهم قرى وادي بيشة فلإتمام الفائدة نورد قرى وادي بيشة، كما وردت في الدليل الجغرافي والإداري الذي أعدته إمارة منطقة عسير، وقد وردت كالتالي: مدينة بيشة، المركز، النغيلة، نمران، حرجة بيشة، الحريرة، قوز نعمان، الحمة، الصبيحي، الخليج، فنيخ الشداخة، بالشوك، الحرف، الرميلات، الأسابيط، عطف الحيرة، العطف، الديلمي، الدحو، الرقيطاء.

النقيع: وتقع على مسافة ٣٥كم شمال مدينة بيشة.

قرى النقيع: النقيع، مركز الإمارة، العينة، النجادي، الحشرج، العيدان، حلبية، الرفايع، الرقيطاء، عماير الرقيطاء بني عمر، ابن سهم، الجنينة، فروان، عبدان، عصلان، المحتجبة، شريفة، الخرسعة، شقيقة آل منيع، الشقيقة بني سعد، خيبرة.

قرى تبالة: مركز الإمارة، قرية المخرم وتبعد عن بيشة ٤٥كم ومعظم قبائل تبالة تعود إلى قبائل (أكلب) من خثعم، أما القرى فهي كالتالي: المخرم، ظريب السوق، القوزية، مصر، الأحيمر، الغدير، مطوية مشرفة، توائق، الفرشة، الغدنة، =

وقرى بيشة مبنية من الطين، ومسوّرة بسور من الخارج له ثلاث بوابات مفتوحة كل الأوقات إلاّ أوقات الحرب. والبيوت متلاصق بعضها ببعض، وأبوابها كلها متشابهة في الشكل، ولها سطوح يوجد فيها أماكن للدفاع، حيث يتمكن البدو من استخدامها في حالة أي هجوم، وكل البيوت مكوّنة من طابق واحد، وتستخدم جذوع أشجار النخيل في بناء المنازل.

ويوجد في قرية نمران مسجد، يتخذه الإمام مدرسة أيضًا لتعليم الأطفال، وتُعقد السوق في منطقة الروشن كل يوم خميس، حيث يبيع الناس فيها الفواكه والجمال والخيول والعقدان المحلية الصغيرة.

= الجهلية، الحرسة، الجبارين، الشديق الجديد، الشديق القديم، المنتزة، الرطوطية، الشفا الحرقان، الثنية، معرة، الباطن، رنية الجنينة، المبرز، القوز، الفوت، الحصن، العرضية، سهوة، صروم، الجزع، عقل، الزريبة، الخارجة، السرحات، سكة، الهضبة، الدوار، داحل، الحرف، هجرة نحاس، هجرة الحرجة، الحفياء، سفرة، سادرج، صدر العصين، واسط، الشارب.

الحازمي: على بعد ٢٥كم جنوب غرب بيشة ويمر وادي ترج جنوب الحازمي ويطلق عليه اسم وادي الحازمي، ويلتقي هذا الوادي مع وادي بيشة شرق مدينة الحازمي عند قرية الحيفة. وسكان الحازمي ترجع أصولهم إلى قبائل شهرانية.

أما قرى الحازمي فهي كالتالي:

عجيلان، الباقرة، المجمعة، الصهيبي، الشعبة، الضبعانة، المنتزة، الحجابة، البيضاء، الصور، مرشد، المهامل، الجفرة، الروقية، فيضى، وادي المسمى، الدحيمي، مهر آل الربيع، المدراء، المروة، خيبر، الحرجة، (آل دبان)، الحيفة، الشطر، النهضة، مخشوش، الدويلي، الميراد، ظهاء، القفرات، الروكية، المقل، الجليفية، الصيخة، الخطيرة، القهب، الشارب، الهشيمة، الصيماء، الجليحل، المرواني، بلحطيط، وفاء، عليقة، المخريقة، النهكة، الفضانة، أم الخشايا، واعر، النجود، حقب، القديع، الظاهر، الفقرة، عرمان، سحام، الحدائق، بينه، بادية بني قينة.

إن الأغلبية من سكان بيشة مزارعون، ولم يحدث أن خرجوا إلى خارج واديهم لرعي أبقارهم وأغنامهم. ويعيب البدو على سكان بيشة سكناهم في البيوت المبنية من اللبن. ويسبّونهم لاتخاذهم الفلاحة مهنة، ولا يتزوجون من نسائهم لاعتقاد البدو بأن آباءهن لا يتمتعون بصفاء العنصر - أي أصالة النسب - لذا فهم يطعنون نساء بيشة في أصالتهن. ولا يمانع أهل بيشة من التزاوج مع الترك والمصريين، بينما يحمل العرب الحقيقيون الكره العميق لهذا النوع من الزواج.

قدم رجل من عسير للتوّ وقدم نفسه للباشا، ثم قال له: إنه جاء حاملاً رسالة، ثم أفاد أن شيوخ بلاده غير مستعدين للقتال، وادعى أنه بمجرد وصول الجيش إلى وادي شهران فإن كل واحد سيعلن استسلامه، ما عدا ثلاثة أو أربعة من كبار المشائخ الذين سيتحصنون في قرية «ريدة» المحصنة بعدة قطع مدفعية يديرها الأتراك من بقايا مشاة جيش «تركجة بلماز[1]».

كان الكلام الشفوي لحامل الرسالة يناقض مضمون رسالة الأمير عايض، فهي تحمل جواب الأمير على مشروع المحادثات التي كان «هندي» قد بحثها مع الباشا في الطائف إضافة إلى توضيح موقفه من إنذار الباشا الموجه إليه، حيث أعلن رئيس عسير في رسالته: «إنه مستعد للحرب إلى آخر رجل»، وجدد دعوته للقائد بأن يعود بجيشه واعدًا إياه بأنه سيدفع المبلغ الذي عُرض عليه حينما كان في الطائف.

قدم الشريف الكبير على رأس القسم الثاني من الجيش مصحوبًا بحراسة المتألقين، وفي معيته كل أشراف المعسكر الذين كانوا قد خرجوا

---

(١) سبق التعريف به وبثورته وبعلاقته بالأمير علي بن مجثل.

لملاقاته على الطريق القادم من الثنية. وكان يرافق الشريف - أيضًا - عدد كبير من بدو الطائف ومن وادي زهران، ونحن في انتظار الفوج السابع المتوقع وصوله في أي وقت.

لقد تجمعت القوات العسيرية في مكان لا يوجد فيه سوى بئر ماء واحدة محصنة بالقلاع. وللوصول إلى هذا الموقع لابد من العبور من خلال مضيق ذي انحدار عميق تشرف عليه جبال عالية. وفي هذا المكان كاد أحمد باشا يستسلم في إحدى حملاته الماضية.. مع أنه كان يصطحب معه ستة أفواج من العسكر وعدة آلاف من البدو، وفرقة من الفرسان يقودهم محمد بك [1]. إنه في هذا المكان نفسه حيث يتجمع أتباع الأمير عايض، وما زال يتوقع الخلاص من عدوه مستفيدًا من الميزة الطبيعية لهذا الممر الجبلي الذي كان كبير الفائدة لأسلافه من الناحية العسكرية.

ومع ذلك، فبموجب الأخبار التي وصلت من عسير والتي تشير إلى تفكك عرى الوحدة، فإن قليلًا جدًا من الشيوخ لا يزالون يصدقون في التزامهم، بينما هناك عدد من الشيوخ الكبار أبلغوا الباشا بواسطة مبعوثيهم بما يلي: «تستطيع أن تعتبر عسير خاضعة لسلطتكم، إذ لا نحب أن نرى أنفسنا وقد أصبحنا عبيدًا لك ونجبر على تسليم كل ما نملكه لك».

---

(١) للمزيد من التفاصيل عما حل بالجيش المصري من هزيمة على يد قادة المقاومة العسيرية في هذا المكان الذي أشار إليه المؤلف انظر: الوثيقة رقم (١١) محفظة (٩) بحربرا بتاريخ ٢١ رجب ١٢٣٩هـ/ ٢٢ مارس ١٩٢٤م دار الوثائق القومية القاهرة، وانظرها منشورة في المجلد الأول من وثائق شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي ١٢٣٤هـ - ١٣٥٦هـ - ١٨١٩م - ١٨٤٠م الدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، دار المتنبي للنشر والتوزيع، الدوحة، انظر: ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٣٢٤ وما بعدها. وهذه الوثيقة عبارة عن تقرير مفصل لوقائع هذه الحادثة.

وبصرف النظر عن هذه الإشهارات إلا أنني أعتقد أنهم سيحاربون في كل الظروف.

٢٥ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

تم الإعلان عن وصول الفرقة الثانية. وفي منتصف هذا اليوم شاهدنا حراب الفوج السابع تتلألأ على إثر انعكاسات أشعة الشمس عليها. ويتكون هذا الفوج الآن من ثلاث سرايا أو فرق، وكانت السرية الثالثة التي مكثت في الطائف قد ألحقت بالجيش عندما كان معسكرًا في العقيق، وقد قطع جنودها المسافة من الطائف إلى العقيق خلال ثمانية أيام.

قدِم بعض المبعوثين من عسير، وأكّدوا قيام حزب في بلادهم يرغب في الإطاحة بحكم الأمير عايض وإعطاء الحكم لابن الأمير علي [1]. ويعتقد المؤيدون لهذا المشروع بأن - فترة الأمير الأب - أي الأمير علي بن مجثل - كانت فترة قوة وسعادة للإقليم طوال حكمه، ويرجون من الله أن يحفظ الإقليم بالطريقة نفسها في عهد وريثه الشرعي.

وقدَّم الشيخ محمد بن عون المهدي المقدم أحد شيوخ بيشة الثلاثة الرئيسيين ألفيْ كيلو غرام (٢٠٠٠ كلم) من التمر للجيش.

٢٦ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

قام فوجان من الجيش - في هذا اليوم - بمناورة بالذخيرة الحيّة أمام سفراء عسير، وأطلقت ثلاثة صواريخ، انفجر أحدها بالقرب من مدفع الإطلاق، ومن حسن الحظ لم يتأذَّ أحد.

---

(١) ابن الأمير علي بن مجثل.

كما قدِمَ من القنفدة خيّال أفاد بأن مختار أغا رئيس الخيّالة المرابطة في تهامة قام بهجوم على حدود منطقة إمارة عسير وأحرق عدة قرى من ضمنها «حلي»[1]. التي تقع بين الحجاز واليمن. وأوردُ هنا مضمون الخطاب الذي حمله مندوب عسير:

«نحن شيوخ هذه البلاد، قررنا تفضيل الموت على أن نصبح أتباعًا لـ «محمد علي»، والله يعرف عدالة مطلبنا، لا سيما ونحن نحاول الحفاظ على حماية بلادنا التي ورثناها أبًا عن جدّ منذ آلاف السنين. والله وحده هو الذي سيُقرّر مصيرنا. لم تصدر منا أي عداوة أو مسبّة لحاكم مصر، فلماذا هو راغب في حربنا ونحن مسلمون؟، ولماذا يرسل ضدنا جيشًا يتكون كله من المسيحيين وغير المؤمنين؟!».

إن موقف الحملة في الحقيقة غير مُطَمئِن، إذ نجد أنفسنا في وسط الجزيرة العربية بآفاقها الصحراوية، وعرضة لانقضاض سكانها علينا وإبادتنا. ونتيجة لمخادعة العدو؛ وبطء حركة الشريف، أصبح الجيش لا يملك من المؤونة والماء إلّا ما يكفيه لمدة ثلاثة عشر يومًا.

أرسل الشريف منصور إلى مختلف مشائخ بيشة في طلب الجمال اللازمة لنقل مهمات الحملة. كما طَلب منهم الحصول على دقيق ـ أيضًا ـ وعلى الأقل ما يكفي الجيش عند مغادرته بيشة، وقد صُرف لشريف يدعى سلطان مبلغ (٧٠٠٠) تالاريز (ريال فرانسي) لهذا الغرض.

كان كل جندي ـ أثناء المناورة بالذخيرة الحيّة قد استهلك اثني عشرة

---

(١) حلي: مدينة تاريخية معروفة، وكانت من المدن المزدهرة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وبها ميناء باسم ميناء حلي، ويقع إلى الجنوب من ميناء القنفذة. وحلي ـ أيضًا ـ هي وادٍ من أكبر أودية تهامة عسير، والمدينة والميناء يقعان عند منصب الوادي في البحر الأحمر.

طلقة، أما المدفع فلم يطلق كلّ ما قرر له من الذخيرة. وبعد المناورة قام الجيش باستعراض أمام الباشا والشريف الكبير، أما «عوّاض» كبير مبعوثي عسير فقد ظهرت عليه علامات الخوف حيث قال للباشا:

● نحن أناس فقراء فلماذا يا أحمد ترغب في حربنا؟!

أجاب الباشا:

■ تنفيذًا لإرادة سيّدي.

● نحن مستعدون للتضحية بكل شيء في سبيل منع هذه الحملة من دخول بلادنا.. لأنها إذا تمكنت من الدخول فإن ذلك يعني ضياعنا.

قال الباشا:

■ إرادة سيّدي هي أن أصلَ بهذه الحملة إلى عسير، والجيش سيعمل كل ما في وسعه من أجل تحقيق هدفه، بالإضافة إلى ذلك فهناك حملة أخرى مساوية لهذه الحملة في القوة ستتوجه إلى اليمن يقودها أخي إبراهيم باشا، وحملة ثالثة ستكون جاهزة لمهاجمة عسير عن طريق (أبوعريش)، في الوقت الذي ستصل فيه حملتي هذه إلى بلادكم.

تقدّم «عوّاض» رئيس الوفد العسيري بعرض مشروع على القائد. ولا أحد يعرف كيف بدأت فكرة هذا المشروع، وهل كانت بإيحاء من رؤساء «عوّاض» أم نصيحة من الشريف الكبير.

على أية حال، كان المشروع كالآتي:

أن يقوم القائد بإرسال الشيبي أفندي[1] والشيخ سعيد[2] إلى عسير ومنحهما الصلاحيات المطلقة لتوقيع معاهدة سلام. وأشار المندوب

---

(١) الشيبي أفندي هو الشيبي المنتسب لبيت آل الشيبي المشهور وحامل مفاتيح الكعبة.

(٢) لم تمدنا مصادرنا بمعلومات كافية عن هذا الشيخ.

العسيري في آخر مشروعه بقوله مخاطبًا الباشا:

● إن الشيبي أفنـدي صديقك المخلص، والشيخ سعيد محل ثقة الشريف الكبير المطلقة، و«لن تجد أحسن من هذا الخيار».

فسأله الباشا:

■ هل طلب منك شعب عسير أن تتقدم بهذا المشروع؟!

● لا، إنه اقتراح تبنّيته أنا شخصيًا.

■ هل أنت متأكد من أن مشروعك هذا سيرضى عنه الذين أرسلوك إلى هنا؟

● نعم أنا متأكد من أنه الطريقة الوحيدة المتبقية التي ستجنبنا خطر الاصطدام.

■ إذا كان العسيريون بحاجة إلى أن أبعث الشيبي أفندي والشيخ سعيد للمفـاوضة في قضية استسلامهم، فإن هذا الأمر يحتم عليهم أن يكتبوا لي بذلك طلبًا رسميًا.

● سأبلغهم طلبـك، وسأباشر بالعودة الآن، والله سيقرر ما عجز الإنسان في الوصول إلى حلّه، وسنترك أمرنا لله وحده، والله كريم.

■ حسنًا. أحيطك علمًا أنني وجدت مضمون الرسالة التي حملتها غير لائق.

● نحن لم نتعمد الإساءة إليك.

■ من الذي كتب هذا الخطاب؟!

● كان الاتفاق على مضمونه محل حوار طويل بين القادة.

■ من الذي كان يترأس النقاش؟!

● إنني لا أعرفه.

■ آمل أن ألتقي به عندما أكون في عسير، وسأقدم مبلغ ألفي تالاريز للشخص الذي سيقطع رأسه.

إن السفـير «عـوّاض» رجل صغير الجسم ونحيف، ومن العادة أن تكون هذه الصفات مناسبة للدبلوماسيين. ولهذا السفير وجه أسمر نحيف مستطيل، وله لحية تغطي عوارضه، وعيناه سوداوان عميقتان تنمّان عن يقظة مستمرة. ويبدو عليه الاهتمام البالغ بالمشكلات التي تواجه بلاده، حيث يضع يده على خدّه دائمًا. يسند بها رأسه، ويرتدي ملابس جميلة مع حزام مغطى بحلية ذهبية[1].

٢٧ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

كان الشيوخ يعدون بإحضار الجمال كل يوم، ولكن حتى الآن لم أر منهـا شيئًا. وفي هذا الصباح ضاق الباشا ذرعًا بتصرفات الشيوخ غير المخلصـين، لذا وزّع الفؤوس على جنـود المشاة وعلى جنود فرقة الخيّالة للقيام بقطع أشجار نخيل الشيخ عليّ الصعيري، إلّا أن الشريف ابن عون الذي دائمًا يقف إلى جانب العرب طلب من الباشا مهلة ثلاثة أيام.

قدم إلى المعسكر في المساء مندوبون يمثلون قبائل رجال ألمع يعرضون تعاونهم مع الباشا ضد العسيريين.

ورجال ألمع، اسم قبيلة قوية تقع ما بين (أبو عريش) وعسير، وهي تقسم إلى قسمـين: رجـال ألمـع الحجاز[2]، ورجال ألمع اليمن. وهذه

---

(١) لعله يقصد الخناجر العسيرية المشهورة الموشّاة إما بالذهب أو بالفضة.

(٢) ألمع الشام كما يسمون غالبًا. قبيلة رجال ألمع من أهم وأكبر قبائل عسير، وهي تتكون من عدة قبائل يفصل ديارها سلسلة جبال تمتد من الشرق إلى الغرب، فما كان يقع في الجهة الشمالية من هذه السلسلة يسمونه ألمع الشام نسبة إلى موقعهم شمالي هذه السلسلة، ومـا كان يقـطن منهم جنـوبي هذه السلسلة يسمونه ألمع اليمن، وجهة الجنوب تسمى في عسير يمن، كما تسمى الجهة الشمالية شام.

القبيلة قادرة على تنظيم جيش من سبعة آلاف مقاتل، ولكنها انهزمت أمام بسالة الأمير عليّ (ابن مجثل).

كان القائد مسرورًا باستسلام هذه القبيلة الكبيرة العدد، إلّا أنه كان يخشى ألّا يحقق النصر الذي حققه عليّ من قبْله.

أما الشريف محمد بن عون فلم يدع فرصة تمر دون أن يقوم بفرض احترامه على رجال القبائل.

وأما «عوّاض» فقد عاد إلى بلاده من غير أن يُحقّق أي نجاح في مهمته، وتُؤكّد الأخبار التي وصلت إلينا هذا اليوم من عسير بأنه تم انتخاب ابن الأمير عليّ أميرًا لعسير، ولكن القيادة ما زالت في يد الأمير عايض.

٢٨ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

أحس أهالي عسير بأن الحملة التي قدمت عن طريق القنفذة قد سيطرت على بعض مواقع حدودهم الغربية، كما بلغهم خبر الأوضاع في منطقة (أبوعريش) بعد دخول الفرقة الثالثة إليها. ومنذ أن علموا بأن الجيش المصري على وشك التحرك من بيشة، أخذوا ينظمون أنفسهم لمواجهة هذه الأوضاع. أما القائد أحمد باشا، فقد ظن بأنهم في موقف الضعيف لا سيما بعد انضمام قبيلة زجال ألمع إلى جانبه في الحرب ضد عرب عسير، حيث إن لهذه القبيلة معرفة كاملة بطرق بلاد العدو.

هدّد الباشا أهل بيشة والبدو المجاورين بقطع أشجارهم، فسارع البدو إلى تقديم الطعام والجمال والمؤن الأخرى إلى المعسكر كل يوم، وإضافة إلى ذلك قدم أهل بيشة للجيش ألف أردب (١٠٠٠) من القمح وألفي أردب (٢٠٠٠) من الطحين.

٢٩ يوليو ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

منذ أن خيّمنا في بيشة والنساء ملازمات بيوتهن، لم يخرجن قط لا في الليل ولا في النهار خوفًا من تعدّيات البدو. وعندما يتسلل بعض الجنود أثناء الليل ويرجمون عذوق التمر بالحجارة للحصول عليه من أعالي أشجار النخيل، تصيح عليهم النسوة القائمات بحراسة النخل بصوت عال، فيوقظن كل من في المعسكر، فيستجيب لهن أزواجهن الذين يدخلون في جدل مع الجنود الذين يفضلون العودة إلى أماكنهم قبل أن يعلم قادتهم بالحادث.

٣٠ يوليو ١٨٣٤م - الإقام في بيشة

حضر البدو القاطنون بالقرب من الثنية إلى المعسكر، وقدموا أنفسهم إلى الباشا بقولهم: «تحياتنا لسيدنا أحمد باشا. تحياتنا للشريف الكبير محمد بن عون. تحياتنا للشريف قائد الجيش الأحمر». لقد قدم جيشك من البر والبحر وأصبحت صحراؤنا تحت ثقله، وخيولك أسرع من البرق في السماء. احملوا أعلامكم وارفعوها فوق أبراج ريدة*، واذهبوا واحرقوا قلاعها وحولوها إلى رماد، وفي المستقبل سنقول كان هناك عسير[1].

الأسواق هي الأماكن التي يختارها الشيوخ الذين يحكمون بيشة كأماكن يلتقون فيها بالبدو ليخبروهم بما يتوصلون إليه من قرارات وما يصدرونه من أوامر تؤدي إلى سعادة واستقرار القبائل.

في اليوم التالي ارتقى أحد الشيوخ منصّة عالية في وسط السوق،

---

(١) يبدو أن المؤلف كان يسجل قصيدة شعرية.

(*) قلعة عسير الحصينة وسيأتي التعريف بها فيها بعد.

وتحلق حوله جمع كبير من الناس حيث أعلن فيهم بصوت عال نبأ إقالة الشيخ علي الصعيري من منصبه كواحد من قادة بيشة الثلاثة الرئيسيين، وأعلن في الوقت نفسه اسم الشخص الذي رشح في مكانه.

صدرت هذه الإقالة من الباشا الذي كان لا يزال غاضبًا على عليّ الصعيري الذي وعده بتزويده بالمؤونة والجمال ولم يفعل.

هذا الشيخ الذي أعرفه شخصيًا، قدم لزيارتي في خيمتي واشتكى من الباشا ومن الأتراك بشكل عام. فهو طالما عاضدهم من خلال مهارته السياسية، وهـو ـ أيضًا ـ لا يحس بالسعادة والارتياح من قبل رفاقه من العرب. قال علي الصعيري:

● في أيامنا هذه لم يعد الصدق والإخلاص معروفين لدى الناس، وهاتان هما الخصلتان اللتان كان لهما ميزة عند الناس في الماضي. وبمجرد أن تنتهي هذه الحرب سأترك المسرح السياسي وأتفرغ للأعمال الاجتماعية فقط، وسأبقى مع عائلتي في بيتي حتى الموت.

قـلـت:

■ هل تظن أن العرب اليوم قد ابتعدوا عن محاسن الإنسان العربي في الماضي؟!

● كان والـدي يُردّد دائمًا بأن أجدادنا كانوا أكثر نصحًا ونقاءً منا، ولكن منـذ أطـلّ على بلادنـا شيطان الترك، وبدأ التحكم السياسي في مصيرنا، مزّق الخوف والطمع في المال.. قيمنا.

انقلب حديثنا إلى النساء فسألني الصعيري عما إذا كنت متزوجًا.

فأجبتـه:

* لا، أنا لست متزوجًا وما زلت صغيرًا على سن الزواج.

قال لي:

كم عمرك؟!

* اثنتان وعشرون سنة.

* قال الصعيري:

* لقد تزوجت عندما كان عمري اثنتي عشرة سنة.

* ولكنك الآن أوشكت على أن تكون عاجزًا.

وسأل الصعيري:

* وكيف عرفت ذلك؟!

* سمعتك تطلب مقويًا للباءة من السيد شديفو[1].

* ولكن أرجوك أن تُحافظ على هذا السرّ ولا تُذيعه لأحد.

* أعدك، وهذه لحيتي.

* كم زوجة ستتزوج حينما تعزم على الزواج؟!

* واحدة.

* في البداية إنه شيء جيد. ولكن بعد ذلك...!!

* في بلادنا لا يحقّ للرجل قانونًا أن يتزوج أكثر من واحدة.

* عجبًا.. عجبًا، ما هذه البلاد؟! وكيف يكون الإنسان قانعًا بهذا؟!، وماذا تفعل عندما تكون الزوجة حاملاً أو مريضة؟!

أجبته على هذه الأسئلة بكل ما أستطيع، ولكن بالرغم من محاولاتي أصبح من المستحيل إقناعه بفكرة الزواج من امرأة واحدة فقط. وقال:

* فكـرة الـزواج من امرأة واحدة فكرة ممتازة للرجل الفقير، ولكن الرجل الغني لن يبلغ مرحلة الرضا بزوجة واحدة.

* إن قوانيننا متشددة بخصوص هذا الأمر، وقد وصلنا من التطور إلى درجة القناعة بهذا المفهوم.

---

(١) السيد شديفو طبيب، ورئيس أطباء الحملة.

* حسنًا، حسبي ما سمعته الآن، فهذا قد جعل مني صديقًا جيدًا لبلادكم.

في تلك اللحظة جاء لزيارتي أحد الأوربيين. فلمح علي الصعيري خاتمًا كان يلبسه في إصبعه فسأل عنه.

أجاب الأوربي:

* لا أعرف عنه شيئًا، إنه مجرد هدية.

سأله الصعيري:

* هل هو من أمك؟!

* لا، إنه من امرأة.

* آه. امرأة، أعرفهن، إنهن في أوربا يؤمنَّ حقيقة بالحب. أما في بلادنا فلا يؤمن أحد كثيرًا بمداعباتِ المرأة، وسيكون للمداعبة قيمة إذا حصلت عليها من واحدة من زوجاتي.

* ربما لكونك كبيرًا في السن، لأن رأي الرجل في المرأة يتغير بعامل الزمن، ولكن عندما كنت شابًّا فمن المؤكد أن قلباكما كانا يتجاوبان في إظهار العواطف.

* نعم، أعتقد بشعور ابتعادي عن قلوبهن كلما تقدمت بي السنّ، وإن كل شعرة بيضاء في رأسي تنذر بحظ سيىء، وتؤكد الآراء التي أحملها عن المرأة التي يتمثل فيها عدم الإخلاص والثقة.

هذه هي الترجمة الكاملة للمحادثات التي دارت بيننا في خيمتي.

الفصل الثامن

تاريخ علي الصعيري ـ صورة ـ شبابه ـ حرب محمد علي ـ بيشة تصبح تابعة ـ ثورة ـ حسن باشا ـ قلعة ـ هزيمة البدو ـ علي الصعيري وقلعته ـ الحصار ـ مدافع ـ قنابل ـ حيلة استراتيجية ـ لغم ـ قطع النخيل ـ معاهدة ـ ثورة علي ـ سعيد ـ أحمد باشا ـ هزيمته ـ سليم بك ـ أبوخازوق ـ ختم ـ سجن ـ حكم بالإدانة ـ تأجيل التنفيذ ـ استلام ـ مصائب جديدة ـ ابن دهمان ـ آخر الأحداث ـ ابن علي الصعيري ـ زيارة إلى قلعة بيشة ـ وصف ـ ميل البدو إلى الريالات ـ «الفرانسة» ـ تبادل قروش ـ أبقار بدِرْبه ـ أصل دربتها أو سنامها.

الفصل الثامن

٣٠ يوليو ١٨٣٤م - جولة في بيشة

علي الصعيري رجل معتدل القامة، وبالرغم من تقدمه في السن وما يتحمله من الإنهاك المستمر، فما زال يظهر بمظهر المحارب. يمشي هذا الأعرابي طبيعيًا حافي القدمين، إلا أنه في ظروف نادرة وغير طبيعية يلبس حذاءه المصنوع من جلد الجمل، وهذا هو الحذاء التقليدي لأبناء وطنه. ولهذا الرجل صدرية مصنوعة من القماش الخشن، وثوبه من القماش الرخيص، أما غطاء رأسه فيتكوّن من غترة مربوطة بقطعة قماش بيضاء[1]. ولعليّ الصعيري ولع جنوني في حمل سيفه بيده دائمًا، ولم يرغب قطعيًا في ارتداء الحزام الأوربي أو الشرقي المزين بالحرير. وإذا قام أحد بزيارته يجد سيفه أمامه. إنه سلاح من صناعة فارسية، وتعلُّق الشيخ به له سبب خرافي. فهو لن يقبل عشرة آلاف تالاريز ثمنًا له، مع أنه اشتراه بأربعين تالاريزًا فقط.

ولعليّ الصعيري رأس جميل الشكل، وله عينان سوداوان مشعَتان ومكحّلتان ولهما رموش سود. وله أنف مقوّس، أما ذقنه فيميل إلى (الدقاقة)، وفمه متوسط، وله لحية بيضاء كثيفة.

قدّمت لهذا الشيخ كتيبًا أوربيًا كتبت عليه اسمي، وكان لهذا الحدث أثر كبير عند الشيخ، حيث وعدني بأن هذا سيذكّره بأن يعامل كل رحّالة فرنسي يعبر حدود قبيلته كصديق وكأخ.

---

(١) لعله مايسمى بالعمة. أو المعم.

قصّ عليّ الشيخ علي الصعيري بنفسه قصة حياته ومعاناته، بالطريقة التي أسردها لكم الآن:

«كنت ما زلت شابًا عندما ترك محمد علي ضفاف النيل الجذابة سائقًا نفسه إلى بلادنا الصحراوية تدفعه الإرادة الجامحة إلى إخضاعنا لحكمه. وأقسم البدو الذين لا تنقصهم الشجاعة والحماس الوطني أنهم سيحاربون العدو حتى الموت للحفاظ على حريتهم واستقلالهم، ولكن الله - سبحانه وتعالى - لم يشأ أن يرجّح ميزان الحرب في صالحنا.

قام محمد علي بإلقاء القبض على رجالنا ومصادرة أموالنا، وأجبرنا على المخاطرة بحياتنا من أجله، ولعل هذا ما قد كتبه الله لنا في كتاب الأجل، وبعد أن مكث في بيشة عدة أيام غادرها محمد علي مفتخرًا بنصره.. باتجاه جبال عسير، وأجبرنا على مرافقته إلى ذلك الإقليم وساعدناه في القضاء على أبناء بلادنا، وبعدها غادر محمد علي محملاً بالغنائم عائدًا إلى مقرّ ولايته على عجل حيث وصلته الأخبار بأنه سيتم تعيين والٍ بدلاً منه. هذا ما رواه لنا أحد الرواه.

في السنة التالية، ثارت جميع القبائل الخاضعة لحكمه العسكري، وامتنعت عن دفع الضرائب التي كان قد فرضها عليها، لأن ذلك كان شيئًا مؤلمًا بالنسبة لها، وهو أن تضحي بأنفس ما تملك من أنفسٍ وأموال من أجل أجنبي تركي مستبد.

قام حسن باشا.. حاكم الحجاز بإبلاغ سيده في مصر عن تطورات الأوضاع في جبالنا، فبعث له محمد علي بقوات من أجل إجبارنا على طاعته، وسرعان ما قاد هذا القائد جيوشه متقدمًا نحو بلادنا. وأخبرنا جواسيسنا بأن العدو يمتلك جيشًا قويًا مكوّنًا من جنود المشاة وفرق الخيّالة، ولكن بدلاً من أن تروعنا تلك الأخبار ضاعفنا استعداداتنا

الحربية، جمعنا قوات القبائل، وأقمنا القلاع التي ما زالت آثارها واضحة على مرأى من هنا، وملئت مخازنها بالمؤن التي تكفي لمدة شهرين، وحفرنا آبارًا في أفنية القلاع لتزويد المحاربين بالماء الكافي.

ومنذ الحرب الأخيرة، اكتسبتُ بعض التجارب حيث أصبحتُ مؤهلاً لاحتلال أعلى مرتبة في جيش العرب [1]. وفي الموعد المحدّد أصبح جنودنا جاهزين تحت إمرة رؤسائهم، منهمكين إما في تنظيف رماحهم وحرابهم، وإما بانشغالهم بصقلها. وكان بعض منهم منهمكًا في إصلاح السروج وإطعام خيولهم بأحلى ما تشتهيه من الطعام المكون من مقادير كبيرة من الحليب واللحم، بينما كان الشيوخ يناقشون ويخططون استراتيجية الهجوم، وكانوا جميعًا يحترقون حماسة وغيْرة.

وفي أحد الأيام، وبعد صلاة الفجر، أقبلت سحابة من الغبار معلنة عن وصول جيش العدو. وقابلْنا الهجوم بهجوم جنوني معاكس، ولكن النتيجة كانت هزيمة لنا أمام صلابة جيش حسن باشا.

بعد هذه الهزيمة المؤلمة تراجع العرب بسرعة أكثر من سرعتهم عند الهجوم، ثم خيّم على هذه الأماكن صمت رهيب بعدما كانت تسمع صرخات الحرب، وأصبح يتخلل هذا الصمت أغاني نشوة النصر الممتعة للمنتصر، وأنات الألم للمهزوم.

وبذلتُ جهودًا مضنية حتى جمعتُ لي أربعمائة رجل، وتحصنّا في القلعة كآخر أمل للنجاة من تسلط جيش حسن باشا.

كان الاعتقاد السائد بين الناس في بلادنا هو أن: «الأقوى هو الأجدر بالاحترام»، فخضعت القبائل جبنًا تحت رايات العدو، وتم إبلاغ حسن

---

(١) سأستخدم لفظة «عرب» بدلاً من لفظة بدو (المترجم).

باشا بأنني كنت المسئول الوحيد المحرك للثورة، وشعرت حالاً بأن لا أمل في نجاتي، ولذلك صمّمت على البقاء في قلعتي مفضلاً الموت وسلاحي بيدي على أن أموت بطريقة مخجلة.

بعد يومين من الهجوم واستعادة الأتراك لقواهم المفقودة بفعل الإنهاك والتعب، بعث إليَّ حسن باشا بأحد ضباطه كوسيط. كنت في فناء القلعة عندما أبلغني الحارس عن وصوله، وسألني هل يطلق عليه النار؟!.

ذهبتُ إلى أحد المتاريس مراقبًا حركات الضابط التركي حتى اقترب من سور القلعة ثم رمى جرابًا معلقة بأحد أطرافه ورقة مطوية، ثم اختفى بعد ذلك عائدًا ممتطيًا جواده بسرعة فائقة.

فتحت الرسالة وقرأت كلماتها الآتية:

«علي الصعيري، عليك بالاستسلام قبل غروب الشمس، وإلا فستكون هذه آخر ليلة في حياتك».

لم أخبر أحدًا بهذه الرسالة، وقبل صلاة المغرب من اليوم نفسه عاد الضابط التركي مرة أخرى ممتطيًا جواده، وبمجرد أن رأيته رميت له بـ «الجراب» مرفقًا به ردّي على رسالة حسن باشا. كان خطابي يحمل الرد التالي:

«تعرف إن أسوار هذه القلعة مبنيّة من الطين، ولكنْ هناك شيء حقيقي تجهله وهو أن أيدينا مصنوعة من الحديد».

في الصباح التالي، شاهدت مائة جندي من مشاة العدو مسلحين بالبنادق يتقدمون طليعة جيش حسن باشا، الذي جاء يقود بقية جيشه باتجاه قلعتنا التي سيجعل منها بعد احتلالها مقرًا لقيادته.

لم أكن مندهشًا من قراره هذا لأنني توقعته، ولكن الذي آلمني أكثر هو

أن أرى أبناء بلدي يرافقون قوة العدو للقضاء علينا.

اكتفى جنود العدو في اليوم الأول باستخدام طلقات بنادقهم التي لم تؤثر علينا مطلقًا، إذ يبدو أن قائد جيش العدو كان حذرًا من إشراك كل أفراد جيشه في الحرب ضدنا، إنما في اليوم الخامس من الحصار. بدأت مدفعية العدو التركي تقذفنا بقنابلها، وكنا لسوء الحظ غير قادرين على الرد بالطريقة نفسها، لأن عرب هذا الإقليم من الجزيرة العربية لا يمتلكون أبدًا مثل هذه المدافع، ولذا كنت أعاني مشقة جبر الثلمات التي يحدثها القصف المدفعي المهول من تلك الآلة المدمرة التي اخترعها أبناء جلدتك [1].

وفي يوم من الأيام وبينما كنت منهمكًا في قراءة القرآن في غرفة كنت أجهزها لنفسي سمعت فجأة صوتًا مروعًا فوق رأسي، فإذا بي أرى قطعة حديدية هائلة من المتفجرات تقع على بعد قدمين من المكان الذي كنت أجلس فيه، ثم تحدث انفجارًا مروعًا، ولكن الله حرسني وأنقذني، واستمر الترك في قذفنا بالقنابل.

تركت مكاني حالاً وذهبت إلى أحد المتاريس، كانت معنويات رجالي على غير ما يرام بل هي أقرب إلى التراجع، لذا وجدت لزامًا عليَّ استخدام كل سلطاتي لتثبيتهم على القيام بالواجب. وعلّمت اثنين من أفراد عائلتي على طريقة إبطال انفجار المتفجرات بسحب فتيل المتفجرة قبل أن تصل النار إلى البارود الذي يُحدث الانفجار. وتمكن هذان البدويان الموهوبان بشجاعة غير طبيعية من القيام بواجب وظيفتهما بإقدام فائق، ولكن بالرغم من إخلاصهما فقد انفجر كثير من القنابل التي جلبت خرابًا إضافيًا إلى قلعتي الضعيفة.

(١) الحديث موجه لـ تاميزيه.

بعد ظهر أحد الأيام، وبعد أن قاسينا أكثر من المعتاد من انفجار القنابل، جمعت رجالي وقلت لهم:

* أيها الأصدقاء، لقد وجدت طريقة تجنبنا أضرار هذه الآلة الجهنمية!!، والطريقة هي: اغلقوا منافذ مياه الأمطار في فناء القلعة.

قاموا بتنفيذ أوامري دون أن يسألوني عما أنوي عمله، وبعد إغلاق منافذ مياه الأمطار قلت لهم:

* اجلبوا الماء من البئر وأغرقوا به فناء القلعة.

وما أن حان وقت الظهر حتى أصبح كل الفناء مغطى بالماء بارتفاع ست بوصات، وفي أثناء قيامنا بهذا العمل كنا نسخر من قنابل حسن باشا.

احتار العدو في استحالة انفجار قنابله وبدأ يتساءل عن السبب. كان أحد جنودي حديث عهد بالزواج من امرأة شابة جميلة جدًّا تربطه بها علاقة حب قوية، وتمكن خلال الليل من الذهاب لزيارتها سرًّا، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، قبض عليه جنود مدفعية العدو بينما كان في طريقه إلى مكان عمله. وأحضر هذا الشاب أمام حسن باشا الذي أجبره على الإفضاء بمعلومات كثيرة عما في داخل القلعة بل كان أكثر ما شدّد عليه هو معرفة الاستراتيجية التي استخدمناها ضد القنابل، فأُجبر الشاب على الإفضاء بذلك السر.

اندهش القائد عندما سمع عن تلك الاستراتيجية التي انتهجناها، مما جعله يغير خطته كمحاولة أخيرة لإجبارنا على الاستسلام أو مهاجمة القلعة بالقوة.

كانت خطته هي أنه قام بحفر نفق من خارج أسوار القلعة، يمتد تحت الأرض حتى نقطة مركز فناء القلعة، ثم زرعه بالألغام المتفجرة،

حيث كان يريد نسف القلعة برمتها، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد لنا النجاة، حيث هطل مطر غزير غمرت مياهه النفق فأبطلت المياه مفعول المتفجرات، وقتل بعض الجنود الذين كانوا في النفق، فحمدنا الله على تلك المرحمة التي منّ الله بها علينا، وأمرت بسد فوهة النفق مما يلي داخل فناء القلعة.. بالأحجار.

تمكنّا خلال فترة الحصار من قتل الكثير من أعدائنا، وكنا نبني بالليل الثغرات التي أحدثتها قنابل المدافع في النهار، وكان الأتراك يأملون في توسيع تلك الثغرات حتى يتمكنوا من اقتحام القلعة للقضاء علينا جميعًا، إلا أنهم كانوا يستغربون من سرعة رقع تلك الثغرات.

وأخيرًا، وبعد العديد من المحاولات الفاشلة في السيطرة على القلعة بالقوة، استشاط حسن باشا غضبًا لعجز محولاته، فأرسل إليّ رسالة مع أحد فرسانه رُميت بالطريقة السابق شرحها نفسها. وكان مضمون الرسالة: «إذا لم تستسلم في الغد، فسأقوم بقطع كل أشجار نخيلك».

ان هذه الأشجار هي هبة الله لأرضنا القاحلة، وهي تحتاج إلى سنين طويلة من العناية الفائقة، فهل سأبقى متفرجًا وعدوي الحقير يقطع تلك الأشجار؟!. إن تلك الأشجار بالنسبة لي هي مصدر سعادتي الرئيسية وهويتي الوطنية، ومصدر رزقي، لكن ومع معرفتي بأنني سأحرم منها، فلم يتغير موقفي قيد أنملة، وبقيت مخلصًا لواجبي كجندي.

رددت على حسن باشا بكل ثقة وقناعة بالجواب التالي: «لو كانت أشجار نخيلي مزروعة في فناء هذه القلعة لما تجرأت على قطع واحدة منها، ولكن طالما أنني غير قادر على عمل أي شيء من أجل حمايتها فإن إرادة الله هي الغالبة».

قام هذا البربري بتنفيذ تهديده، أما أنا، فقد صعدت إلى شرفة القلعة لكي أكون شاهدًا على هذا المنظر الهمجي. كنت أشاهد الأشجار والفؤوس تهوي عليها، ثم تأخذ في الانحناء وتسقط أخيرًا سقوطها الأبدي، وكنت أشاهد هذا المنظر فأحس بكل ضربة من ضربات تلك الآلة الفتاكة تسقط بكل ثقلها على قلبي.

قاربت ذخيرتي على النفاد بالإضافة إلى أنني فقدت كل الآمال في نجدة القبائل المجاورة، وبذلك أصبحت مضطرًا لوضع حد لهذه الحرب غير المثمرة، وقبول شروط الاستسلام المشرف التي كان حسن باشا يعرضها عليّ دائمًا. ولكن موقفي من هذا العدوان لن يحميني من الإساءة. إن كل واحد قد كرهني لأنني خسرت الحرب، ولكن لو كنت منتصرًا لمجّدني كل إنسان.

بعد قبولي لشروط الاستسلام، باشرت والألم يحز في النفس بغرس شتلات نخل جديدة على أنقاض الأشجار المدمرة السابق ذكرها، ذلك قبل مرافقتي لسيدي الجديد حسن باشا في حربه ضد عسير[1].

لم يسبق لي أن شعرت بـ «دونيّة» حياة القبائل المستقرة إلاّ أثناء مثل

(١) يُرجع إلى التقرير الذي قدمه حسن باشا عن محاصرته لعلي الصعيري، وهو التقرير الذي رفعه حسن باشا إلى سيده محمد علي باشا، والمحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول بتركيا. تحت رقم ١٩٦٩٧ ب وتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة، ١٢٣٢هـ.

ونذكر هنا، تقرير حسن باشا حاكم الحجاز إلى محمد علي باشا الذي يخبره فيه بالاستيلاء على المناطق الواقعة إلى جنوب الطائف. والتقرير طويل أُقتطف منه ما يخص بيشة.. موضوع حديثنا. وفي هذا التقرير مافيه من التحامل اللفظي.

«وقد قصدنا قرى (ثنية) في بيشة، وهي لـ «محمد بن عطيان» الذي كان على اتفاق مع [ابن] شكبان، وغيره من المشائخ وجمهور الخوارج.. على الحرب، ولكن حاقت بهم النكبة بغضب حضرة ملك الملوك ـ سبحانه ـ بقوة طالع بخت سلطان سلاطين العالم، فما كادوا =

هذه الحروب، فلو كنت بدويًا متنقلاً، لكنت طويت خيمتي ومتاعي على ظهر جملي وذهبت بعيدًا في الصحراء لتفصل بيني وبين الترك، لأننا عندما نرتبط إلى الأرض بقوة نقول: وداعًا أيتها الحرية!.

تمكن حسن باشا من فرض السيطرة على عسير وإجبار الناس على دفع الضرائب، ثم عاد إلى الحجاز. أما أنا فعدت إلى بيشة حيث استرحت بعد الإنهاك المضني وباشرت في إصلاح ما أفسدته الحروب في وطني. وقبل أن يصل حسن باشا إلى مكة، ثارت القبائل في منطقة عسير، وأعلنت استقلالها، ورفضت دفع الضرائب في السنة التالية.

هنا أصبحنا عصاة مرة أُخرى، حسب مصطلح الأتراك اللفظي،

= يرون جيش المسلمين مقبلاً نحوهم حتى تركوا قراهم وقصدوا بجموعهم قلعة «رقيطاء» لأبن شكبان. ومنها قصدنا قلعة (محلف) حيث علي الصعيري وجمع من كبار بيشة و ٨٠٠ من حملة السلاح فحاصرناها.

وإذا كانت المدافع والقنابل قد أحدثت فيها بعض الانهدام في أبنيتها فإننا وجدنا أن نلغمها من الأساس بينما كانت العساكر تتقدم إليها من كل الجهات فانسلبت منهم السلامة خلال ٣٣ يومًا من الحصار العنيد، وفي ذلك اليوم ارتفعت منهم الأصوات بالتماس الأمان الذي سمع من كل طرف. إنه وإن كان أولئك قد قالوا وفعلوا ما يغاير دين الإسلام كما هو معلوم ومشهور إلا أنني من مقتضى شيم الدين والدولة ومبتغى مسلك رضاء صاحب الملك والسلطنة لم أقو على قطع آمال أولئك الذين اتجهوا نحو باب المراحم السلطانية لالتماس الأمان، فاشترطت عليهم الرجوع عن القصائد الفاسدة، والتحول عن طاعة الخارجي، والدخول في صف العربان الطائعين بأن يكونوا مع عساكر السلطان أينما كانوا في محاربة الخوارج. وألزمتهم بأن يستغفروا عن حركاتهم الفاسدة غير المرضية، وجاء شيوخهم مع القادة الأولاء فأدوا العهد والميثاق على الطاعة السنية السلطانية، وخرجوا من القلعة وهم يتجاوزون الـ ٥ آلاف من الجياع، ودخلوا في حمى المعسكر السلطاني. وقد أرسلنا الطائعين منهم مع خيالة الشرفاء نحو ابن دهمان المنحوس، وهدمنا القلعة خلال ثلاثة أيام».

ولكن بالنسبة لنا لا نعتبره عصيانا، بل ثورة من أجل الحرية التي افتقدناها في ظل الحكم التركي.

إن هذا الحب الجامح للحرية يمكن أن يسبب لي الكثير من المشكلات مرة أخرى، حيث قام أحمد باشا. قائد حملتكم الحالية بقيادة حملة أعاد بها سلطات محمد عليّ على إقليمنا، وأُجبرتُ على مرافقته ضد عسير، حيث تمكن من إخضاعها مرة أخرى، وبعدها عاد مسرعًا إلى الحجاز حينما تلقى أمرًا بتعيينه واليًا للحجاز من قبل محمد علي.[1].

خلال هذه الحملة لاحظ أحمد باشا أنه يمكن الاستفادة مني لما بدا له من إخلاصي وصدقي، ومنذ ذلك الوقت ربطتنا صداقة قوية.. بدأت تتغير خلال هذه الأيام القليلة الماضية.

كانت الحامية التركية التي تُركت في عسير قد عاملت السكان بكل ازدراء، وعمّ ظلم الأتراك، ومارسوا طريقتهم العثمانية في ممارسة العدل العثماني بالكرابيج، متناسين أن هذه الطريقة لا تصلح للممارسة على قبائل مستقلة فخورة بمثلها، وإن مثل هذا التصرف يتعارض مع قوانين السياسة العاقلة المتنورة.

ومما زاد في سخط الناس واستيائهم بالإضافة إلى ما سبق ذكره من المظالم أن سلط الله عذابه انتقامًا من الظالم، حيث عم الجفاف والحرارة البلاد مما دعا الناس إلى الاعتقاد بأن ذلك عقوبة من السماء بسبب الجرائم التي اقترفها الأتراك، والتي لا يعرفون غيرها حيث يجرون ظلمهم أينما حلّوا.

(١) تولى أحمد بك ولاية الحجاز في عام ١٢٣٥هـ. حالاً محل أخيه خليل باشا الذي توفي في العام نفسه ولم يمنح لقب الباشوية إلا فيما بعد.

ما الذي يتوقعه أي إنسان كرد فعل لتصرفات وطريقة حكم التركي المستبد؟!. طبعًا هو قيام ثورة تنهي الوجود التركي وتخرج جنود احتلاله بطريقة مخجلة من مراكزهم.

يتزعم هذه الحركة علي[1] وسعيد[2]. الأول، وكما تعرف كسب شهرة عظيمة بين القبائل، أما الثاني فإنه أقل شهرة من الأول، ولكنه يُشبهه في الذكاء والحكمة. ولما علم أحمد باشا بهذه الثورة قرر القيام بحملة جديدة، وقام قائدا الثورة علي وسعيد وكانا يشتركان في السلطة بإعداد جيش لمجابهة الترك. وقد انضممتُ إلى جانبهما طبعًا، لأنني لو لم أفعل ذلك عن طيب خاطر، فسأنضم إليهما بالطريقة الأخرى وهي الإكراه.

كانت هذه الحملة في غير صالح العثمانيين تمامًا، حيث تمكن العسيريون من حصرهم في وادٍ تحيط به الجبال من كل جانب، وأجبروهم على الاستسلام.

وكان رأي سعيد أن يقضي على جميع أفراد الحملة كليّة حتى لا يتمكنوا من العودة مرة أخرى، ولكن عليًّا - لا عتبارات إنسانية - لم يوافق على مشروع سعيد مطلقًا، وإنما اشترط أن تتخلى الحملة عن سلاحها وذخائرها وأمتعتها، وتعود من حيث أتت سالمة، وعاد العدو يجر أذيال

(١) عليّ - هو عليّ بن مجثل الذي ورد ذكره في أكثر من مكان في هذا الكتاب.

(٢) هو سعيد بن مسلط من زعماء عسير المرموقين، وهو مشهور بجهاده من أجل حرية بلاده من التسلط التركي المصري. قام بالثورة ضد حكم محمد علي باشا في عام ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م. ونجح في تحرير عسير، وتولى مقاليد السلطة فيها، واستمر في التصدي لمحاولات محمد علي المتكررة لإخضاع عسير إلى حين وفاته في ١١ ربيع الأول ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م حيث خلفه في حكم البلاد ابن عمه ورفيق دربه في الكفاح من أجل استقلال بلاده الأمير علي بن مجثل.

الخنبية حيث كان الجنود يتضوّرون جوعًا وهم في طريقهم إلى القنفذة، حيث لم يجدوا شيئًا يأكلونه إلا الحشائش، ولا يزال البدو يستخدمون خيام الترك الخضراء الجميلة التي غنموها سلمًا من جنود الباشا.

أما بالنسبة لمنطقة بيشة فقد سار إليها سليم بك ليعوّض فشل حملة أحمد باشا. كان هذا التركي - يعني سليم بك - يحمل لقب قائمقام، وكان رئيسًا للفرقة الثانية من الجيش النظامي «الأحمر». وكانت بربرية هذا الضابط قد جعلته مشهورًا في بلادنا، حيث إن أي إنسان يُقدَّم إليه لأدنى شك، يحكم عليه بالإعدام بطريقة بربرية تسمى «الخازوق». إنني شخصيًا أوشكت على أن أعدم بتلك الطريقة الفاضحة والقاسية. وكان البدو يعرفون هذا الضابط باسم «أبو خازوق».

وصلت حملة سليم بك إلى بيشة دون مقاومة جادة من قبل العرب. قام بعض الناس بإبلاغ أعدائي أخبارًا كاذبة عن صفتي الشخصية، لأن حضوري سيعتبر تدخلاً في مشروعاتهم (١)، فصوروني لدى سليم بك بأنني مصدر المشكلات، وإنني محب للخصام، وإنني قبل كل شيء.. المحرك لكل الثورات التي حدثت في الماضي.

في ذلك الوقت اختفى ختمي، ولم أستطع العثور عليه، ووقع في أيدي مجهولين يرغبون في تدميري، حيث راحوا يكتبون الخطابات ويختمونها بختمي، ويبعثون بها لسليم بك، وكأني أنا الذي كتبتها، بينما كنت بريئًا، ولم تتغير صداقتي وإخلاصي لأحمد باشا. وكنت قد أثبت

(١) الفكرة هنا غامضة، ولعل التفسير الوحيد لها أن البعض من قادة بيشة كانوا يرغبون في تجنب الحرب مع الأتراك، وأن «عليًا» يمكن أن يكون هو الوحيد المؤيد للعسيريين، ويرى أن قادة بيشة من أعدائه الشخصيين!!. (ملاحظة المترجم).

صداقتي وإخلاصي أكثر من مرة، ولكن يبدو أن هناك كثيرين يقفون ضدي. حتى أولئك الذين يتظاهرون بصداقتهم لي، كانوا يبذلون كل جهودهم من أجل تشويه سمعتي والتشكيك في حسن نواياي لدى القائمقام سليم بك.

قلت للراوية الشيخ علي الصعيري:

● إنني سمعت أن البدو حينما يكتبون إلى بعضهم لا يختمون خطاباتهم مطلقًا.

أجابني الشيخ علي:

■ ما قلته هو الصحيح. إن عرب الداخل في الجزيرة يكتفون بوضع أسمائهم في نهاية الخطاب، ولكن في النادر ما يقومون بتوقيع خطاباتهم.

● إذن، كيف نستطيع أن نعرف المرسل الحقيقي للخطاب؟!

■ يعرف المرسل الحقيقي للخطاب من خلال حامل الرسالة الذي يؤكد وصولها، ويؤكد جهة إرسالها.

● أنت تعرف أن هذه الطريقة لها خطورتها، حيث يستطيع العربي صاحب النوايا السيئة أن يستخدم اسم شخص له مكانة رفيعة، ويلحق به الأذى، ويدمر سمعته.

■ هذا صحيح. ولكن هذا النوع من العمل يتنافى مع أخلاقنا وقيمنا، والذي يجرؤ ويقدم على عمل من هذا القبيل سيجر على نفسه العيب والعار أمام كل الناس.

● إذن، أنت ضحيت بنفسك بدفاعك عن عاداتكم وقيمكم.

■ حادثة ختمي هي الحادثة الوحيدة من نوعها، وأستطيع أن أؤكد لك بأن ذاكرة الإنسان لم تعِ قصةً من هذا النوع تسيء إلى علاقة الثقة

عنـد العـرب [١]. وهناك شيء يجب أن تفهمه وهو أن استعمال الأختام ظاهرة غير معروفة كثيراً لدينا، إلا أن شيوخ القبائل المستقلة لهم الحق في إستخدامها. إن حق استعمال الختم في الأقاليم التي يوجد بها قبائل كثيرة متحدة تحت سلطة واحدة، ممنوح للشيخ الكبير فقط، وبناء عليه فالذي له حق استعـمال الختم في منطقة عسير كلها هو الأمير عايض بن مرعي حاكم عسير. أما في المدن العربية مثل مكة والمدينة وجدة والتي لسكانها علاقات مباشرة مع العثمانيين، وحيث يعم تبادل الخطابات، فقد أصبح من حق أي مواطن أن يمتلك ختمًا. إن طريقتنا في عدم ختم الرسائل أو توقيعها كان لها منفعة عظيمة أثناء الحروب، لأن الرسائل التي كان يتبادلها الرؤساء المضادون لحكم محمد علي، كان منها ما عقوبةُ كاتبها القتل حين يتحقق أعـداؤنـا من هويتـه، بالإضـافة إلى أن الرسائل لا تحمل أسماء مرسليها مما جعل العدو لا يستطيع التثبت من هوية المرسل إلا من خيانة يرتكبها حامل البريد، وهي تعد جريمة عظيمة من النادر جدًا حدوثها بيننا.

بعـد هذا الانحـراف عن المـوضـوع الأول، نعـود مع الشيخ علي الصعيري حيث يروي لنا قصته مع سليم بك:

«بالغت الأطراف المتعددة في إيصال المعلومات المغلوطة والمفتراة عليّ، حتى أصبح سليم بك مقتنعًا بأنني مجرم، بما يدّعيه أعدائي الذي يرومون موتي. لذلك أصدر أبو خازوق حكمه عليّ وهو التعذيب بالخازوق حتى الموت.

---

(١) تأكيد الشيخ علي الصعيري على قضية الثقة عند العربي قضية صحيحة، لأنني منذ تلك الفترة غالبًا ما استقيت معلومات من البدو، وكلهم اقتبسوا مثال علي الصعيري كحادثة فريدة وحقيقة مروعة. (ملاحظة المؤلف).

كان يوجد مملوك من السودان، وكان مستخدمًا عندي قبل أن يُصبح مستخدمًا عند القائمقام (سليم بك)، وهذا المستخدم لم يقطع صلته بي. كان يقوم بعمل القهوة في مقر سليم بك حينما أصدر ذلك القرار ضدي، فسارع هذا المملوك بأخباري سرًا، وكنت أتوقع مثل هذا القرار إلا أنني لم أفكر في اتخاذ خطة مضادة مع أنه كان لدي متسع من الوقت.

في اليوم التالي، حوالي الساعة الخامسة قبل الظهر [١]، جاء المملوك منهوك القـوى من الـركض ليخبرني بوجوب الهرب، قائلاً: «أهرب يا سيدي.. أهرب ياسيدي».. الناس المكلفون بأمر القبض عليك قادمون في طريقهم إليك».

لم تجعلني نصيحة المملوك أغير ما توصلت إليه من قرار. وعندما حان وقت صلاة الظهر قمت وتوضأت وشرعت في الصلاة واقفًا بين يدي الله، فإذا بثلّة مسلحة من الرجال قد طوّقت منزلي، وتقدم أمامي عسكري برتبة شاويش، في الوقت الذي ارتفعت أصوات زوجتي وبناتي بالبكاء والصراخ.

احـترم مبعوثو (أبو خازوق) قدسية الموقف، لذا وقفوا بالقرب من الباب ينتظرون فراغي من الصلاة. وعندما فرغت سألتهم:

- ماذا تريدون؟!
- تنفيذًا لإرادة سيدنا سليم بك، عليك بمرافقتنا إلى خيمته.
- هل كان من الضروري أن يحضر كل هؤلاء الـرجـال لإحضار شخص واحد؟
- هذه هي الطريقة التي أرادها سيدنا.

---

(١) يبدو أنه توقيت زوالي أي التوقيت العربي.

قبل مغادرتي لمنزلي، قام الجنود بتكبيلي بالحديد، ووصلت إلى القائمقام على هذه الصورة. فاستقبلني التركي قائلاً:

● لابد أن ضميرك أخبرك لماذا أنت أمامي بهذه الصورة؟!

أجبت:

■ إن ضميري لا يلحق بك أي لوم، ولكن ليس لدي المقدرة للدفاع عن نفسي، وأنا عارف ماذا أتوقعه من رجل مثلك، فالنمر لا يترك فريسته تفلت منه حينما يقبض عليها.

سمعت خارج الخيمة أصوات قطع الأخشاب بالبلطات والفؤوس التي كان يحضرها منفذ الإعدام. بينما أحد الجنود يسن أو يُحِد الموسى القاطعة الفتاكة، والجنود المصريون دائمًا قادرون على مشاهدة هذه المواقف التي اعتادوا على رؤيتها. بل يرون فيها متعة لأنفسهم لتحريك العواطف المثيرة وخلق جو من السخرية حول هذا العمل المشين الذي تتقزّز منه النفوس، والذي يسارعون في إعداده لمصيري.

جعلتني هذه الاستعدادات لهذه العقوبة البربرية أرتجف مخاطبًا (سليم بك) وقائلاً له:

● أناشدك بالله العظيم أن تمنحني شرف الموت بطريقة شريفة لرجل شريف، وهو أن تعدمني بالسيف.

قال سليم باشا:

■ هل أنت عجل إذن في طلب مفارقة الحياة؟!

● إذا كان مصيري الموت فدعنا نقدم عليه بالطريقة المثلى، ولكن الذي يبدو لي أنه لا يحق لك أن تحكم على رجل مثلي بالإعدام وتقوم بتنفيذه دون أن تحصل على إذن بذلك من رئيسك، لذلك أرجوك أن تكتب إلى أحمد باشا (حاكم الحجاز) وتسأله رأيه في مصيري.

إن الذي حدث في تلك اللحظة هو أحد أمرين: إما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنقذني كما ينقذني دائمًا، وإما أن سليم بك شك في صحة أقوال أعدائي، لذا أمر بوضعي في السجن وتأخير تنفيذ عقوبة التعذيب.

وجاء رد أحمد باشا الذي بعثه بالبريد المستعجل منقذًا لحياتي. ولما يعرفه من طباع ذلك الضابط الغريبة، فقد طلب منه أن يعتبرني واحدًا من أكثر الرجال إخلاصًا في خدمة محمد علي. هذا القائد ـ أحمد باشا ـ لم يكن يغدر بأصدقائه مطلقًا، وكان كثير الشفقة على المظلومين.

بعد ذلك، أرسل سليم بك أحد ضباطه ليطلق سراحي، وفكّرت بكل تأكيد أن وقت تعذيبي قد دنا.

لا شيء يستطيع أن يُعبّر عن فرحي عندما شعرت وبكل تأكيد أنني سأصبح حرًا طليقًا. ومنذ ذلك الوقت اقتنع سليم بك بنزاهتي، وربط معي صداقة قوية، وما زلت حتى اليوم أحمل ذكريات تلك الأيام وذلك الرجل.

وقررت التضحية من أجل منقذ حياتي، لذلك شاركت في الحملة التي قادها أحمد باشا ضد عسير والتي انتهت بالهزيمة، وكاد يُقضي عليها كليّة لولا روابط المعرفة بيني وبين قادة الثورة في عسير (علي وسعيد)، حيث سعيت يشاركني عدد من شيوخ القبائل بالتوسط لتوقيع معاهدة سلام تضمنت سلامة الجيش المصري. وهكذا بإنقاذ حياة رجل بريء استطاع أن ينقذ حياة عدة آلاف من الرجال.

منذ تلك الفترة الصعبة، عانيت من المآسي كثيرًا، فقد قام قادة الثورة في عسير بتأديب قبائلنا لمشاركتها في الحرب ضدهم، وفرضوا علينا غرامات تدفع بالقوة، وفرضوا على بيشة حاكمًا عسيريًا يدعى (ابن دهمان)، حيث

حكمها بيد من حديد، وقد استمر حتى سمع بوصول حملتكم هذه إلى رنية، حيث انسحب وعاد إلى بلاد عسير يرافقه الشيخ الفوي. . أحد شيوخ بيشة الذي لجأ إلى عسير لأنه يخشى سطوة الترك.

لقد لاحقتني الآلام والمصائب المقدرة عليّ منذ أيام الصبا إلى هذه المرحلة المتأخرة من العمر، وهاهي تعود لتهوي عليّ.

طلب مني الباشا تحضير عدد كبير من الجمال لنقل معدات الحملة، وفرض عليّ كميّة كبيرة جدًا من التمر طعامًا للجنود. وما فرض عليّ من التمر وغيره من المؤمن سلمته في اليوم المحدد، ولكنّ تأخيري في جمع الجمال اعتبر خيانة، بينما هي مشكلة تعود إلى شيوخ القبائل التي تمتلك الإبل. ولإلحاق العقوبة بي أرسل فرقة من عساكره مسلحين بالفؤوس ليقطعوا ما أمكن من أشجار النخيل للمرة الثانية. ومن حسن حظي أنه تدخّل الشريف الكبير وطلب لي مهلة من القائد لمدة أربعة أيام. وأخيرًا أصدر القائد أمره البارحة بخلعي من جميع صلاحياتي كشيخ بدون معرفتي للسبب، وأخبرتُ أن الشريف محمد بن عون حل محلي.

حينما انتهى الشيخ عليّ الصعيري من قص الحوادث والظروف التي واجهها في حياته، تراجع شارد الذهن مهمومًا. قال إنه عائد إلى بيته لإكمال تحضير أغراضه لمرافقة الحملة. ولهذا الشيخ ولد يبلغ التاسعة عشر من العمر، فهل يا ترى سيصبح صادقًا مثل أبيه وأكثر حظًا منه بالسعادة. هذا الشاب العربي يتوقع منه أمل كبير.

١ أغسطس ١٨٣٤م

كان الصباح على وشك أن ينبلج عندما أمرت (سائس الخيل) أن يعد حصاني حيث عزمت على الذهاب مع م. م. شديفو وقاتي، لزيارة قلعة بيشة التي اكتسبت شهرة عظيمة في هذا الجزء من الجزيرة العربية وخاصة أثناء مقاومة علي الصعيري العظيمة للأتراك [1].

سلكنا طريقًا تحفّ به جدران الحدائق. استغرقت منا المسافة حوالي خمس عشرة دقيقة. وصلنا إلى مكان القلعة التي تعتبر بدون جدال من أجمل القلاع التي شاهدناها منذ مغادرتنا الطائف. وهي تقع على تل منخفض على مقربة من صف من أشجار النخيل المحاذية للوادي [2]، وتقع - أيضًا - على بعد ميل ونصف من قرية (الروشن الكبير). ويوجد في المنطقة المحيطة بها قرى كثيرة، حيث يوجد بها مزارعون نشيطون يعملون في المزارع التي تغطيها أشجار النخيل. وشكل القلعة دائري، وليس لها أبواب كتلك القلاع التي شاهدناها في التنية [3]. وقد ذكرت من قبل أن

---

(١) يعرفونها العرب باسم قلعة بيشة (المؤلف).

(٢) الضفة اليمنى للمجرى (المؤلف).

(٣) كتبها السيد جومارد تانيه أوتوكنيه. انظر عمله الأخير بعنوان: «دراسات في تاريخ وجغرافية» الجزيرة العربية ملحقاً به خارطة لعسير وأخرى شاملة لجزيرة العرب. مع ملاحظات على تطورات الأوضاع في الجزيرة العربية ومصر، كتبها م جومارد عضو الأكاديمية الفرنسية طبع في باريس ٨٠ فيرمان ديملوت وأبناؤه. (المؤلف).

الصعود إلى ذلك النوع من القلاع يتم بواسطة الحبال. أما الجدران الخارجية فإنها مبنية من الطين، وسُمك الحائط سبعة أقدام، وارتفاعه عشرون قدمًا، يليه من الداخل جدار آخر بعرض الجدار الأول ويتوازى معه. ويلي هذين الحائطين ممر بشكل دائري يتوازى مع الحائطين السابقين، ومسقوف بجذوع أشجار النخيل، ومغطى باللّبن، حيث يرابط المحاصرون في هذا الممر. وللقلعة أبراج إسطوانية الشكل لها (مضارب) تمكنهم من ضرب أعدائهم دون أن يعرضوا أنفسهم لرصاص الأعداء من الخارج. ولها طابق ثان مسقوف ليحمي المحاربين من تغيرات الطقس. وكل الحيطان مبنية بعناية، والأكثر من ذلك أنها محمية بأبراج في الأركان وفي الوسط، وهذه الأبراج مبنية بشكل نصف دائري. أما وسط القلعة فإنه يتكون من فناء مساحته ثمانون قدمًا مربعة في كل الاتجاهات حيث يمكن رؤية كل أجزاء القلعة من أي مكان في هذا الفناء. وتحذير الحائط الخارجي ٤٨٠ قدمًا، حيث إن مساحة الحائط الداخلي تبلغ (٦٤٠٠) قدم مربعة، أما المساحة الإجمالية للمكان المقامة عليه القلعة فهي (١٤,٤٠٠) قدم مربعة، ويوجد في القلعة بئر في أحد الأركان تمدها بالماء الكافي.

هذا البناء، أصبح اليوم خرابًا لا يعبّر إلا عن وقت مضى من الأوقات. وكل ما يمتّ للحروب الماضية بصلة قد هجر، فالحيطان والأوتاد والمعاليق التي كان يعلق عليها المحاربون أسلحتهم أصبحت معاليق للأدوات الزراعية. أصبح المحراث يُعلّق مكان السيف، والفناء الذي كانت تدوسه أقدام المحاربين أصبح الآن مغطى بالأوساخ، وأصبحت الأراضي القريبة من أسوار القلعة مزروعة بأشجار العنب ونباتات القطن. وهذه التغيرات أصبحت تلقى الترحيب من أولئك الراغبين والمتطلعين إلى مستقبل يخيم عليه السلام.

إنه سيكون عملاً عظيمًا لو تغيرت أوضاع القلاع العسكرية في جميع أنحاء العالم إلى الطريقة التي تغيرت بها قلعة بيشة.

في طريق عودتنا إلى المعسكر، سلكنا الطريق المتعرج تحت ظلال النخيل. وقاربت ساعة الزيارة في المستشفى بالنسبة للأطباء[1]، حيث اضطروا للذهاب قبلي.

من المعروف أن العرب يفضّلون التالاريز «الريالات الفرنسية». ولدى كل منهم رغبة في جمع أكبر مقدار من هذه العملة ، حيث إن العرب لا يثقون إلا في هذا النوع من العملة أو في القروش القديمة الاستانبولية. إنهم يشمئزون من ذلك النقد المختوم في الركن بختم محمد علي، لأنهم يعرفون أن مكانته رديئة، ولا يقبلونه إلا خوفًا، وبسبب وجود الجيش لا يترددون في قبول القروش المصرية، ولكنهم يسارعون في تغييرها بأسرع وقت ممكن إلى «التالاريز». الريالات الفرنسية، إذا توافر لديهم العدد الكافي. أما الذهب فإنهم يقبلونه تحت أي ظرف.

أثناء مروري بإحدى أشجار النخيل، اقتربت مني أعرابية وطلبت مني تغيير ما تملك من القروش إلى تالاريز. ووافقتُ بكل سرور. ناولتني كومة من (الفراطة) الفكّة متأكدة أنه لن يكون لديّ الوقت الكافي لعدّها، ولكن تفاديًا من استغفال تلك المرأة لي ناولت صرة القروش لمرافقي لعدّها فوجدها خمسة عشر قرشًا بدلاً من عشرين حسب صرف العملة، ولكونها لم تستطع إيفاء العشرين قرشًا فقد تركتها ناخسًا حصاني للمسير، فأوقفتني

(١) م. م. شديفو وزميله قاتي، دكتوران يعملان لحساب جيش محمد علي، جنسية الأولى فرنسي والثاني إيطالي. (المترجم).

منادية عارضة خمسة عشر قرشًا نقدًا مقابل الباقي وهو خمسة قروش تمرًا، فوافقتُ، وبعدها أحضرت كمية كبيرة من (الفراطة) تطلب بدلها تالاريز، أخذت من السائس دقائق لعدها، ومرة أخرى وجدناها ناقصة، وأدركتْ أنه من المستحيل أن تخدعني فذهبتْ إلى القرية تجمع البارات لتغييرها، ولم يحدث غلط في هذه المرة.

وفي طريق عودتي وقفت بالقرب من ساقية مغطاة بظل أشجار الصفصاف وأشجار النخيل، بينما كان أعرابي مشغولاً بجلب الماء من البئر بالطريقة التي سبق شرحها عند الحديث عن الطائف. كانت واحدة من الأبقار التي يستخدمها لها سنام [١] ضخم فوق أكتافها، ولاحظ الأعرابي رغبتي في حب الاستطلاع عن هذه الظاهرة، فبادرني بالسؤال عما إذا كنت أعرف السبب الأساسي لهذا النتوء. أي وجود «دربة» لهذا الثور أو البقرة فأخبرني بعد أن كان جوابي لسؤاله نفيًا، قائلاً: «حينما خرج النبي محمد، ﷺ، من مكة خرج وحيدًا [٢] في طريقه إلى المدينة. وعندما وصل إلى وادي الصفراء [٣] كان قد أصابه تعب شديد، وأصبح غير قادر على المشي على الأقدام أكثر مما فعل، فجلس تحت شجرة يرجو الرحمة من السماء، وإذا ببقرة تمر بالقرب منه ثم تقف بجانبه وكأنها تعرض خدماتها عليه، وإذا بالنبي يطلب منها أن تنقذه بأن تحمله بقية المسافة. فكان جواب البقرة:

● أن ما تطلبه مني يشبه المستحيل، حيث كما تعرف لم أتعود حمل الأثقال على ظهري كان جواب النبي لها:

---

(١) تقول العرب: سنام البعير ودربة الثور.

(٢) كان أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ يرافق النبي ،ﷺ، وإنما هذه حكاية أعرابي إما أنه اصطنعها للتسلية مع هذا الأجنبي، أو أنه جاهل صدّق الخرافة التي يرويها (المترجم).

(٣) وادي مشهور بالقرب من المدينة المنورة.

■ لا تخافي، وافقي على ما طلبته منك واتركي الباقي عليّ.

● إنني تحت خدمتك.

■ وتابع البدوي:

امتطي رسول الله ظهر البقرة فنبت لها هذا السنام الذي يشبه السرج فوق كتفيها، حتى وصل إلى المدينة، ومنذ ذلك التاريخ وأبقار الجزيرة العربية تمتاز بهذه الميزة الخاصة التي تنفرد بها عن بقية أبقار العالم.

ويبدو أن الأعراب والناس في الشرق بصفة عامة يفسرون الظواهر غير الطبيعية تفسيراً دينيًا. بالإضافة إلى أن ما قاله الأعرابي من أن بقر الجزيرة العربية ينفرد بهذه الظاهرة غير صحيح، حيث أعرف أن بقر الحبشة يشبه بقر الجزيرة تمامًا، ولعل هناك ما يشبه أبقار الجزيرة في أقاليم أخرى من العالم.

الفصل التاسع

بدويان من قبيلة دوسري أبونقطة ـ أخبار عن عسير ـ خرافة ـ عودة الشريف منصور ـ رحيل البدو المناصرين ـ سفراء قبيلة يام ـ تفاصيل تاريخية ـ عرض للتعاون ـ سلطان بن عبده ـ رفيدي شيخ بللسمر ـ غرامة مبعوث بني شهر ـ جنود منشقين ـ عرب ـ مصريين ـ ساعات المشي ـ ارتفاع درجات الحرارة في بيشة ـ الرحيل من بيشة ـ الطريق ـ واحة «بيلة» Billa ـ مروة ـ الوصول إلى الحيفة ـ محمد بك ـ أحمد باشا ـ حسن باشا ـ جمال بيشة ـ أربع نساء عجائز ـ مبعوثون من بني شهر ـ أخبار عن عسير ـ درجة الحرارة .

الفصل التاسع

١ أغسطس (أيضًا) ١٨٣٤م - جولة في بيشة

قدم إلى المعسكر رجلان من قبيلة دوسري (أبو نقطة)، لزيارة رئيسهم القديم، وبناء على تقريرهما وهو أن جميع رجال القبيلة ينتظرون لحظة وصول الباشا إلى عسير ليعلنوا انضمامهم إلى جانب قواته، سأل دوسري الوافدين:

● هل أصدقاء (أبو نقطة) الأب، مسرورين من أن ابنه سيتولى القيادة؟!

فكان جوابهما:

■ إن ذكرى والدك مازالت حية تعيش معنا، ولكن أبناء وطننا سينظرون إليك بألم إذا أصبحت حاكمًا من قبل الترك.

سأل دوسري:

● بالإضافة إلى هذه الحقيقة، هل لديهم اعتبارات أخرى تخصني؟!

قال أحدهما:

■ أخبرني سفير الأمير عايض.. المدعو هندي الذي شاهدك بالطائف رأيه الجيد فيك، ولكنه يعتقد أنك تدخن (النارجيلة).

أجاب دوسري:

● هذا صحيح.

- ما أرى صعوبة في تصديق هذا، لأنني رأيت عدة نارجيلات في خيمتك، هل تعرف أن الدعوة (الوهابية!!) قد بذرت لها بذورًا قوية في عسير، وسيكون وضعك أفضل إذا عدلت عن هذه العادة؟

● ماذا كان انطباع هندي عن جيش الحملة؟!

■ قال في اجتماع الرؤساء: «إن جيش الباشا قوي، فإذا كان في نيتكم تجنب الهزيمة فاعملوا الاحتياطات للدفاع عن أنفسكم من الآن. وإذا كان لديكم الرغبة في المقاومة فمن الأفضل البحث عن حل سلمي وسط.

استدعى الأمير عايض بن مرعي كبار شيوخ عسير، وعقد مجلسًا عامًّا أخبرهم فيه ما نصه: «إن الجيش الذي يرغب في حربنا ويدعي قادته أنهم قادرون على إخضاعنا، ماهو إلا عبارة عن شلّة من الجنود السيئين وتعساء التكارنة [(١)]، جُمعوا ثم انضموا بالإكراه إلى مكة في موسم الحج.

بعد هذه الكلمة أجابوا كلهم بالإجماع: «سنحارب». بعد ذلك عاد الأمير عايض إلى الحديث مرة أخرى، حيث قال لهم: «إنني أعرف أن رأيكم حتى الآن لم يستقر بعد، ومن الممكن أنكم ستغدرون بي فيما بعد، ولكن الذي أحب أن أذكركم به هو أنني سأحارب حتى ولو لم يبق معي منكم أحد، وأقل ما أجنيه هو أن أموت بشرف».

كان يعسكر جزء من القوة العسيرية في مناظر [(٢)]، والبقية تعسكر على حدود بلاد بني مالك [(٣)]. وقد وصلت أخبار هجوم الباشا على منطقة

---

(١) المتخلفون من حجاج البلدان الإفريقية وخاصة القادمون من منطقة تكرور.

(٢) قلعة أبها العسكرية في أوائل عهد الأمير عايض بن مرعي وأقدم وأهم أحياء مدينة أبها إلى وقت قريب، وقد أزيل هذا الحي بكامله وتحول مكانه إلى أسواق حديثة ومبان حكومية.

(٣) بني مالك، إحدى قبائل عسير الأربع وتقع منازلها في الشمال الشرقي عن مدينة أبها بحوالي عشرة كيلو مترات تقريبًا ويحدها من الشرق بلاد قبيلة شهران ومن الشمال بللحمر، ومن الغرب علكم وربيعة ورفيدة، ومن الجنوب بني مغيد وعلكم. (المترجم).

المروة، ورجوع الباشا إلى بيشة، نقلها بعض البدو الفارين من تلك المنطقة إلى عسير. لقد استغل الأمير عايض هذه الأخبار في صالحه، حيث قام بنشر إشاعة مُفَادها أن الباشا عاد بجيشه إلى مكة، بعد أن قرّر إبطال خطته في غزو عسير، معتقدًا - أي الأمير عايض - بأن الناس ستكون أحوالهم أكثر تحسنًا في مثل هذه الظروف.

قام دوسري بتقديم الوافديْن إلى ديوان الباشا حيث سألهم الباشا السؤال التالي:

● ما هي القوة التي أعدها شعب عسير ضدي؟! وكيف حالتهم المعنوية؟!

أجاب الموفدان:

■ إنهم خائفون من مواجهة جيش منظم، مدَّرب، هذا بالنسبة لمعنوياتهم، أما بالنسبة لقوتهم فلا نستطيع أن نحدّدها. تستطيع عسير وحدها تجهيز خمسة آلاف رجل من جيش الأمير عايض، ولكن لا تستطيع الاعتماد على القبائل التي كانت منضوية تحت راية الأمير عليّ، لأن هذه القبائل أصبحت مستقلة بأمورها، وبالتالي أصبحت على خلاف مع قادتها الأُوَل، ولكنهم في الوقت نفسه لا يرضون بالسيطرة التركية، لذلك لا نستطيع التنبؤ إلى أي معسكر ستنضم هذه القبائل.

● هل تعتقدان أن جيشي سيكون قادرًا على حسم الحرب في مصلحته ضد العدو؟!

■ وأجاب أحدهما قائلًا: بالتأكيد. ولكنه استخدم مصطلحًا مجازيًّا لم أستطع لسوء الحظ لأنني أوربي، أن أفهمه حتى أقوم بتدوينه.

قال الباشا:

● أكد لي جواسيسي بأن قوة عايض لا يُستهان بها.

■ جاء الرد من ذلك العربي نفسه الذي أجاب على السؤال السابق مستخدمًا الأسلوب الاصطلاحي المجازي نفسه، ولكن لم يمنعني شيء هذه المرة من فهم جوابه وتدوينه حسب ما رواه لي السيد شديفو رئيس الأطباء الذي كان حاضرًا أثناء تلك المحادثات.

وكان الجواب كما يلي:

«في يوم من الأيام رأى أسد جائع حمارًا فأراد أن يأكله، ولما صار على مقربة منه رفع الحمار في الحال أذنيه الطويلتين وركزهما إلى الأمام مثل القرون، ولما شاهده الأسد في ذلك المنظر خاف من هذا الحيوان الذي يبدو غير مألوف لديه، وكان الأسد على وشك الهروب حينما أخبره أحد المارة قائلًا له: أوه. ملك الحيوانات، هل رأيت ذلك العدو الذي أخافك إنه لا شيء يُخشى منه، والذي يبدو لك بأنه قرون ليس إلَّا زوجين من الأذان..».

بعد سماع هذا الكلام تقدم الأسد إلى الحمار - الذي كان على وشك الذهاب ظانًا أنه قد أخاف الأسد - وقفز عليه وأكله. ستكون قصة جيشك أيها الباشا والعسيريين مشابهة لهذه القصة. جيشك سيتمكن من القضاء على العسيريين، والذي يبدو أنه قوي للناظر من بعيد ليس إلا عبارة عن شبح من قريب.

وصل اليوم إلى المعسكر الشريف منصور الذي كان يقوم بزيارة لكل القبائل المجاورة لبيشة لجمع المزيد من الجمال والطعام، والتجهيزات لتحركات الجيش على قدم وساق، ووقت المغادرة أصبح وشيكًا في الوقت الذي تحرك في هذا اليوم جزء من الجيش يتكون من جيش المغاربة، وفرقة الخيالة التي يقودها عابدين بك ومحمد بك.

٢ أغسطس ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

في هذا اليوم، وبعد دقائق قليلة من طلوع الشمس، استعد الأعراب الذين يتكون منهم جيش الشريف منصور وغيرهم من الأعراب - سواء أولئك الذين انضموا إلى الحملة في العقيق أو أولئك الذين انضموا إليها أثناء وجودنا في بيشة - للرحيل دون أن ينسوا ترديد أغانيهم مصحوبة برقصاتهم الشعبية. وقبل بدء مسيرتهم قاموا بإحراق العشش التي بنوها من سعف النخيل كمساكن لهم أثناء إقامتهم في بيشة.

لقد اعتاد العرب على ترك مالا يحتاجونه أثناء رحيلهم على شرط أن يكونوا في حالة صداقة مع القبائل المجاورة. أما إذا كانت علاقتهم على عكس ذلك فإنهم يحرقون كل بقاياهم، وهذا الإجراء نفسه وجدته مطبقًا فيما بعد في بلاد الحبشة.

في كل يوم كان هناك من يؤكد إننا سنتحرك في اليوم الذي يليه، إنما كانت القيادة لاتزال تنتظر المزيد من الجمال التي يحضر منها البدو في كل يوم ٤٠٠ إلى ٥٠٠ جمل، ولكنهم لا يحضرون إلا النوعيات الرديئة جدًا وعديمة القيمة، لأنهم يعتقدون بأن المجاعة وقلة المرعى ستقضيان على كل الجمال المرافقة للحملة.

كانت الجمال التي أحضرت حتى الآن عبارة عن هياكل عظيمة، بل أخذ الموت ينقص من عددها كل يوم، ومع ذلك فإننا إذا لم نتمكن من أخذ عسير قبل ٢٢ أغسطس فستتعرض لآلام المجاعة طالما أن مؤنتنا لا تكفي لأكثر من ذلك التاريخ.

{ ترددت أنباء عن تقدم قبائل حاشد وبكيل اليمنيتين باتجاه عسير لتحاربا إلى جانبنا ضد العدو المشترك. ويطلق على هذه القبائل - أيضًا -

اسم (يام) وتقع هذه القبائل القوية والكثيرة العدد في المناطق الممتدة ما بين عسير وصنعاء وتمتد إلى تهامة [١] .

(عندما غزا السلطان سليم جزيرة العرب، أصيب جيشه بوباء فتّاك على القرب من حدود قبيلة يام . حاول أعداء قبائل يام من القبائل اليمنية استغلال هذه الظروف السيئة للجيش التركي والقضاء عليه، إلاّ أن بدو قبائل يام انضموا إلى جانب الترك وأنقذوهم من الخطر المحدق بهم، وقاموا بحراسة الجيش التركي عند رجوعه إلى مكة سالمًا . ولكي يكافىء السلطان سليم قبائل يام على المساعدة التي قدموها لجيشه، فقد أصدر لهم قانونًا سلطانيًا خوّلهم بموجبه حق جمع الضرائب السنوية من القبائل المجاورة المذعنين للسلطة التركية . وحافظ اليامية على هذا القانون، وكانوا يرسلون كل سنة جيشًا من أربعة أو خمسة آلاف رجل لجمع تلك الضرائب .)

وعندما تولى الأمير علي بن مجثل إمارة عسير بعثت قبائل يام ـ المعتدة بقوتها والمعتمدة على حقها التاريخي بموجب ذلك الفرمان ـ بجيش ليجمع الضرائب كالمعتاد، إلاّ أن الأمير عليّ أعد لهم كمينًا في أحد المضائق ثم أمر بالهجوم عليهم حتى تمكن من إجبارهم على الهرب بعد أن ألحق بهم هزيمة ما حقه .

وبعد ذلك، تمكن الأمير عليّ من تنظيم كل القوى العسيرية تحت قيادته مكونة من جميع القبائل في المنطقة بما فيها قبائل يام نفسها .

وتحملت قبائل يام بكل مرارة قبول دفع الضرائب وغيرها من

---

(١) قبيلة يام هي القبيلة المشهورة التي تسكن منطقة نجران أما حاشد وبكيل فهما قبيلتان يمنيتان من أكبر وأشهر القبائل اليمنية . (المترجم).

المساهمات للأمير عليّ متوعدة بأنها ستأخذ الثأر لنفسها مع أول فرصة مواتية [١] .

عندما توفي الأمير عليّ، انتشرت أخبار الحملة التي يقودها الباشا في جميع أنحاء البلاد . لذا أصبح المهم في حسابات الأمير الجديد عايض هو الدفاع عن استقلال البلاد المهددة بالغزو، ومن هنا وجد نفسه مضطرًا إلى تقليل قواته المرابطة في قلاع الأجزاء التي تحتلها عسير من البلدان . وفي الوقت نفسه رأت القبائل الخاضعة لسلطة عسير الفرصة في التخلص من القوات العسيرية المرابطة على أراضيهم وبصفة خاصة قبائل يام التي لن تنسى ما ألحق بها من الإهانة على يد أسيادها من العسيريين، فسارعت إلى إرسال سفير لها إلى الباشا معلنة عن تقديم كل تعاون ممكن ضد العسيريين .

مازالت قبائل يام تحتفظ بافتخار بفرمان السلطان سليم ويُبدون حماسهم في تأييد سلطة استانبول، وإذا كانوا الآن يتخذون جانب المؤيد لسلطة الوالي المقيم في القاهرة، فما هو إلا للانتقام من العسيريين . وكان يجب على العرب في الظروف الحالية أن يتناسوا أحقادهم ويتّحدوا ضد عدوهم المشترك ـ ولكن للأسف ـ إنهم شعب كله حماس وغيره، ولكن كل قبيلة مشغولة بكره القبيلة الأخرى، بدلاً من أن يوجهوا كل ذلك الحماس والغيرة لمصلحتهم العامة .

---

(١) انظر: علاقة عسير بقبائل يام بعد الأمير عليّ ابن مجثل أي في عهد الأمير عايض وابنه محمد مفصلة في «علاقة الدولة العثمانية بعسير والمناطق المجاورة ١٨٤٠ ـ ١٨٧٢م». لمترجم هذا الكتاب. رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة كمبردج عام ١٩٨٧م.

٣ أغسطس ١٨٣٤م - الإقامة في بيشة

«سلطان» . . هو أحد الشيوخ في عسير، وكان يتطلع إلى أن يكون شيخًا لقبيلة من القبائل العسيرية [١] التي كان يرأسها والده قبل أن يتولى الأمير عليّ ابن مجثل أمارة عسير. وقد وعده حاكم مصر بأن يُعيده إلى ما كان عليه والده.

وعندما كنا مقيمين في العقيق ذهب إلى حدود بلاد قبيلته بهدف نشر الفرقة والخلاف في صفوف أعدائه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لغرض الحصول على معلومات دقيقة عن طريق جواسيسه عن قوة جيش الأمير عايض وتحركاته.

عاد إلى المعسكر اليوم ليقدم تقريرًا عن مهمته، وفي هذا اليوم نفسه تسلَّم دوسري رسالة من الشيخ (رفيدي) شيخ قبيلة بللسمر. تقع بلاد هذه القبيلة على حدود بلاد عسير من الجهة الشمالية. وقد أصبحت مستقلة بنفسها بعد موت الأمير عليّ الذي بسطوته وقوة جيشه حكم بلادًا كثيرة.

قال هذا الشيخ في رسالته: «حينما يصل أحمد باشا إلى حدود بلاد عسير سنضع تحت خدمته كل الرجال القادرين على حمل البنادق، فأسرعوا بالقدوم فنحن ننتظركم بفارغ الصبر».

(١) هو سلطان بن عبده العسيري. كان أميرًا على قبيلة علكم العسيرية، وكان قد وقع بينه وبين أمير عسير علي بن مجثل اختلاف فأراد أن يقتله فهرب وجاء إلى مكة ملتجئًا، فسعى له أحمد باشا عند محمد علي باشا في ترتيب معاش جزيل ومرتبات جزيلة فبقي في مكة يصاحب أحمد باشا ويداهن الشريف محمد بن عون ظاهريًا وميله باطنًا مع أحمد باشا فكان يعده بأن قبائل عسير لا تخرج عن طوعه، وأنه إذا توجه مع أحمد باشا والعساكر فسيملك عسير. (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص ٣١٠ - أحمد زيد دحلان). (المترجم). بعد فشل هذه الحملة وما توصل =

وفي الوقت نفسه تقريبًا الذي قدم فيه حامل رسالة شيخ باللسمر، قدم الشيخ (غرامة) أحد أعيان بني شهر يحمل رسالة من الشيخ غرم رئيس تلك القبيلة يعلن هذا الرئيس في رسالته استسلامه للباشا، ويعلن عن رغبته في اتحاده مع قوات الباشا ضد عسير. ورحب الباشا والشريف الكبير بهذه المبادرة من قبل شيخ بني شهر، تلك القبيلة الكبيرة القادرة على تجهيز عشرة آلاف مقاتل بأسلحتهم، وقد كان علي بن مجثل قد أخضع هذه القبيلة لحكمه وجعل بها حامية عسكرية وعين عليها حاكمًا من قبله.

بدأ الحاكم العسيري في بلاد بني شهر يحُسّ بتغير قبيلة بني شهر منذ أعلن عن قيام الحملة المصرية[٩٦]. وخوفًا من قيام تمرد عام في صفوف هذه القبيلة، عاد إلى بلاده لمشاركة الأمير علي في التصدي للحملات المصرية.

يحتل الشيخ غرامة مندوب بني شهر مكانة مهمة جدًّا بين المندوبين الآخرين الموجودين في المعسكر، كان يرافقه فرقة كبيرة من الجنود لحراسته وكوكبة من الخيالة يمتطون خيولاً رائعة الشكل.

= إليه قادتها مع أمير عسير، عاد سلطان بن عبده إلى الحجاز وظل في خدمة محمد بن عون ورافقه في حملته على الحديدة عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م ولعب دورًا في لقاء إمام اليمن بالشريف محمد بن عون في مدينة الحديدة. انظر رسالة محمد بن عون إلى والي الحجاز بتاريخ ١٢٦٥هـ منشورة في كتابنا: تطور الأوضاع السياسية في إمارة أبو عريش المعد للنشر، ولم نعرف من أخبار ابن عبده شيء بعد هذا التاريخ.

(١١١) من المعروف أن زعماء قبائل بني شهر خاصة أسرة العسابلة تربطها علاقات صداقة ومصاهرة فيما بعد مع الشريف محمد بن عون وربما لهذا السبب مالت قبيلة بني شهر إلى جانب الحملة التي كان محمد بن عون أحد قادتها. (المترجم).

٤ أغسطس ١٨٣٤م الإقامة في بيشة

إن حكم الذي يخون بلده ويتعاون مع الأعداء حسب العرف في بلاد عسير هو أن يحرق منزله وتصادر مواشيه وتنهب مزرعته، ويشّهر به بحلاقة لحيته، ثم يقتل بشكل فاضح.

ولا تنتهي العقوبة عند هذا الحد بل تمتد إلى أُسرة مرتكب الخيانة الوطنية، حيث تنقلب حياة الأسرة إلى حالة مزرية تمامًا. يصادر أثاث منزل العائلة، ولا يترك لهم إلا عبارة عن مفرشة وإناء يجمعون فيه ما يتصدق عليهم به الآخرون. وتُصبح زوجات الخونة وأطفالهم منبوذين من الجميع، ويضطرون إلى الهجرة إلى مكان آخر إذا لم يموتوا من الجوع والألم قبل ذلك.

٥ أغسطس ١٨٣٤م - اقامة في بيشة

مضى أسبوع تقريبًا ونحن نتلقى أوامر بالرحيل، ودائمًا بعد خمس عشرة دقيقة من ساعة أمر بدء الرحيل يصدر أمر جديد يلغيه. أنه لمنظر يدعو للدهشة إن لم يكن الدهشة بعينها.

وبالنسبة لحياة عدة آلاف من الرجال، بدأت احتياجات الجيش التموينية تنقص يومًا بعد يوم، وما وعدت به القبائل من جمال لا يحضر. ويبدو أن الأمل ضعيف في الحصول عليها. ويبدو أن الباشا لم يستخدم وسيلة العنف - وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها البدو - في الحصول على حاجته من الجمال، حيث لاحظ أن الأنعام يستهلك بكميات كبيرة كل يوم، والجمال الموجودة بدأت تموت من الجوع.

نتيجة لكل هذا قرر القائد تعميد الجيش بالمسير، والبقاء هو مع

الشريف الكبير ببيشة حتى تتوافر لهم متطلبات الحملة، إلا أن الشريف محمد بن عون أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة.

كانت وسائل المواصلات غير كافية. وبدلاً من أن نتخلص من الخيام التي سنحتاجها - لاسيما وأن معظم وقتنا سنقضيه في العراء - فقد فضلنا أن نترك بدلاً منها بعضًا من الذخيرة وصواريخ (كنجريف) — في قرية الروشن وهي التي لا نستطيع استخدامها. وكان لكل ضابط الحق في أن يختار موظفًا أو مستخدمًا لديه من مرافقي الحملة من المستخدمين. بينما كان عدد هؤلاء المستخدمين بالنسبة للموظفين الأوربيين محدودًا، خاصة في هذه الظروف، وبذلك أصبحت نسبة العبيد المستخدمين بالنسبة للجيش غير النظامي تُقدّر بما لا يقل عن عبد لكل ثلاثة جنود. وعلى هذا الأساس كان ربع القوة في الحملة غير منتجة واستهلاكها أكثر من مردودها. وكيف يستطيع الإنسان أن يُحارب، وبصفة خاصة إذا كان عدوه عربيًا وفي أرض قاحلة خالية من الماء حيث يتحركون بسرعة فائقة لا يحملون من المتاع إلاّ كيسًا صغيرًا لكل واحد به ما يكفيه من الدقيق لمدة ثلاثة شهور.

وكان جنودنا من المصريين أثقل من البقر واعتادوا على الأكل بشراهة والشرب بكثرة كما لو كانوا على ضفاف نهر النيل. ولو كان هذا الوضع قد حلّ بجيش أوربي لمت شفقة عليه، وأن يكن هذا شعوري الآن. ولكن وجدت أن من الأفضل ألاّ أفكر بما سيأتي به الغد.

وأخيراً حُمّلت الجمال، وأُعطي الأمر إلى الجيش بالمسير، أما أنا فامتطيت جوادي وألقيت نظرة الوداع الأخيرة على وادي بيشة، والذي سأفتقد بتركه المعلومات التي طالما غذيت بها كتاباتي في بيشة حيث أعتبر الكتابة هوايتي الوحيدة التي تجلب إليّ الشعور بالقناعة.

٦ أغسطس ١٨٣٤م ـ البقاء في بيشة

أورد هنا عدد الساعات التي استغرقتها مسيرة الحملة من الطائف إلى بيشة على النحو التالي :

من الطائف إلى العقيق	عدد الساعات
من العقيق إلى بيشة :	٧١,٤٥
اليوم	
١٩	٥
٢٠	٦,١٥
٢١	٧,٣٠
٢٢	٦,٣٠
٢٣	١١
مجموع الساعات	١٠٨ ساعات

بدأ مستوى الأرض من العقيق إلى بيشة في الانخفاض التدريجي ، ولكن الحرارة هنا مرتفعة طوال فترة إقامتنا في بيشة ، ولكن لكوننا في هذا الفصل من السنة فإنه أمر طبيعي لا يدعو إلى الاستياء من الحرارة ، وكانت الرياح الشمالية تهب تقريبًا بصفة دائمة . وكانت معدلات الحرارة في بيشة طوال فترة إقامتنا كما يلي :

اليوم	طلوع الشمس	عند الظهر	الساعة الثانية بعد الظهر	الغروب	منتصف الليل
٢٢ يوليو	١٩°	٣٢°	٣٣°	٢٩°	٢٤°
٢٣ يوليو	٢٠°	٣٢°	٣٣°	٣٠°	٢٤°
٢٤ يوليو	٢٠°	٣٢°	٣٤°	٢٩°	٢٣°
٢٥ يوليو	٢٠°	٣٣°	٣٥°	٢٨°	٢٣°
٢٦ يوليو	٢٠°	٣١°	٣٣°	٢٧°	٢٤°
٢٧ يوليو	١٩°	٣٣°	٣٦°	٢٨°	٢٥°
٢٨ يوليو	١٩°	٣٠°	٣٣°	٢٧°	٢٣°
٢٩ يوليو	٢١°	٣٠°	٣٢°	٢٨°	٢٤°
٣٠ يوليو	٢١°	٣١°	٣٤°	٢٩°	٢٤°
٣١ يوليو	٢٢°	٣٢°	٣٤°	٢٩°	٢٤°
١ أغسطس	٢٠°	٣٠°	٣١°	٢٦°	٢٣°
٢ أغسطس	١٩°	٢٩°	٣١°	٢٦°	٢٢°
٣ أغسطس	١٨°	٢٩°	٣٠°	٢٥°	٢٣°
٤ أغسطس	٢٠°	٣٠°	٣٣°	٢٧°	٢٤°
٥ أغسطس	١٩°	٣٠°	٣١°	٢٧°	٢٤°
٦ أغسطس	٢٢°	٣٢°	٣٣°	٢٢°	٢٤°

٧ أغسطس ١٨٣٤م - اليوم الرابع والعشرون للرحلة

أدرك الباشا أنه لو أطال فترة البقاء في بيشة، فإن الجيش سيهلك من الجوع، لذا فقد أصدر أمره بالتحرك، حيث بعد ساعة أصبح المخيم وما به من أمتعة فوق ظهور الجمال، وأخذ الجيش يسير في بطء متجهًا جنوبًا.

أما أنا فقد أحضر محمد [1] حصاني وألقيت نظرة الوداع الأخيرة على تلك البلدة الجميلة التي قد لا أراها مرة أخرى - قبل أن أتحرك بسرعة لأكون مع صفوف الجيش الأولى المتحركة.

كانت الخيول كلها كسولة من طول فترة الكسل التي مكثتها في بيشة، بالإضافة إلى أنها أصبحت قلقة، ولا تساعد حركة الجيش المتباطىء على ضبط جماحها، لهذا، أرخى الخيالة لخيولهم أعنّتها لكي نأخذ نسقًا واحدًا في المسير. وبهذا تحول الطريق إلى ميدان لسباق الخيل مخلفة وراءها سحابة من الغبار المتطاير «يكشح» وجوه التعساء من المشاة على الأقدام.

كان طريقنا الذي نسلكه امتدادًا لوادي بيشة الذي يضيق باستمرار كلما تقدمنا جنوبًا، والجبال التي تحدّه عالية، وأقل جدبًا من تلك التي سبق لي أن تحدثت عنها، ثم أخيرًا تنفصل سلسلة تلك الجبال.

أما العنق الذي يفصل بين تلكما الفرجتين فمغلق بتلّة صغيرة تبدو وكأنها تحجز مجرى وادي بيشة، ولكن السهل شق له طريقًا ضيقًا خلال ذلك الحاجز الطبيعي، وهو في الوقت نفسه طريق كاف لجريان السيول. وشاهدنا على جانب الطريق واحة مزروعة بأشجار النخيل بالإضافة إلى الحقول والحدائق العديدة، منها ماهو مزرُوع ومنها ماهو محروث، أما ما

(١) لعلّه خادمه الذي دعاه في أماكن أخرى بالسائس.

يلي الواحات فهو سهل رملي منبسط مغطى بأشجار السرو وأعشاب طويلة. بينما وادي بيشة يُعبر من خلال هذا السهل. وهذا الوادي تنبسط أراضيه بفخامة إلى أن تُصبح قرية نمران إحدى ضفافه. أما الضفة اليمنى فتوجد فيها أشجار النخيل الجميلة والتي قد قطفت ثمارها، ولم أتوقع أن أرى الآبار التي تحيط بها أشجار الصفصاف. وبالقرب من الآبار توجد أكواخ صغيرة للفلاحين والحيوانات التي تستخدم لجلب الماء من الآبار.

وتتركز مناطق سكن الأعراب على ضفاف مجرى الوادي، وتسمى هذه الواحة «عبيلاء» [1] ومن الصعب على القادم من بيشة أن يلاحظ موقعها، لأنها تبدو معزولة في داخل الصحراء ولكن منظرها مدهش.

لاحظت على الطريق نباتات من عائلة الأنثينز Anthenis ، والـ «رتم» The Broom و الداريا Daria [2] والذي أشار إليها النبي محمد، ﷺ. بأنها ستكون طعام المغضوب عليهم في نار جهنم. كما يوجد ثلاث قلاع مبنية على قمة الربوة، وبرج مراقبة بني في السهل لحماية القرية الواقعة في الوسط. إنها قرية «المروة» [3] التي سبق الحديث عنها. وقد تركناها على يميننا ووصلنا بعد قليل إلى قرية «عليفة» [4] ، حيث كانت تنتظرنا فرقة الخيالة والجيش البدوي منذ مغادرتهم لبيشة.

دُمّرت قرية عليفة منذ فترة طويلة وهجرها البدو حيث ذهبوا ليستقروا متخذين من ظلال أشجار النخيل مساكن لهم.

(١) ربما تكون واحة عبيلاء كما ذكر لي الأستاذ عون الصعيري رئيس بلدية بيشة سابقًا. بينما كتبها المؤلف بطريقة مختلفة Billa (المترجم).

(٢) لعلها شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

(٣) سبق التعريف بها.

(٤) انظر تقرير إمارة منطقة عسير الجزء المتعلق بمنطقة بيشة. مصدر سبق الإشارة إليه.

تقدم محمد بك قائد جزء من الخيالة إلى الباشا طالبًا بأن يسمح له بقطع أشجار النخيل واستئصال السكان، فسأله الباشا:

● من أين جاء غضبك هذا؟!

■ فقدت أربعة فرسان منذ وصولي إلى هذا المكان.

● وكيف حدث هذا؟!

■ قتلهم البدو عندما كانوا يقومون بعملية صيد. إنهم يرغبون بدون شك في الانتقام لرجالهم الذين قتلوا أثناء غارتنا على قرية المروة.

● نحن لم نصبح في بلاد العدو إلى الآن، والأبرياء لا يستطيعون الدفع عن المجرمين. وطالب الدم لا يطلبه إلا من الذي أهرقه. وعند يوم الحساب يميز الله بين الحق والباطل.

■ هذه غالبًا إجابات الباشا. إنه يحسب حسابًا كبيرًا للمستقبل، ولا يعيش بما فيه الكفاية للوقت الحاضر. ولا ألومه أن يكون طيبًا جدًّا، لأننا ونحن نقود جنودًا متحضرين إلى حدٍّ ما ومكلفين بمحاربة رجال أقل تحضرًا منهم، يُصبح من الواجب علينا أن نعرف كيف نستخدم القوة طالما أنها الوسيلة الوحيدة التي نظهر بها أمام أناس أنصاف برابرة وعوام.

ولعلّ هؤلاء العرب قبل أن يقتلوا الخيالة الأربعة يتذكرون جيدًا أنه أثناء واحدة من حملات القائد التركي حسن باشا على المنطقة، جاء إلى المروة، وأخذ جميع نساء وأطفال هذه القرية سيئة الحظ وباعهم في السوق كما لو كان يبيع قطيعًا من الأغنام [1].

إن الجمال التي نقلتنا من بيشة هزيلة جدًّا وغير قادرة إلّا على نقل

(١) ترى من هم البرابرة وعديمي التحضر كلية هل هم سكان هذه القرية الآمنة أم حسن باشا ومن يمثله بإقدامهم على هذه الأعمال البربرية والوحشية ضد السكان الآمنين؟! (المترجم).

الأحمال الخفيفة، ومن المستحيل ضبط مسيرة تلك الجمال واحدًا بعد الآخر، حتى بالرغم من وجود الحبال المثبتة في مشافرها العليا أو من تحت مشافرها السفلى. وهذه الطريقة في إيصال هذه الحيوانات (أي الجمال)، تبدو خاصة عند البدو. وإنها المرّة الأولى التي أشاهد فيها هذه الطريقة.

وحينما يسقط واحد من هذه الجمال، يسارع الحادي (الجمّال) إلى فك الحبال التي يربط بها الجمل من تحت إبطه، ليشد الحمل الذي يحمله الجمل، ثم يفرغ الجمل من حمله.

إنه من المستحيل الوصول إلى بلاد العدو بمثل هذه الوسيلة من المواصلات. هناك خمسون جملاً استخدمت لنقل جزء من الذخيرة لم تصل بعد، بينما كانت جمال أخرى، والشريف الكبير بقي خلفنا، أما صواريخ «كنجريف» فقد تركت في بيشة، وقد اعتبرها الباشا ضائعة إلى الأبد، ومع ذلك فإن هذه القذائف ستكون ذات فائدة كبيرة لإجبار الأعداء على تخلّيهم عن مواقعهم العالية التي لا يتوقعون أن يصل اليهم فيها أحد. ومما يزيد في شكّهم في مقدرة عدوهم على الوصول إليهم هو جهلهم بمعرفة ذلك النوع من القذائف.

هرب كل سكان الحيفة والمناطق المحيطة بها ما عدا أربع نساء مسنات فضّلن تعريض أنفسهن للموت على أن يتركن المكان الذي يعشن فيه. وقام البدو قبل هروبهم بالتقاط كل التمر الناضج ولم يتركوا في النخيل إلا التمر الأخضر أي البلح الذي لم ينضج. لما يسببه عند تناوله من قبل الجنود من حمى وإصابة بالدوسنتاريا. ويتكهن البعض بأن هذا التصرف من قبل السكان كان من أجل إظهار الطاعة لأهل عسير، وعرفت هذه الطريقة من خلال معرفة البدو عن نهم الفلاح الجائع.. أي الجندي المصري.

وعند غياب الشمس، وصل مندوبون من بني شهر وتوجهوا مباشرة إلى مقر الشريف حيث أحضروا له بعض الزبد من أجل الطبيخ (١)

إن السفير الذي يُحضر مثل هذه الهدية إلى قائد الجيش - في أوربا - يبدو سخيفًا، ولكن في الجزيرة العربية يقبل ذلك! ومن غير اللائق أن ترفض الهدية.

ومما ذكره هؤلاء المندوبون، أن الأمير عايض يخشى من خيانة الشيوخ عندما يجدون أنفسهم أمام الجيش المصري. فهو يتحدث إليهم كل يوم، حيث يقدم له قسم منهم الولاء والطاعة، وحتى يصل إلى درجة أكبر من الاطمئنان، كان يعتزم أن يطلب رهائن.. وشيخين مُهمّين من كل قبيلة، حيث قال: «إذا دافعتم عن هدفنا المقدس بكل شجاعة فستُصبحون إخواني، وإذا حدث غير ذلك، فسأقوم بقطع رؤوس هؤلاء الذين سيكونون ضحية حنثكم بقسم الولاء والطاعة».

إن الشيوخ غير مسرورين من وضعهم في موضع الشكّ، يمكن أنهم يضمرون التصرف بالطريقة التي يخشى عايض حدوثها، ويمكن أنهم يرغبون في الحفاظ على الاستقلال المطلق لبلادهم نتيجة للظروف الصعبة التي سيجدون أنفسهم فيها فيما لو فقدوا ذلك الاستقلال. إنهم لا يرغبون في أن يسلموا بما طلبه عايض منهم، وكانوا مقتنعين بأن يقولوا له: «نحن مسلمون مخلصون، والله يعلم أن عزمنا هو أن نحارب حتى الموت أو هزيمة جيش المشركين الذي يتقدم نحونا، وهذا يجب أن يكون كافيًا لك». وبهذا اكتفى عايض، ولم يذهب إلى ما هو أكثر من ذلك.

(١) ومن ضمن ما يقدمه العرب من هدايا للأصدقاء السمن والعسل، وهما مادتان أساسيتان لكل مناسبة في عسير.

درجات الحرارة:

الصباح	الظهر	الساعة ٢ بعد الظهر	الغروب	منتصف الليل
٢٠°	٣٢°	٣٢°	٢٦°	٢٣°

أخذتُ معيار الحرارة في الصباح في بيشة، أما بقية الأوقات فأخذتها في الحيفة

الفصل العاشر

الإقامة في الحيفة ـ الجمال ـ الحيرة ـ موقع الحيفة ـ بدو الشريف منصور ـ بريد من القنفذة ـ أخبار من أبوعريش ـ علي أمير عسير ـ البدو ـ قرية الحيفة ـ المدرا ـ البجيرة ـ ترج ـ درجة الحرارة ـ نباتات ـ عايض بن مرعي ـ شيوخ عسير ـ مقتل حارس ـ الطريق ـ طبيعة الأرض ـ النباتات ـ الليل ـ الادلاء ـ المصابيح ـ الدليل أحمد ـ عدم تأكد من الطريق ـ العطش ـ معاناة شديدة للجيش ـ أمر بالتوقف ـ ممرض ـ الجنود والأطباء ـ البعض يسقط أثناء المشي ـ الإقامة في ملاح .

الفصل العاشر

٨ أغسطس ١٨٣٤م - رحلة في منطقة الحيفة

يُتوقّع وصول عدد كبير من الجمال التي تركناها خلفنا في وقت ما من هذا المساء، بينما لا يزال مائة وخمسون جملاً مفقودًا ولم يعثر عليها في أي مكان. وكلّف الباشا واحدًا من قادته بأن يصطحب مجموعة من الأفراد ويذهب معهم لإحضار ما تبقى من تلك الجمال حيًّا وما سلم من سطو البدو.

مكثنا في بلدة بيشة عشرين يومًا، ومع هذا لم نتمكّن من الحصول على العدد الضروري من الجمال مع العلم بأن هذه البلاد ملآنة بها.

لم يعْدوا الترك بالرغم من كل قواتهم الحربية أن يكونوا عالة أو ضحية للمكر العربي. نحن نعرف أن رَكَبة الجمال هم أعداؤنا ومع ذلك تركناهم خلفنا دونما حراسة يتصرّفون بكامل حريتهم وكما يحلو لهم.

مازلنا نجهل الطريق والمسافة التي سنطويها غدًا، والمطّلعون أو العارفون مازالوا مختلفين مع بعضهم، وقمنا بإجراء اتصالات مع ذوي الخبرة في معرفة مسالك البلاد لنعرف رأيهم. ومع أن الباشا قد قام بحملتين ضد عسير، إلاّ أنه لا يعرف الطريق. والطريق الذي سلكه في حملته الأخيرة كان أقرب إلى جهة الغرب[1].

(١) لعله يعني الطريق الجبلي أو الطريق عبر بلاد غامد إلى الغرب من بيشة والأكثر مصاقبة للجبال. (المترجم).

ورد خبر في البريد الذي وصل توًا من جدة والذي استغرق وصوله اثني عشر يومًا، معلنًا عن وصول ثمان عبّارات بحرية إلى ميناء جدة مُقلّة جزءًا من الجيش النظامي ـ على النظام الحديث ـ والذي خُصّص لمهاجمة اليمن، بينما وصل مرسول من القنفذة على ظهر ذلول يحمل خبر انتشار وباء الحمى التي انتشرت في ذلك الجزء من تهامة، وفي الوقت نفسه أعلن عن وصول مندوبيْن يمثلان قبيلة «رجال ألمع»، وسنكتشف فيما بعد الدوافع الحقيقية وراء قدومهما.

نُصب المعسكر في منطقة نصف دائرية مقطوعة من النصف بتلّة صخرية في أعلاها ورملية في أسفلها، بينما غابة من أشجار النخيل تغطي كل أجزاء البلاد من جهة الجنوب. ارتقينا إلى أعلى الهضبة التي تقع بين مجرى وادي بيشة وبين أشجار النخيل سالفة الذكر، واكتشفنا أرضًا جرداء واسعة ومسطحة يتخللها في بعض الأماكن أحراش صغيرة وتتسع باتجاه الغرب.

ومياه الينابيع المجاورة لمجرى الوادي حلوة المذاق، ولكنها أثقل قليلاً من مياه نمران. ومياه تلك الينابيع القريبة من الجبال تستخدم للشرب فقط. وهواء هذه البلدة يميل قليلاً إلى الرطوبة أكثر مما هو عليه حال الهواء في بيشة. ويمكن أن يكون هذا الظرف المناخي صدفة، ومن وقت لآخر يتخلل رتابة هذا المناخ الرياح الشمالية الغربية التي تهب من جهة البحر الأحمر مشبعة بذرات مائية. ويتكون موقع الحيفة من مجموعة جبال لا يتخللها أي منفذ إلاّ ممر وادي بيشة.

نصب بدو الشريف منصور مخيمهم تحت أشجار النخيل ليكونوا على مقربة من الطعام. وقد وجدوا التمر اللذيذ الذي تركه المواطنون، حيث ملأوا به مزاودهم وسيعيشون عليه لمدة خمسة عشر يومًا على أقل تقدير،

دون أن يُصابوا بمرض، بينما لا يستطيع الجنود المصريون تناول وجبة واحدة دون أن يتعرضوا للإصابة بـ «الدوزونتاريا».

إن هؤلاء العرب لا يصابون بالإنهاك، ولا يتعرضون للمجاعة، وهم نشيطون، وقد أصبحوا معروفين عند الأوربيين باسم «سلاقي الشريف منصور»، وكان طعامهم أثناء إقامتنا في بيشة يتكون من لحم الجمال المريضة أو الهزيلة أو التي شارفت على الموت، ومع هذا فإن صحتهم لم تتأثر إطلاقًا.

جاء في الخبر الذي نقله البريد، أن الشريف عليّ. . شريف (أبوعريش) متعطّل عن التقدّم باتجاه حدود عسير، وكان قد وصل إلى قرار وهو الذهاب متوغلاً عبر العقبة الصعبة [1].

إن الجيش المصري سيشعر بالسعادة إن تمكن الجيش غير النظامي من تقسيم قوات العدو، وكيفما كانت النتيجة بعد ذلك، فإن أحمد باشا سيتمكن من القضاء عليهم قسمًا قسمًا.

كانت كل قرى الحجاز من العقيق ووادي زهران قد جهزت خلال شهر واحد جيشًا بأمر من الأمير عليّ أمير عسير الذي قرر غزو البلاد اليمنية حيث تمكن من احتلال اللحية، والحديدة، والمخا. لم يتأخر قادة هذه المناطق عن الاستجابة لأوامر أمير عسير حيث اشتركت وحدات من القبائل المستقلة كجنود غير نظاميين في جيش الأمير علي على أمل تقاسم المغانم التي يحصلون عليها من البلاد المهزومة.

وكانت مساهمة وادي بيشة وحده بخمسمائة رجل من حملة البنادق.

---

(١) لعله يقصد العقبة الصماء التي تحمي البلاد من جهة تهامة وتتحكم في نفاذ الأعداء إلى البلاد الداخلية. (المترجم).

وعاد هؤلاء البدو يحملون مواد شخصية. وكانت تلك المواد إما هندية أو تركية تمثل جزءًا من الغنائم التي حصلوا عليها بعد فتح المخا، أضافوها إلى أمتعتهم العادية فنتج عنها نشاز غير متجانس.

وكان معظم البدو مسجلين في القوائم العسيرية عندما كان على هذه البلاد أن تقاوم الحملة الأولى التي قادها محمد علي باشا نفسه[1]. وكان لدى بعض البدو النية في مهاجمة المخيم المصري الذي يبدو لهم أنه غني بالذهب والفضة والأمتعة الجميلة، وبخاصة ملابس الجوخ الأحمر والغتر الكشميرية التي رأوهم يرتدونها، الأمر الذي جعل الباشا ينتظر قليلاً.

أما هذه المرّة، فإن السكان ظلوا في بلادهم المصانة، لأنهم يعتقدون بنجاح الحملة التركية، ومع ذلك فإن عصبة من اللصوص تتبعوا المعسكر من على بعد مسافات وأخذوا ما استطاعوا الحصول عليه أثناء طريقهم. وحصل منهم بعض التعديات على بعض الأفراد الذين لا يتمكنون من مسايرة المعسكر أثناء مسيرته، وذلك في المنطقة ما بين الثنية وبيشة.

منازل الحيفة مبنية بالحجارة إلى حد معين. أما البقية فمبنية بالطين، وأغلبية المنازل مكونة من دورين: الدور الأرضي غير مُتقن ويلاحظ أنه يستخدم لإيواء الحيوانات. أما الدور الثاني فيحتوي على الأشياء والأمتعة الثمينة. وفي هذه المنازل مخازن مخفيّة تشبه الكهوف، يستخدمها السكان

(١) من المعروف أن محمد علي باشا قدم من مصر عام ١٨١٤م ليقود بنفسه جيشه الذي تعرض لعدة هزائم على أيدي أبناء عسير أثناء محاولاته التوغل في بلادهم لإخضاعهم. انظر تفاصيل هذه الوقائع وحملة الباشا على عسير في دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتأثيرها على مقاومة بلاد عسير ضد الحكم العثماني - المصري من عام ١٨١١ - ١٨٤٠م. (للمترجم).

لإخفاء أغراضهم من تعديات اللصوص من أعدائهم. وللقرية مسجد مستطيل الشكل، بني بالطريقة نفسها التي بنيت بها المنازل، أما السقف فمدعوم بثلاث دعامات مبنية بالطين. وتوجد بئر مياهها صالحة للشرب محفورة أمام المدخل. ويحيط بالحيفة سور من جميع جهتها، وكان دخولنا إليها من خلال أربع بوابات صغيرة.

ومن توابع هذه القرية لاحظنا قريتين أخريين، تدعى الأولى «المدرا»، والثانية البجيرة، ويسمى هذا الوادي «ترج». وغابة النخيل التي تغطيه تنقسم إلى صفّين وما بينهما فراغ، ويعتقد بعض العرب بأن هذا الوادي المسمى «ترج» فرع تابع لوادي بيشة، بينما البعض يعتقدون عكس ذلك. وعلى كلٍّ فالرأي الأول أكثر ترجيحًا. وفي أقصى الجنوب وجدنا قرية من قرى ترج والتي اكتسبت اسمها من اسم الوادي، ويدعى شيخ تلك القرية «سنيدي»، بينما شيخ الحيفة يدعى «عبود»[1].

وكانت درجات الحرارة:

طلوع الشمس	الظهر	الثانية بعد الظهر	عند الغروب
٢٠°	٣١°	٣٢°	٢٧°

في الصباح، كان الأفق محجوبًا بسحابة خفيفة من الضّباب. وجدنا في الحيفة بعض أشجار «الاسكليبيس» والأشجار المخروطية وبعض الحشائش الطويلة.

(١) هكذا أورد المؤلف أسماء هؤلاء الشيوخ الأول Chenedi والثاني About وقد حاولت معرفة هذان الشيخان من خلال الاستفسارات مع بعض من العارفين بأسماء الأسر في هذه المنطقة، فلم أحصل على الجواب المطلوب ولعلنا نحظى بالتعريف بهما في المستقبل.

أما بالنسبة لوادي ترج فهو من الأودية الكبرى والذي يصب في وادي بيشة الكبير.

٩ أغسطس ١٨٣٤م

لكي يتفادى الأمير عايض بن مرعي العاصفة التي تُعدّ نفسها للهجوم عليه، فقد أرسل مبعوثين إلى كل أنحاء إمارته يدعون البدو للانضواء تحت رايته، والذين كانوا من قبل قد حاربوا تحت راية سلفه الأمير عليّ بن مجثل.

عقد الأمير عايض اجتماعًا مع عدد كبير من الشيوخ، وقال لهم:

تعلمون أن العدو القوي يقترب منا لمهاجمتنا، فإذا قدّر الله واستسلمت عسير فإن الترك لن يتأخروا في توجيه قواتهم ضد جيرانهم[١]، وبذلك يُصبح الخطر الذي ترونه اليوم ليس مهمًا، حالاً على رؤوسكم. وأنا أعرف أنه منذ وفاة الأمير علي أنكم قد فقدتم آخر حبّة من القوة والشجاعة. لقد وعدتموني بمساعدتكم ولكنكم لستم بمخلصين في كلامكم. وعندما يأتي يوم المعركة ستختفون كالعجائز، ولكن إذا كان هذا موقفكم فعودوا إلى نسائكم إذا شئتم، أما أنا ومن يقف معي من أبناء قريتي الذي أحكمها فسنحارب حتى الموت.

وكان جواب الشيوخ:

- كيف وصلت إلى الشك في شجاعتنا؟! لقد أعلنت بنفسك أن جيش الباشا ما هو إلا عبارة عن عصابة من الخونة، مع أن المندوبين والجواسيس (العيون) أخبروا بأن القوة العسكرية المتكونة منها الحملة لم يكن لها مثيل في الحملات التي وجهت ضد بلادنا من قبل.

زادت الإشاعات من خلق الجدل حول هذا الموضوع، وثبطت همة السكان الذين أصبحت بلادهم قاب قوسين أو أدنى من التعرض

(١) يقصد جيران عسير.

للهجوم، بينما الباشا والشريف الكبير يعتقدان بأن السفراء سيكلّفون بتقديم استسلام البلاد إن لم يكن اليوم ففي الغد.

في لحظة انطلاقتنا اغتيل أحد الحراس في وسط النخيل، ولم نتمكن من العثور على الجاني. تقدمنا في مسيرتنا وأمامنا الحراس المكلّفون بحماية مقدمة الجيش، ويتقدم الحراس دليل خبير بمعرفة الطرق، بينما بقية الجيش تتقدم خلف الدليل والحراس. يزاحم بعضهم البعض الآخر. وغادرنا وادي بيشة لندخل في واد جديد تذهب مياهه لتصب في مجرى وادي بيشة.

بدافع من طبيعتي لحب المغامرة، أجد نفسي مدفوعًا دائمًا إلى الأمام دون أن ألتفت قطعيًا إلى الوراء. أخذت مكاني بالقرب من الدليل الخبير بالبلاد، وأثناء مسيرنا شاهدنا نوعًا مختلفًا من الأشجار حيث يُستدل من ارتفاعها واخضرار لونها على قرب المياه الباطنية من السطح، والتي جعلت من هذه الأرض أرضًا خصبة، مناسبة لنمو الأشجار ذات الظلال الوارفة. أما الجبال فلا ينبت فيها أي نوع من الأشجار ذات الثمار أو غيرها. وهي مكونة من الصخور الطباشيرية المتآكلة كلية بعامل حرارة الشمس، ومع ذلك فأسافل تلك الجبال مكونة من الطين والطفل حيث تنمو بعض الخضار الطبيعية، - وأيضًا - بعض الحشائش. أما الأراضي المسطحة فتنبت فيها أشجار الأراك التي يتخذ منها البدو أداة لتنظيف أسنانهم (المِسْواك)، وكذلك أشجار الزيزفون.

ولعل قرائي يعرفون الآن، أشجار السنط بأوراقها الصغيرة والتي تتعارض مع أوراق «الاسكليبيس» أن الأرض التي تحف بالجبال ما هي إلا عبارة عن «معطف» اصطناعي جلل به جسم ذلك الجبل.

سينتهي الوادي حالاً، وتبدأ أرض رملية منبسطة بها أشجار السنط

الناشفة. وعلى البعد هناك بعض الوديان بالطبيعة نفسها السالف ذكرها. وولجنا خلال ممر في الجبال تُحيط به أشجار صخريّة، وحينما عبرنا ذلك الممر وجدنا أنفسنا في داخل أرض واسعة مسطحة من الطبيعة السابقة نفسها، يغطيها عدد كبير من أشجار السنط والتي تُشبه من بعيد «دبابيس» صفت بشكل دائري، حيث محيط الدائرة يمثل بعض البقع السوداء والبعض الآخر جاء خاليًا.

بدأ الليل يرخي سدوله علينا ويغطي في القريب تلك الأرض والجبال المسطحة، ويسدل على هذا المنظر ككل غطاءً من زي موحّد. ومع أن القمر أطلّ علينا بإشراقته ولكنه منّ علينا فمنحنا كل نوره المشع، حيث كانت تحجب عنـا نوره سحب كثيفة مثل الصخور. والجيش الذي بدأ مسيرتـه من الـظهـر أصبح ينتظر بفارغ الصبر الجمال التي تحمل الماء. والأشراف اجتمعوا حول الأدلاء وهم محميون من على بعد.

في البـداية كان نادرًا أن نرى النجـوم، ولكنها بدأت تظهر بأعداد كبيرة. وإشعاعها بشكل جماعي أضاف نورًا إلى القمر الذي لم يمنحنا كل نوره. هذا الجزء من السماء يحتوي على جزء كبير من سحب كثيفة سوداء أكثر شبهًا بجزيرة وسط المحيط.

استـأنف الجيش مسيرتـه وبعد الانتظار الصعب لوصول الجمال، أُشعل مشعل ليضيء الطريق أمام المرشدين (الأدلاء)، وأخذ الجيش في تقليد هذه الطريقة حيث أضاءت كل فرقة أمامها مشعلاً، وجعلوا منها إشارات لأولئك الجنود الذين بلغ بهم الإنهاك وأجبرهم على التخلف، أو أولئك الذين ضلّوا طريقهم.

لقد اختفت عن الأنظار جبال الشمال والغرب، أما تلك الجبال التي تقع في اتجاه الجنوب الذي نتقدّم نحوه فتبدو من بعيد وكأنها أشباح مختفية

وراء ظلمة الليل الخفيفة. إن التصاقها الشديد ببعضها جعل منها شكل متاريس، اختفى علينا من خلالها ممرنا الغامض الذي سيقودنا إلى الداخل في اتجاه الجنوب.

إن التشابه الذي يسيطر على طبيعة هذه البلاد التي نعبرها بالإضافة إلى الظلام لا تساعد بشكل كبير الدليل على تحديد الطريق الذي تعتمد حياة الجيش وحياة الدليل نفسه على معرفته.

أعلن الدليل، بعد قليل، أنه غير متأكد من الطريق الصحيح. نحن الآن في وسط البحر وأصبحنا خائفين كأننا فقدنا البوصلة. منحنا الدليل نصف ساعة في البحث عن الطريق. جاء الباشا بنفسه وقال للدليل البدوي:

● لقد قلت لي إنك تعرف الطريق كمعرفتك الطريق إلى منزلك أو إلى مسجد قريتك، والآن أصبحت متردّدًا.

■ تلك السحابة السوداء والراسية كرسو الصخرة، وكأن الشيطان وضعها ليُضلل بها خادمك.

● أما تقول إنك خائن؟!

■ أقسم لك أنني لا أضمر نيّة سيئة. لنواجه هذه الحيرة.

● لا يهم ذلك، إما أن تدلّنا على الطريق في خلال عشر دقائق، وإلا فإنني سأطلق عليك النار. هل عرفت أن هذه هي شروطي؟!

■ عرفت ذلك، ولكن ليس من المصلحة أن نغامر بتحريك الجيش بكل أثقاله في طريق غير متأكد من أنه الطريق الصحيح. دعني أذهب بمفـردي وأتـأكـد من صحة الطريق ثم أعود إليكم إذا تأكدت من أنه الطريق الصحيح.

● لن تذهب دون أن يتبعك الجيش وإلا فإنك ستُقتل.

■ سنكون مغفلين إذا وافقنا على اقتراح الدليل. ولنفرض أننا وافقنا عليه، هل نحن متأكدون من أن العدو ليس على بعد خطوات منا، وأنه قادر على السيطرة على الوضع؟!

تقدم إلى الباشا عدة رؤساء ورجوه أن ينقذ حياتهم وحياة الجنود. وفي لحظة اعتقدت أن هذا الرجل قد قرّر أن يُقدم على الموت في سبيل إنقاذ بلاده. ولكن تساءلت: هل حقيقة يوجد في هذه الأيام رجل في الجزيرة العربية لديه القدرة أن يعمل؟!. هذا ليس لشيء إلا لإنقاذ بلاده فقط؟!. نعم لقد حدث هذا في مدينة «تيرموبوليس» اليونانية حيث فقد ثلاثمائة رجل حياتهم لإنقاذ مدينتهم. ألَم يكن هناك بدوي يستعد للقيام بالتضحية نفسها؟!

في الوقت الذي بدأت فيه ألهج بالدعاء بعد وقوعنا في هذه الظروف المحزنة، وصل الأدلاء المرافقون لحراس مؤخرة الجيش. ناقشوا بعض القضايا مع أحمد باشا وبعدها بدقيقة واصل الجيش مسيرته. وبعد مرور ساعة من الوقت سمعت الدليل يقول لملازمه وكيل القائد الذي لا يُفارق الدليل:

● اذهب وأخبر الباشا بأنني متأكد من أن هذا هو الطريق الصحيح.

■ بالله عليك قل الحقيقة، وتوقع مكافأة كبيرة، ولكن كيف يمكنك أن تكون متأكدًا مما تقول؟!

● عليك أن تُصدّقني، ويجب أن تعرف أن حياتي في خطر.

■ ولكني لا أرى أي علامة للطريق.

● إذا كنت لا تنظر إلى مواقع أقدامي فبالتأكيد لن تستطيع معرفة الطريق.

■ على أي قاعدة لمتغيرات الطريق تعتمد؟!

● هل تستطيع أن ترى تلك الجبال المتشابكة التي أمامنا والتي تشكل قممها خطًا مستقيمًا مثل خشبة القوس؟!

نعم.

■ ولكنك لا تستطيع أن ترى التأثير الضوئي الذي أمامك؟ ألا ترى أن بعض النجوم أقل انخفاضًا من جاراتها؟!

أنا ذاهب لأخبر الباشا.

كنت بجانب الدليل أثناء المحادثات، وعندها أحسست بقلبي يطير من الفرح. وفي الحال اندمجت الفرق في شكل استعراضي وأسرعت القافلة الكبيرة الانتشار مسرعة باتجاه واد ضيق محاط بالصخور، بينما اتحد الجيش وقافلة حمل الأمتعة في مسيرة واحدة تنساب قليلاً قليلاً مثل تدفق بحيرة إلى نهر ضيق.

يغطي الوادي عدد من أشجار السنط، وتوجد آثار لعدة مسارات على الطريق، وبركت الإبل على إثر إعلان عن هبوب عاصفة كان يخبئها الليل. أصبح الطريق بصفة عامة متساويًا ما عدا بعض النتوءات التي تظهر من وقت لآخر على الطريق حيث تستخدم الإشارات الضوئية ليكون الطريق أكثر سهولة لعربات جر المدافع التي تجرها الخيول من بدء المسيرة من بيشة.

نحن الآن نقترب من منتصف الليل، ومنذ الظهر وقت بداية الرحلة من الحيفة حتى الآن لم يتناول الجنود قطرة من الماء، وحوالي ستمائة جندي تركوا على جوانب الطريق دون أي مساعدة من الجنود الآخرين.

وكان رؤساء الجيش يمنعون بشدة أي نوع من تعابير التذمر. لم يذق أفراد هذا الجيش التعساء طعم اللحم ولا الخبز الطازج، ولذلك يعانون أقسى أنواع التعاسة. التعاسة والمعاناة التي كان من الممكن تجنبها أو

تفاديها لو توافر القائد الحكيم. أصبحت أحذية الجيش في حالة رديئة جدًا ولا يتوافر لدى مستودعات الجيش أي بديل. خصصت بعض الجمال لحمل الماء الضروري ولكن تركناها على بعد ساعات خلفنا، ولم نرغب في التوقف لانتظارها. يمكن أن نقول: إن الرؤساء يرغبون في قتل كل الناس الذين أوكل الباشا مسئوليتهم إلى ابن أخته، ومن الأعداء من لا يتصرف بمثل تلك الطريقة.

يعتني الأتراك بخيولهم أكثر من اعتنائهم بأفراد جيشهم. يطعمون بغال الحملة من الفول على قدر ما تريد، بينما الجنود لا يحصلون على ما يحتاجونه من طعام إلا بقدر ما يبقيهم أحياء. اليوم لن نطعم الجيش، وحتى مع أنه يعاني أشد المعاناة، أمر الجيش بالتوقف أكثر من مرة تحت حرارة الشمس ليتمكن رؤساؤه من شرب القهوة وتدخين الغلايين. وأخيراً صدر الأمر إلى الجنود بالاستراحة. فسقط كل جندي في مكان وقوفه. إنه من المستحيل أن يقوموا بأي عمل جيد.

وكانت درجات الحرارة:

طلوع الشمس	الظهر	منتصف الليل
٢٠°	٣٤°	٢٨°

١٠ أغسطس ١٨٣٤م

أوشك أن يكون الأمر مستحيلاً أن أجد جوادي ومتاعي في خضم الجلبة العامة، وعندما عثرت عليه ارتقيت تلّة من الرمل حيث ربطت حصاني بشجرة سنط، واتخذت من جذعها مخدة لرأسي. مكثت في ذلك المكان ساعة أتنفس بصعوبة من شدة العطش، ولكن تحملت العطش بشجاعة وصبر. وعندما رأيت أوربيًا يصل إلى جانبي لاحظت أن سرج

حصانه يشبه سرج حصان «سانكو ـ بانسا». هذا الأوربي كان شابًا يتعلّم الطبّ، ويقوم بعمل مساعد نصف ممرض ونصف صيدلي، ولي مكانة خاصة عنده من أجل خدمة بسيطة قدمتها له بحكم علاقتي الطيبة مع السيد «شديفو».

قال الشاب:

● أنا مسرور بمقابلتك، أنا دائمًا أشاهدك وبطريقة مميزة.

■ وكيف ذلك؟!

لأن حصانك اعتاد أن يشق طريقه بين الآخرين، ويقفز بك إلى الأمام دونما مشقة، بينما أرى رفاقك يبقون في وسط الزحام.

● هذا صحيح، وإنني بسببه أتمتع دائمًا بحرية، فهو يخلصني من الزحام بسرعة ويتأنى حينما نكون لوحدنا في الطريق.

ـ ومع هذا فإنك لا تحصل على المميزات التي أحصل عليها من حصاني. حصاني أكثر تواضعًا، يحمل حقائب تمويني وخاصة قربة الماء التي تعتبر أغلى السلع.

● وهل تبيعه؟!

■ وإنما سأوفره لي ولك إذا أردتني أن أفعل ذلك.

● لا يمكنني الرفض.

■ دع هؤلاء الرجال يذهبون بعيدًا عنا، سأعطيك شيئًا من الماء.

قام الممرض بوضع قربة مائه في مزودة وأخفاها بعناية مثل رجل أمين يمتلك محفظة مملوءة بالنقود في وسط لصوص. قدم إليّ الماء وقال:

● تظاهر بأنك نائم، وادفع برأسك تجاه الأرض واضغط على جوانب «الزمزمية» والماء سيدفع إلى فمك تلقائيًا.

■ نفذت تمامًا ما قاله لي، ثم أعدت إليه قربة الماء وإذا به يقول:

● احتفظ بها لنفسك، فما زال لدي واحدة مثلها في مزودي (خرجي)، كنت جهزتها للأحوال الإضطرارية.

وعندما وصلت الجمال التي تحمل الماء قمنا بتوزيعه على الجيش.

انتقل السيد/ م شديفو إلى مواقع الستمائة جندي الذين أنهكهم العطش وعندما اقترب هذا الدكتور من أحد الجنود قال له:

■ انهض.

● لا أرغب في النهوض.

■ اركب على الجمل:

● لا أود أن أركب على الجمل.

■ اشرب.

● لا أود أن أشرب.

■ إذن، ماذا تودّ أن تعمل؟!

● أرغب أن أبقى هنا، لأنني مرتاح هنا.

ليس أمامنا خيار سوى استخدام القوة في إنهاضهم وإركابهم على الجمال. وعندنا مثل يقول: «الذين يموتون من البرد يموتون ميتة سهلة». فالحالة ستكون مشابهة لأولئك الذين يموتون عطشا. وبعد ساعة ونصف الساعة من الراحة استأنف الجيش مسيرته ومكان الماء لا يزال بعيدًا من هنا.

برز في المقدمة عدة من جمال الشريف ذات السنام الواحد، واتخذت مكاني في المقدمة معها، وأصبحت زمزميتي (قربة مائي) خالية من الماء. وأصبحت جزءًا من الرجال التعساء، والمعرضين للموت من العطش، وأصبحت ملابسي ممزقة من أشواك أشجار السنط، وتعرضت لعدة ركلات من الخيل. كان حصاني منهكًا للرد على تلك الركلات، وكنت أسير حثيثًا

للوصول إلى المحطة القادمة متخذًا طريقًا منفصلة، ووجدت نفسي في طريق مملوء بالحفر والمنحنيات. وأخيرًا وصلت إلى حافة مجرى مغطى بقطع من أحجار الجرانيت.

وصلت مجموعة من خيالة عابدين بك ومحمد بك وبدو الشريف منصور يحملون معهم قرب ماء محجوزة للمشاة. وبعد أن وصلنا إلى المحطة وأخذنا قليلاً من الراحة حمل المذكوران سابقًا قرب الماء فوق أكتافهم، وقاما بتوزيعه على أفراد الجيش، وتم عمل عدة حفريات في مجرى الوادي بحثًا عن الماء، إلا أنه أُعلن أن البدو قد استنزفوا كل الماء الموجود.

كان مخيم الخيالة قد نصب في مكان غير بعيد من هنا، حيث ذهبت إليهم وعند ترجلي من على ظهر حصاني استقبلني مملوك أسود لـ «إبراهيم أفندي» وناولني مغرافين من الماء رشفتهما دفعة واحدة، ثم أرويت حصاني وذهبت إلى ظل شجرة أنتظر وصول بقية الجيش. وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر ضربت الطبول معلنة حالة التحضير والتي تعمل بشكل دوري كل ٢٢ ساعة.

وكانت درجات الحرارة:

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
٢٠°	٣٠°	٢٧°

الفصل الحادي عشر

ملاح - المياه المعدنية - القصدير - الرصاص - مغادرة ملاح - الطريق - واحة صغيرة مدمرة - محادثة مع دوسري - المغاربة - القلعة - المزارع - تحصينات جبلية - حرق مزارع النخيل - خضرة - الإقامة - حيرة حول الطريق - البدو - جاسوس - درجة الحرارة - ساقية - مقبرة - قبور - معدن - تفاصيل - درجة الحرارة - إنذار - رسالة من عايض - عوضة شيخ وادي حمامة - شيخ - فرسان؟ - علي الصعيري - عقارب - حد الحجاز وعسير - خليل - عمر أغا - جمال - قرية - وادي حمامة - علامات - فرسان من عسير - درجة الحرارة.

الفصل الحادي عشر

١٢ أغسطس ١٨٣٤م

تُكوّن جبال ملاح الممتدة من الشمال إلى الجنوب سدًا كبيرًا من صخور الجرانيت الصلدة، بينما السهول المحيطة من كل الجهات تغطيها أرض حصوية ذات طبقة رملية تميل إلى السواد تنمو فيها بعض الأعشاب الخضراء البرية. وحمدنا الله على أن أصبح الإنسان يرى بعض الأشجار وبعض الأدغال من الحشائش، ويستطيع المرء من بعيد أن يرى القرية التي نفترض أن اللصوص الذين يتابعون مسيرة الجيش يأتون منها.

وحينما كنت بالأمس أقوم بجولة في الهضاب المحيطة بالمعسكر وجدت في أحد الجبال المجاورة صخرة تلتصق بها قطعة من الصفيح النقي، وأثناء إقامتنا في منطقة الحيفة جمعت نماذج من الصخور التي تحتوي على مادة الرصاص والتي إذا تمكنتْ يد ماهرة من صقلها، استخرجت منها رصاصًا من نوعية ممتازة. شاهدنا أثناء سيرنا هذا اليوم بعض الأرانب والطيور.

ذهبت لأنام في العراء، وصحوت في وقت مبكر جدًا قبل طلوع الشمس، وإذا بي أشاهد كوكبة جميلة من نجوم سماء الشرق، عقدها المشع آخذ في الذبول أمام تباشير نور الفجر، ثم اختفت نهائيًا أمام أشعة الشمس الذهبية الجميلة.

أصبحت الجمال مهيأة للتحرك، وبدأت جموع الجنود تتحرك على أصوات ضربات الطبول، الطريق تغطيه أشجار كثيفة من السنط، والخيالة القاهريون يقودون خيولهم خلال هذه الورطة [1] - يمكن

(١) أي ورطة الطريق وكثافة أحجاره.

مقارنتها بقادة السفن في البحر الأحمر ـ وكلما تقدمنا قليلاً شاهدنا الجبال تتكون من الأحجار الجرانيتية. أعداد ضخمة من الحجارة متناثرة على سطح الأرض الواسعة، وكان تعليق (دوسري أبونقطة) على منظر اتساع هذه الرقعة:

* إنه مكان صالح لاتخاذه ميدانًا للمدفعية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصخور المتناثرة متكونة من حجارة الجرانيت الأقل صلابة.

قادنا هذا الطريق إلى شعاب صغيرة تفصل بينها الجبال، ولا تبدو جوانب تلك الشعاب سارة للمشاهد لها بل تجلب له الكآبة والخوف، من النادر أن ترى شجرة نامية في وسط الوديان في حين ترى الماء محجوزًا وراء حجارة متراكمة تمنعه من التسرب، وبعد قطع ثلاثة أرباع الطريق شاهدنا بعض أشجار الاسكليبيوس، وبعض نباتات ذات روائح عطرية نامية في أرض لا يوجد بها إلا التربة القليلة.

وبعد أن عبرنا جبلاً يشبه في شكله وتركيبه هيكلاً عظميًا لحيوان هزيل، شاهدنا في أسفله واديًا فيه بعض أشجار سنط مورقة، وبعد ذلك بقليل اكتشفنا مجموعة من أشجار النخل الغضّة والتي يعني منظرها لدى المسافر التأكد إلى حدّ ما بأن هذه علامة لوجود ينابيع للمياه، وبعدها بقليل رأينا قوسًا معلقة به بكرة، مما يدل على وجود ساقية (بئر).

إنها واحات صغيرة تسقى بواسطة ثلاث آبار حفرها البدو بكثير من الصبر وبالغ من العناء. كانت الحقول مزروعة بالقصب والذرة. أطلقت للخيول أعنتها للإغارة على تلك الغنيمة، ولما قاربت النباتات على الاختفاء، أرخيتُ لجوادي عنانه هو الآخر ليأخذ نصيبه.

سألت دورسري:

● لماذا ترك البدو حقولهم ولم يأخذوا ما كان يجب أن يأخذوه وهو الذي أراه الآن قد أصبح غنيمة للجيش؟!

■ في كل الحملات السابقة التي وجهت ضد عسير لم يسبق أن طرق الجيش هذا الطريق، ولهذا السبب فإن العرب هنا لم يتوقعوا زيارتنا.

● ولكنهم كانوا على علم بأننا كنا في ملاح.

■ جواسيسهم كانوا يتبعوننا من بيشة.

● إذن، لماذا لم يصلوا إلى هنا في وقت مبكر؟!

■ كانوا دائمًا يأملون أننا سنسلك طريقًا آخر، فعندما داهمهم الخطر جمعوا جمالهم ونساءهم وأطفالهم والمسنين من الناس، وأشياءهم الثمينة ـ أيضًا ـ ثم اختفى الطريق بهم.

شاهدنا بعض المغاربة يقودون بعض الأبقار، إنهم وبدون شك من ذلك النوع من البدو.

هؤلاء الخيالة عندهم المقدرة على شم رائحة هروب العدو، وغير سعيد الحظ، من مسافات بعيدة. لم يكن لدى العرب الوقت الكافي لتجميع حيواناتهم التي كانت متناثرة في الحقول للرعي. مازالت اسطبلات خيولهم دافئة، وكان من الممكن بسهولة اللحاق بهم والقبض عليهم أثناء هروبهم لو كنا نعرف الاتجاه الذي سلكوه.

بالقرب من الساقية «البئر» لاحظنا وجود مجرى ماء ناضب بعدما تُرك، واكتشفنا حامية بدوية انتهوا من بنائها لتوّهم، ولم ينته حفر الخندق المحيط بها بعد. كان ارتفاع حائطها خمسة عشر قدمًا ولها برج مراقبة مربع لإحكام الدفاع عنها يرفعه عمود قوي.

وغير بعيد من هذا المكان شاهدنا ثلاث سواقٍ (آبار) تُحيط بها حقول مزروعة، وأشجار النخيل اليانعة، وبعض الأشجار مائلة إلى الطول.

ولكنها متناسقة في المنظر العام.

كما يوجد في قمم الجبال المجاورة بُرجان في شكل جيد يُشبهان القلاع، ومبنيان بالحجارة يستخدمهما البدو كمركزين للدفاع عن أنفسهم في حالة مداهمة العدو لهم. أما هذه القلاع والأبراج فإنها مبنية على هيئة شبه دائرة أو على شكل حدوة الفرس، واعتقدنا للوهلة الأولى أن العسيريين قرروا التربص بجيش عدوهم في تلك المراكز.

ارتفعت أعمدة الدخان إلى السماء نتيجة للنيران التي أضرمناها في أشجار النخيل بينما تولى هذه المسئولية رجال الشريف منصور بناء على أوامر تلقوها من الباشا بعد أن أُخبر بأن سكان هذه القرية قاموا بتزويد العسيريين بأربعمائة رجل.

١٣ أغسطس ١٨٣٤م - المكوث في الخضراء

تدعى هذه المحطة وادي الخضراء. وفي صباح هذا اليوم أنهينا إحراق أشجار النخيل التي قاومت الحريق في المحاولة الأولى. كانت الأرض المزروعة لهذه المنطقة في الماضي محدودة، ولكن منذ سنتين أو ثلاث سنوات خلت، اتسعت رقعة الأرض المزروعة في اتجاه الوادي. ومعظم أشجار النخيل مازالت شابة، والسواقي أو الآبار حديثة البناء، وكل هذه ستبقى خرابًا لفترة طويلة. وقد عانى الناس وكذلك الحيوانات كثيراً من جراء هذه الهجمة في الوقت الذي كان فيه هذا الوادي الجميل عند وصولنا في قمة ازدهاره.

الطريق الذي نتبعه غير معروف لدى الباشا، ولكن البدو المرافقين للجيش يعرفونه جيدًا، بيْد أنهم لا يستطيعون تأكيد ما إذا كان يوجد مصادر للمياه في أكثر من مكان على هذا الطريق تكفي للأعداد الهائلة التي تتكون منها الحملة.

يوجد هنالك طريقان من وادي الخضراء إلى وادي شهران. طريق مباشر ولكن يوجد به الماء على مسافات متباعدة، أما الثاني فهو طريق طويل ولكن مصادر المياه فيه متقاربة.

تقدم بدو الشريف منصور لأخذ المبادرة في استطلاع المعلومات الصحيحة عن الطريق، ولم يعودوا بالجواب حتى الآن، ولعلهم يعودون في هذا المساء. وعاد إلى المعسكر اثنان من جواسيس جيشنا وهما اللذان ذهبا للتجسس على حركات جيش العدو منذ إقامتنا في بيشة، ولقد أكدا لنا أن العسيريين قاموا بتحصين أنفسهم في وادي شهران حيث ينتظروننا بفارغ الصبر، هذا ومن ناحية ثانية فقد اعتقد الشريف بصحة أخبار هذين الجاسوسين إلا أنه مع ذلك أكد لنا أننا لن نقوم بإطلاق رصاصة واحدة.

تربة وادي الخضراء غنية جدًا وكذلك تربة الجبال من السهل زراعتها. وكانت درجات الحرارة.

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٩°	٣٣°	٢٧°

١٤ أغسطس ١٨٣٤م

في المساء وصل الجواب الذي حمله رجال الشريف منصور. وقام هؤلاء الرجال بحفر حفر في بطون الأودية كمصادر للمياه، وعند طلوع الشمس تحركت مقدمة الجيش، وتبعناهم سالكين الطريق الذي سلكناه بالأمس عند زيارتنا للقلاع المار ذكرها.

وبعد هذه المسافة، نكون قد تركنا وادي الخضراء، وأصبحنا في واد آخر تبدو جوانبه خصبة جدًا، ومياهه غزيرة، والتربة تغطيها الحشائش

الخضراء، وخاصة في الضفة الرملية التي تبدو قاحلة في الظروف العادية، ووجدنا أنفسنا بعد قليل بالقرب من ساقية (بئر) قديمة تظلل فوهتها أغصان شجرة السرو المطلة من داخل البئر. ومن مسافة غير بعيدة شاهدنا مجموعة من أشجار النخيل المقطوعة وبعض أشجار التين المسودّة نتيجة للنيران التي أضرمها البدو الذين جاءوا إلى هذا المكان في وقت سابق. وعلى مسافة غير بعيدة إلى الأمام ترتفع أشجار النخيل من مقبرة ذات قبور عالية تشبه بيوت القرية، وهذه القبور ذات الشكل الغريب لم أر ما يماثلها في أي مكان آخر حتى الآن.

وآخر قبر محاط ببناء مستطيل مبني من أربعة جدران ارتفاع كل منها ستة أقدام، والبناء مسقوف بالحجارة، وله دعامات من جذوع أشجار النخيل، وفيه فتحة في الحائط يتمكن من خلالها المشاهد من رؤية ما بالداخل. ومثلما يجد الإنسان في كل مقابر العالم فإن القبور غير متساوية من حيث الطول. والسؤال المطروح: هل هذا البناء يا ترى يحتفظ برفات الأشخاص العاديين أم مخصص للشيوخ المهمّين؟!.

أما الجبال التي ترتفع فوق مكان المقبرة فإنها مغطاة بالأبراج أو أنصاف الأبراج الحجرية التي شاهدنا ما يماثلها في وادي الخضراء، وسبق الحديث عنها. ولم نشاهد قرى أخرى مجاورة، ولكن هذه الأعداد الكبيرة من القبور تدل على أن هذا المكان كان آهلًا بالسكان. وسألت بدويًا من بيشة عن السبب في انعزال هذه القبور، فكان جوابه:

* كان هذا الوادي أساسًا عامرًا بمزارع النخيل وغيره من الزروع الجميلة الأخرى إلّا أن السكان أجبروا على تركه بسبب انقطاع الأمطار لمدة أربع سنوات عانت منها هذه البلاد سيئة الحظ.

* ما اسم هذا الوادي؟!

* يطلق البدو عليه وادي «المعدن».

وجدنا خلف الجبال منذ فترة قرية تسمى معملة أو «مهملة». إنها اليوم قد أصبحت نصف مدمّرة، وعلى أي حال فإن الرعاة يتخذون منها نزلًا مؤقتًا. ومعدنًا لا يُشكل مساحة كبيرة إلا الموقع الذي تقع عليه الآن. إنما يُطلق على كل هذا الوادي اسم «وادي هرجاب».

وسألت البدوي:

* ما هو السبب في أنه لم يبق إلا عدد قليل من النخيل؟!

* لقد جرفها فيضان مدمر جاء بعد أربع سنوات الجفاف التي سبق ذكرها ومنذ ذلك الوقت لم يسكن في وادي هرجاب سكان بشكل مستقر ودائم. هؤلاء البدو الذين تراهم نصبوا خيامهم هنا لا يأتون إلا في أوقات الضرورة عند بذر الأرض وحصاد المحصول.

كثير من الجبال التي تكوّن أرضية ضفاف مجرى الوادي مغطاة بطبقات رملية قوية صالحة للزراعة، أما قمم الجبال فإنها تشبه لوحة مرسومة بالفسيفساء الكثير منها غني بالنماذج المعدنية. وقد اعتاد البدو في هذا المكان على دفن موتاهم في أعالي الجبال أو التلال من أجل حمايتهم من أخطار فيضانات السيول، وتنتشر المقابر بشكل ملحوظ على طول الطريق من الحيفة إلى «معدن»، حيث ترقد من ضمنها رفات بعض الصالحين الأجلاء الذين وافتهم المنية وهم منقطعون للعبادة.

درجات الحرارة.

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٨°	٣٣°	٢٨°

١٥ أغسطس ١٨٣٤م

في مساء هذا اليوم داهم المعسكر بعض اللصوص محاولين استغفال الحراس والسطو على بعض محتويات المخيم، ولكن القدر كان لهم بالمرصاد

إذ تنبه لهم جنود الحراسة فتبادلوا معهم إطلاق النار، وما أن سمع ذلك بدو الشريف منصور حتى ملأوا الفضاء بصرخاتهم الحربية التي لم تخل من لحن إيقاعي معين، وضربت الطبول وتنبه لأصدائها الجيش النظامي، وأصبح الجيش في صفوف منتظمة، وعندما اختفى اللصوص صدرت الأوامر إلى الجيش بالاستراحة انتظارًا إلى الصباح. وبعد ذلك أعلنت حالة الإنذار في مخيم الخيالة أو الفرسان، وفي هذه المرة أطلقت النيران من كل المواقع، وتوقع الكل أن هذا يعتبر هجومًا جادًّا من قبل العدو.

تسلم الباشا لتوّه رسالة من الأمير عايض بن مرعي وهذا نصها: «إن قدرك السيء يا أحمد أجبرك على المجيء إلى بلادنا لتلاقي حتفك. إن جيشك ليس بقوي، إنه يتكون من جنود تعساء لا يملكون ذرة من الشجاعة، ولا يطيقون تحمل الصحراء. لذا أنصحك بالعودة سالمًا الى حرمك إذا كنت ترغب في النجاة لك ولرجالك».

وفي الوقت نفسه قدم إلى الباشا الشيخ «عوضة» شيخ وادي حمامة معلنًا استسلامه. وتقدم إلى الباشا قائلاً:

* أرجو أن تعفو عن رجالي ومحصول أشجارنا ومزارعنا.

وأجاب القائد:

* رجالك معفون، ولكني في أمس الحاجة إلى طعام للجمال والخيول لأنها لم تأكل شيئًا منذ ما يقارب من اليومين.

* إذن، أنت ترغب في أن تخضعنا للمجاعة.

* لا، إن كل ما نحصل عليه منكم بحسابه، وعليّ عهد الله أن أعطيكم مقابله نقودًا.

بعد قبول هذه الشروط قدّم القائد لـ «عوضة» جوخة لارتدائها. وسيصل الجيش إلى بلاده في يوم الغد، أما الشيخ عوضة فقد عاد مسرعًا

إلى بلاده حيث أعلن نتائج مفاوضاته لقبيلته.

يقع وادي حمامة على مسافة غير بعيدة من وادي شهران حيث ذكرنا أن قوات الأمير عايض تنتظرنا هناك.

يبدو من هيئة الشيخ «عوضه» الذي يخضع لسلطة أمير عسير بأن سيده القديم - يعني أمير عسير - وصاحب السلطة عليه لم يرتب قوة عسكرية كافية.

قدم شيخ آخر جديد تقع قريته على بعد ثلاث ساعات من وادي حمامة، جاء هو الآخر ليعلن طاعته التي قبلها القائد.

أعلن الجواسيس أنهم شاهدوا ستين فارسًا أرسلهم العسيريون كفرق استطلاع، وأكد الجواسيس أنفسهم أن وادي حمامة مازال يحتفظ به الأعداء، وأنهم يُحكمون سيطرتهم على منابع المياه، لاعتقادهم بأن الجيش عند وصوله إلى هناك سيكون منهكًا ومتأوهًا من العطش بسبب المسافة بين الوادي والمحطة التي بدأ منها المسيرة، كما أكدوا - أيضًا - أن الموقع الذي يحتله جنود العدو يمثل موقعًا استراتيجيًا، ويقسم أرض الوادي إلى قسمين، ويجعل الدخول إليه صعبًا.

ولمواجهة هذا الوضع دعا أحمد باشا إلى اجتماع في خيمته حضره عدد من البدو المهمين، غير أن أكثر الحاضرين أعربوا عن تخوفهم من مواجهة هذا الظرف، ما عدا علي الصعيري - الذي تحدثنا عنه أثناء مكوثنا في بيشة - الذي قال:

«إنني أعرف الطريق جيدًا من هنا إلى حمامة، والمواقع التي تتحدثون عنها ليس بها أي شيء يدعو إلى التخوف، تستطيع فرق الفرسان والمدفعية أن تقوم بواجبها دون أن يُصادفها عائق، وحتى لو كانت قرية حمامة مزودة

بحامية، فسيكون من السهل أن ننفذ إلى بطن الوادي، إما من أعلاه أو من أسفله، وبذلك يستطيع الجيش أن يتزود بالماء دونما مشقة أو عناء». وأخيراً اختتم حديثه بقوله: «أنا أعرف تخطيط العسيريين جيدًا، فإنهم لن يأتوا ويكشفوا عن أنفسهم في الطريق الذي سنسلكه اليوم أو في الغد».

قبل مغادرتنا بقليل، وجدت في مفرشي عقربًا متوسط الحجم يختلط لونه ما بين الأسود والأخضر. وبعدها بقليل عثرت على عقرب آخر بحجم كبير ذات لون أبيض وأصفر، ولسعته عادة تكون مميتة.

بدأت حركة الجيش في منتصف النهار باتجاه الجنوب حيث بدأت مجاري الواديين تتسع شيئًا فشيئًا. وبعد ذلك دخلنا في سهول تكثر فيها أشجار الأراك، وعلى بعد خطوات من مجرى الوادي وجدنا ساقية تُشكّل احد الفاصل بين الحجاز وعسير، وبدأ الأفق يضيق بإطلالة تلال سوداء صغيرة، وبعد أن تجاوزناها دخلنا في سهول تُشبه السهول الآنفة الذكر.

يوجد في هذه البلاد أرانب كثيرة، وجد الخيالة متعة في ملاحقتها، وبعد قليل انتشر الجيش في سهل فسيح رائع يقترب نصف قطره من ستة فراسخ، مغطى بأشجار شوكية وحشائش خضراء. إنها تربة صالحة للزراعة حتى ولو كان الماء فيها غير منظور على السطح، فإنه سيتم الحصول عليه بحفر الآبار.

وصلنا إلى أقصى مكان في السهل لكي نتجنب أي [illegible] [illegible] أثناء الليل الذي أصبح يرخي سدوله. وخيمنا قرب الجبل الذي سنتسلقه غدًا عند بدء مسيرتنا. ونصب المخيم على شكل مثلث مفتوح عند واحدة من الزوايا بقدر ما يسمح بدخول الجمل محملاً. وعندما أصبحت كل لوازم الحملة بداخل هذا المثلث أغلقت تلك البوابة وبني حول المثلث من كل جوانبه حائط من حديد خشن. ومع أنه لا يوجد بهذا

المكان مصدر للمياه فإن الجيش لن يعاني من هذه المشكلة حيث يتوافر لدينا ما يكفي من الماء المنقول على ظهور الجمال».

درجات الحرارة.

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٦°	٣٢°	٢٦°

١٦ أغسطس ١٨٣٤م

كان لابد للجيش أن يمكث ليلة في العراء، وعند الصباح الباكر أُشعلت نار كبيرة شعت أنوارها على مساحة المخيم، وقام البدو بتقطيع لحوم الجمال وشيّها على هيئة قطع كبيرة في وسط اللهب، ثم أكلوا منها ما أكلوا، واحتفظوا بالباقي في مزاودهم. وما أن أطل الفجر حتى كانت الجمال محملة بأثقالها، والجيش على أهبة الاستعداد للحركة. وقد اعتدنا أن ننسى شيئًا من متاعنا في كل محطة عند مغادرتنا لها، فتأتي بعض القبائل المجاورة لأخذ ما نسيناه. وأي إنسان لديه إحساس يفضل أن يقع ذلك المتاع في يد من يستفيد منه بدلاً من أن يترك ليأكله التراب دون ما أية فائدة.

بعد رحيلنا قدم أربعة من البدو إلى مكان المخيم، بينما كان «عمر أغا» أحد رجال الباشا يتمتع بشجاعة فائقة، وكان متحمسًا لإثبات أهميته حتى وإن كانت النتيجة لا يستفيد منها أحد، وقام بالاختفاء وراء إحدى الصخور ينتظر اول قادم من البدو. وما ان قام أولئك البدو بمهمة التقاط بعض المتروكات، حتى هجم عليهم، والفضل كل الفضل يعود لحصانه الذي مكنه من اللحاق بهم، فأردى اثنين منهم بمسدسه، وقام بقطع آذانهما كشاهد على انتصاره، وقبض على واحد كأسير، وسلّمه إلى خادمه لحراسته. أما الرابع فقد أطلق ساقيه للريح راميًا بجراب متاعه الذي كان

به قليل من التمر يخفف عن نفسه الحمل أثناء جريه السريع وبذلك فقط تمكن من الإفلات، أما عمر أغا فقد جاء إلى الباشا ليطلعه على فعلته:

أفندينا، لقد خلصتك من ثلاثة من أعدائنا هذا الصباح، ولهم رابع غير بعيد من هذا المكان، استطاع أن ينجو على الرغم من جهودي المضنية التي بذلتها من أجل القبض عليه، وهؤلاء البدو كانوا من أتباع العسيريين، وهم جواسيس خطرون أرسلهم عايض بن مرعي، ولعلك تشاركني الشعور بأهمية العمل الذي قمت به، وهذه آذان اللذيْن قتلتهما، وهناك الأسير الذي أبقيته حيًا لعلك تستطيع الحصول منه على معلومات سرية.

قال له الباشا:

تصرفت تصرف العثماني، وسأبلغ المحاسب باعتماد صرف مبلغ مائة وخمسين قرشًا مكافأة لك على شجاعتك.

عندما يسقط الجمل من التعب يسارع الجنود بذبحه قبل موته، ويملأون مزاودهم من لحمه، ثم يقومون بشيّ هذا اللحم عندما نتوقف. وغالبًا ما تحدث مشاجرة على اقتسام الكبدة التي تعتبر جزءًا طريًا من لحم الجمل.

يقوم البدو بإشعال النار تحت بطون الجمال التي ترفض النهوض، فإذا امتنع الجمل عن النهوض بعدما تحرق النار جلدة بطنه فإن هذا دليل قاطع على اليأس من الجمل كليّة. أما إذا كان سبب امتناعه عن النهوض في الأساس نتيجة لكسل أو عناد فإنه من المستحيل أن يرفض النهوض عند إحساسه بالنار.

أينما نظر الإنسان هنا لا يقع نظره إلا على جبال قاحلة، وعارية حزينة لا يوجد أي أثر فيها لنوع من الأشجار حتى مع وجود هذه القنوات أي

مجاري السيول التي تبدو على نسق مستمر، وتشرف عليها قمم الجبال المتكونة من الصخور الصلدة التي لا تصلح تربتها للزراعة. وغالبًا ما يكون في قمم هذه الجبال كهوف طبيعية حيث يلجأ إليها الناس والجمال هربًا من حرارة النهار.

البدو الذين لا يعرفون الملل والتعب يتمتعون بتسلق القمم بطبقاتها المتعددة، فترى خيالاتهم ترسم خطًا أسود يتجلى بشكل مدهش، ومن ورائه لون السماء الأزرق، بينما يمكن تمييز الفلاحين من زيهم العسكري ومن عرقهم المتصبب من جباههم في أي وقت تراهم فيه.

أعلن الأدلاء اليوم والشيخ الذي جاء ليعلن استلامه في الخضراء والوارد ذكره فيما سبق عن قرب وصولنا إلى وادٍ خصيب مغطى بظلال أشجار عظيمة تبدت لنا في الأفق وكأنها لوحة مرسومة أمامنا. وكنت مستغربًا أين موقع ذلك الوادي المحظوظ من قبل الطبيعة، وها أنا أرى أمامي نخلتين باسقتين الأولى منهما كانت أول بوادر الأمل المطل للمحطة القادمة، حيث اندفعت بحصاني وما هي إلا فترة قصيرة حتى اكتشفت قرية تقع غير بعيد عن مكان النخلتين.

وأخبرني البدو بأن هذا المكان يدعى (سليل). إنه يُشبه المكان الذي خيمنا فيه الليلة السابقة. ويحيط بالسليل أشجار النخيل ونبات القطن وأشجار العنب الدانية. أما منازله فعالية وبها فتحات أو مضارب للبنادق ذات أشكال هرمية بأضلاع مربعة، ولها أبراج اسطوانية تنتهي بما يشبه السهام المخروطية. ويحيط بالقرية واحات صغيرة من كل جهاتها. أما السكان فقد قاموا بتركها بمجرد سماعهم بمرور الجيش عليها. وبوصولي إلى الجهة الثانية من السليل امتد نظري إلى وادي حمامة الجميل الذي يعتبر من أجمل ما رأيت.

وصلت إلى المحطة مع البدو الذين كانوا في مقدمة الجيش، وقضينا ما سمح به الوقت في التجوال والاطلاع على كل معالم القرية.

بنيت قرية حمامة على ضفتي الوادي. وبيوتها متباعدة عن بعضها البعض، ويكوّن كل واحد منها قلعة تعاضد المركز الرئيسي للدفاع عن القرية. وهذا دليل شاهد على أن الحرب لم تنقطع من هذه البلاد. وكل بيوت حمامة مبنية بالطريقة التي شاهدناها في السليل. حيطانها مبنية بالصخور الصلدة بينما تمتلىء الفتحات الواقعة بين الحجارة بأحجار صغيرة يحصلون عليها من ضفاف الوادي. وارتفاع الأبواب خمسة أقدام، وعرضها قدم واحدة [1] . مصنوعة من جذوع أشجار النخيل، وتساوي نصف سمك الحائط. أما النوافذ فإنها كبيرة جدًّا يُحيط بها إطار من الحجارة الصغيرة من حجارة المرو الجميل. وأبراج المنازل دائمًا تنتهي إلى الأعلى بشكل مدرج أما عند الأجزاء السفلى من المنازل فتحيط بها بعض المباني الصغيرة في شكل متساوٍ يستخدمها صاحب البيت لخزن محاصيله الزراعية بالإضافة إلى مكان لإيواء حيواناته.

وترتفع على ضفاف مجرى الوادي صفوف من أشجار النخيل، وترى بعض الجبال يظهر بشكل بارز في وسط حقول النخيل. ومناظر زراعة الذرة ونبات القطن وأشجار التين ودوالي العنب وأشجار الصفصاف متناسبة مع اخضرار الصحراء موحية للرائي بمنظر نباتي خلاب.

أما الآبار فتتكون من نقب بسيط عمل في ضفة الوادي، ويُجلب الماء بواسطة شبكة عمل منظمة، وتصب في حوض مبني من الحجارة، وينساب الماء عبر قناة محفورة على عمق قدم في التربة. أما أرضية القناة فإنها

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله يقصد سمك الباب نفسه.

مُغطاة بطبقة رقيقة من الرمل وعرضها يساوي عمقها، وتبدو وكأنها قناة جافة من صنع الإنسان، أما الجبال المجاورة فإنها من الجرانيت متشكلة من الدور الثاني.

يلتقي وادي حمامة مع وادي بيشة حيث تنحدر مياههما باتجاه الشمال. وقد وجدنا القرود في كل مكان أثناء طريقنا من بيشة إلى حمامة، وتكثر البيوت في هذا الوادي، وتمتاز أشجار النخيل فيه بارتفاعها المميز. ولكن طعم تمرها ليس بالجودة التي يمتاز بها تمر بيشة.

تقدّم فرسان عسير الذين كانوا يراقبون الأوضاع باتجاه أطراف السليل، وعند وصولهم إلى منتصف الطريق، لاحظوا ارتفاع عمود كبير من الغبار أثارته الريح فهربوا ظنًّا بأن الجيش المصري تقدّم باتجاههم.

ووصل الجيش النظامي إلى حمامة في تلك اللحظة، وهو مكوّن من تسع فرق (أو كتائب)، توزعت الفرق على مسافات متباعدة لتعطي للعرب فكرة عن مدى ضخامة قوة الحملة. وأطلّ سكان القرية برؤوسهم من أعلى شرفات منازلهم وتأملوا برعب الزي الأحمر للمصريين.

وخرقنا الاتفاق وبدأ الجنود يتسلّقون أشجار النخيل، والخيالة تدوس حقول البرسيم والذرة، وتحطم أبواب المنازل. وبدأنا نطلق النار على الأبواب المغلقة من أجل اقتحامها. وقف بدو الشريف منصور إلى جانب جماعة عوضة لمساعدتهم، واضطر الباشا والشريف الكبير إلى المجيء بشخصيهما إلى هذا المكان لإخماد هذه الفوضى.

أصبحت الليالي منذ مغادرتنا لبيشة تميل إلى البرودة يومًا بعد الآخر، وأصبحت أكثر رطوبة، وكانت السّحب تغطي السماء من وقت لآخر. وتعرضنا لزخة من المطر دامت نصف ساعة أثناء مرورنا على الطريق من

«معدن» إلى السليل، وعند الوصول إلى حمامة كانت «وقران»[1] الصخور تفيض بالمياه التي خلفتها السحابة الممطرة التي امتدت إلى هنا.

درجات الحرارة.

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٤°	٣٠°	٢٦°

(١) جمع وقر وهو عبارة عن حوض في الصخر يحتفظ بمياه الأمطار.

الفصل الثاني عشر

مغادرة وادي حمامة - المهمل الصغير والمهمل الكبير - الترمومتر - معسكر - نباتات - وادي شهران - بدو رعاة غنم - بدو مزارعين - درجة الحرارة - مغادرة وادي شهران - الجنفور - مقابر - أطلال - صليع (Chéléia) - محادثة مع دوسري - تفاصيل حول الأمير عايض - جاسوس لدوسري - رسالة من محمد بن عبدالله - معلومات عن العدو - الشريف بركات - قبيلة يام - تايوني - التموين - درجة الحرارة - تمرين حي بالذخيرة - تفاصيل حول الفرسان المغاربة.

العنب بعناقيدها الكثيفة البيضاء المتدلية، والسّواقي تظللها أشجار السرو. وأطراف ضفاف الوادي تستقلّ بخضرة تُوحي بالانشراح. ومنزلاً على هيئة برج يذكر منظره الإنسان بمداخن طواحين الهواء كتلك التي نشاهدها في أوربا. أما البيوت فقد هجرها معظم ساكنيها.

وانقسم الوادي حالاً إلى فرعين. فرع تُغطيه نباتات يانعة «طازجة»، والآخر يحتوي على الرمل والهضاب القاحلة الجرداء فقط. وفي نقطة انقسام الفرعين، تقف أكمة تُشبه شريحة رغيف الخبز، أسفلها مُحاط بحائط، وأعلاها محمي ببرج. وبقية هذه المساحة تُغطيها دوالي العنب وأشجار التين التي أصبحت مأوى للحمام والقماري، ومِلْكًا لها منذ أن تركها البدو.

تُدعى المحطة القادمة التي سنعسكر بها «المهمل الصغير». سميت بهذا الاسم تمييزًا لها عن المكان الذي مكثنا فيه الليلة الماضية، وهو الاسم الثاني الذي يطلق على حمامة «المهمل الكبير». تعيش في هذا الوادي أعداد ضخمة من الحمائم تشبه الطيور التي لها ريش أصفر تحت البطن، وظهورها ذات لون أخضر، ولون سماوي قرب أطراف الأجنحة.. ويُسميها البدو «حمام». ولهذا السبّب أطلق العرب على هذا الوادي اسم «وادي حمام»، لكثرة الحمام فيه.

قدمت هذه الطيور مُحلّقة فوق المعسكر، فأخذ الأشراف يُسلّون أنفسهم باصطيادها بإطلاق عيارات بنادقهم عليها. وحالما تسقط الواحدة منها، يسرع العبيد لالتقاطها وقطع أعناقها قبل موتها نهائيًا، إذ بدون هذه الطريقة لن يأكلها المسلم. كما يوجد بعض عصافير الجنة «السنونو» البيضاء كلها ما عدا الأجنحة فإنها تميل إلى السواد.

درجات الحرارة.

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٥°	٢٠°	٢٦°

١٨ أغسطس ١٨٣٤م

قبل نصف ساعة من بزوغ نور الفجر، ترك جنود الحراسات المرتفعات المحيطة بهم والتي رابطوا فيها طوال الليل، عائدين إلى المعسكر الذي كان على وشك التحرك، اتخذنا واحدًا من فرعيْ الوادي (سالفيْ الذكر) كطريق لنا. وهو الفرع المعروف بجفافه والذي لا يُحبِّذ أحد سلوكه. وبعد وقت قصير، وصلنا إلى نهايته، وكنا قد اجتزنا بنجاح تلك الهضاب ذات الصخور «الجرانيتية»، وبعض السهول الصغيرة التي كانت تُغطيها الأشجار والأعشاب.

يوجد على طول الطريق نباتات شيقة، يمكن أن تكون مادة طيبة لإجراء تجارب عليها من قبل علماء النبات. أما ما توصّلت إليه من معرفة عنها حسب معلوماتي البسيطة التي درستها في هذا الحقل، فقد تعرّفت على ما يلي:

Lactua - Scar,iola toraxamcumc filipodes.

أشجار التّين البري: معتدلة الطول مع أوراق صغيرة جدًا مع عدد كبير من الجذوع المتشابكة. وفي الوقت الذي كنت أتأمل بذهول وردة حمراء لها خمس ورقات خرجت من جذع مشدود إلى شق في صخرة «جرانيتية»، تَردّدت أصداء صرخات قوية من البدو معلنة عن إطلالة وادي شهران[1] الذي له مكانة عظيمة لدى العرب.

---

(١) هو وادي ابن هشبل كما سبق الإشارة، إليه وأصبح يعرف بوادي ابن هشبل نسبة =

الفصل الثاني عشر

١٧ أغسطس ١٨٣٤م

منذ كنا في طريقنا إلى حمامة، كان قد اتخذ قرار بالبقاء فيها بعض الوقت لجمع التموين الضروري للجيش، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يُعطي للجيش فرصة للاستراحة التي كان الجيش بحق في أمسّ الحاجة إليها، لا سيما وهو مُقْدم على مقابلة العدو بعد فترة قصيرة، فلابدّ من إعداده للظهور بمظهر المنتظر لهذا اللقاء، بالرغم من عناء وطول المسافة التي قطعها.

اتخذ هذا القرار عندما كان من المعتقد أن العسيريين يعسكرون في وادي شهران. ولكن طالما أنهم يعسكرون في مكان أبعد مما كان معتقدًا، فقد كان القرار التقدّم إلى الأمام حالاً، والاستفادة من النزاع الذي نشب في معسكر الأعداء، كما أُخبرنا بذلك.

غادر الجيش وادي حمامة عند الظهر، متتبّعًا ببطء أثر الجمال الجبلية التي يمتطيها البدو الذين أخذ عددهم يتكاثر كل يوم.

تتكوّن الجبال هنا كما هو في كل مكان من صخور الجرانيت المتكونة من الدور الثاني، أما الأراضي المنخفضة فإنها رملية تُغطيها أشجار السّنط أو أشجار الأراك.

بعد حوالي ساعة سنصل إلى بطن الوادي الذي تركناه توًّا، والذي لم نتبعه لكثرة تعاريجه. الرّمل يُغطي بطن الوادي. الماء المحجوب تحت سطح الرّمل يتسبّب في انغراس حوافر الخيول وإحداث طرطشة. يمكن للإنسان أن يرى أشجار الأثل الخضراء ونباتات الذرة والدخن وأشجار

عبّر سكان الوادي بنوع من الثقة عن عدم ترحيبهم بالباشا بأن قاموا بهجر منازلهم. وأصبحنا لفترة من الزمن مقتنعين إلى حدّ ما بالميزة الكبيرة التي يتمتّع بها البدو الرّحل من خلال طريقة حياتهم.

كل وقت مررنا فيه بالمناطق التي يقطنها البدو الرّحل، كنا نجدها خالية تمامًا، بينما نقل العرب خيامهم وأمتعتهم إلى مكان ما، متأكدين من أنهم لن يفقدوا شيئًا قد يضطرهم للانحناء أمام الباشا. أما المستقرّون من السكان فإنهم على العكس، لأن ارتباطهم بالأرض كبير، فإذا تركوا منازلهم فإن كل شيء سيتعرّض للتدمير والنّهب من قبل الجيش، وإذا مكثوا في منازلهم وجب عليهم تقديم الضريبة وإعلان تبعيتهم وخضوعهم لـ «محمد علي». وأصبح سهلاً علينا الآن أن نعرف لماذا يعتبر البدو أنفسهم في مكانة أعلى من مكانة المزارعين؟!.

لن أُمعن النّظر هنا وأعطي وصفًا لوادي شهران الجميل [1] من الناحية الزراعية، والمنظر البديع. فإنه وبلا حدود يمثل مكانة سامية بالمقارنة لما قد شاهدناه حتى الآن. فالسكان أكثر حماسة للحرب من سكان وادي حمامة، وهذا الوادي جوهرة طالما اشتهاها الفاتحون العرب، وقد استولى عليه أمير عسير علي بن مجثل مرةً ببالغ المشقة وأخضعه لسلطانه.

= إلى الشيخ ابن هشبل شيخ قبيلة بني بجاد وهم بطون من شهران ويتبعهم فخذ العواسج، ويطلق عليهم الآن العواشز وهم تاريخيًا من أشراف مدينة جُرَش التاريخية المعروفة في منطقة بلاد رفيدة ولبلاد بني بجاد وبنو قحافة حدود مع كل من بللحمر وبللسمر وعبيدة وبني واهب، وقد برز الشيخ سعيد بن هشبل في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وأوائل هذا القرن، وربما يكون أول من تسمى الوادي باسمه. اشتهر بشجاعته وكرمه وحب قبيلته له.

(١) سيظهر في العمل الجديد الذي سأنشره فيما بعد (ملاحظة المؤلف).

وكان يوجد حتى هذا الصباح خمسة عشر خيّالاً، وصفوا بأنهم مُكتشفون أرسلهم الأمير عايض بن مرعي، وقد سارعوا بمغادرة الوادي قبل وصولنا عائدين إلى سيدهم لتزويدهم بأخبار الأعداء.

درجات الحرارة.

الصباح	الظهر	الغروب
١٤°	٢٧°	٢٥°

١٩ أغسطس ١٨٣٤م

عند الوصول إلى وادي شهران، وجدنا سوقًا قائمًا تمامًا(*)، يبيع فيه الناس التمر والزبيب والخوخ والتين.. الخ الخ. رأيت شخصًا من بدو الشريف منصور والذي بعد أن حمل جملاً من فواكه الوادي، دفع بما تبقى إلى بائع ليبيعها، فبعد الألم والحرمان استمتعنا بتذوق الفواكه اللذيذة، وأولئك الذين معهم في جيوبهم بعض النقود صرفوها بسرعة فائقة.

بالأمس كان وادي شهران جميلاً جدًّا ومنعشًا كثيرًا وحقوله مازالت خضراء قبل أن تلتهمها جمال وخيول الجيش. أما مجموعة الأبراج والبيوت فقد هدمها أو مزقها البدو، وأخذوا أخشابها وأضرموها ليطهوا فوق نارها لحوم الحيوانات التي ماتت من شدة الإعياء أو من المرض. كما عبثوا بالدّلاء المصنوعة من الجلد والمعلقة على السواقي المنعزلة وبقنوات الرّي، وعرّوا الأشجار من فواكهها وأوراقها، والحقول حُصدت ثم عبث بها.

ظهر بعض الملّاك، من وقت لآخر، على قمم الجبال المجاورة يُشاهدون ببالغ الحزن ازدياد السّلب والنّهب، ويبدو عليهم الخوف وهم يرون أراضيهم وقد جُرّدت وحُوّلت إلى أرض قاحلة. وكانوا ينتظرون ببالغ

(*) سوق وادي ابن هشبل يقام يوم الاثنين من كل أسبوع.

اللهفة مغادرة هؤلاء البرابرة لبلادهم حيث ستبقى آثار التدمير والتخريب في كل مكان طرقوه. ومتى يا ترى يسمعون ببالغ السعادة آخر جلبة لصوت قافلة الحرب تختفي بعيدًا وراء الأفق؟!

سار الشريف منصور في المقدمة راسمًا من بعيد الطريق أمام الجيش غير النظامي. وانضمت الأعداد الكبيرة من راكبي الجمال الصغيرة (الهجن) المسلحين بالرمّاح الطويلة المزينة بـ «عكرة» من ريش النعام. أما الجيش النظامي فبين نزول وارتفاع حسب تعرّجات طبيعة الأرض، يدل عليهم من بعيد لمعان حرابهم تحت انعكاسات أشعة الشمس.. وهي مصقولة تشعّ بريقًا.

عبرت القافلة من خلال واد متعرج مزروع ببعض الأشجار الشوكية، ومرّت بتلال صخرية قاحلة. وغرزت في مكانين مختلفين من مجاري سيول مظللة جوانبها بأشجار السرو. وكانت تبدو من بعيد تلال جديدة وجدب جديد. ومن على قمة عالية يستطيع الإنسان أن يرى إطلالة وادي «الجنفور»[١] ببيوته المدمرة وأبراجه المتحطمة، وبقايا معسكر كبير متواضع جميل.

إن الجنفور واد جميل مزروع بغابة مثلثة من أشجار السرو، ولكن رطوبته وهواءه غالبًا ما تسبب في وباء الحمى التي تنتشر كل سنة، وفي وقت واحد. وقد قضي السكان القدماء لهذه البلاد بهذه اللعنة مما اضطرهم إلى نقل مساكنهم إلى مكان آخر، وقد يرحلون قرب القبور التي تحوي رفات آبائهم[٢].

---

(١) هذه الحمى قاتلة، تؤدي إلى وفاة المصاب بها، إما في اليوم الثالث أو الرابع. (ملاحظة المؤلف).

(٢) وتكتب ـ أيضًا ـ الجمفور انظر: كتاب «قبيلة شهران بين الماضي والحاضر» ص١٣٩، تأليف عبدالكريم آل طالع.

أما موقع الجنفور فيتكون من شكل أهليجي كبير، يقع بين الجبال المحاطة أعاليها بسور كبير مُتهدّم والذي كان لحماية معسكر أو كان مسرحًا لمعركة دموية، لأن الأرض المحيطة مغطاة بالقبور، وباتجاه الوسط البيضوي (الأهليج) توجد قلعة مربعة الشكل بنيت حينذاك. وفي داخلها تنقسم إلى غرف مثلثة الشكل حيث كان يوجد حراس القلعة، أما اليوم فإنها مجرد موقع خراب.

يُحيط مجرى وادي الجنفور المتعرج إلى حد ما بكل أسافل الجبال التي يقع في أعاليها القلاع المشار إليها، ثم يتشعب إلى ثلاثة فروع تجري في اتجاهات مختلفة تعتمد على غزارة المياه.

عندما يقوم سكان هذا المكان بدفن موتى أبناء جلدتهم، يضعون الميت في حفرة صغيرة عميقة ويغطونه بألوحه من الصخور الكبيرة، ثم يبنون على القبر بناء مثلث الشكل بمقاس مترين في متر، أما حفرة القبر فتكبس بالتراب والحجارة الصغيرة. ثم تُوضع فوق القبر شواهد بأحجار تختار بشيء يميزها إما من حيث شكلها أو فتاحة لونها.

درجات الحرارة.

الصباح	الظهر	الغروب
١٥°	٢٦°	٢٤°

٢٠ أغسطس ١٨٣٤م ـ رحلة في الجنفور

وصل بدوي يدعى صليع لتوّه من الخضراء حيث كان يعتقد أنه سيجد الجيش. كلفه الأمير عايض بحمل رسالة إلى الباشا والشريف الكبير. وبالرغم من الأسئلة الكثيرة التي وجهت إلى ذلك الساعي، لم يستطع أحد الحصول على أي معلومات عن حال الناس في عسير، فقد كان دائمًا متحفظًا على خصوصية مهمته.

ذهبت إلى مقابلة دوسري في خيمته، وسألته أن يخبرني عن مشروعات عايض الجديدة، فأخبرني بأن رئيس الحملة لم يطلع أحدًا على هذه الشئون ثم أضاف:

❋ ولكن أعتقد أن عائضًا تقدّم بمشروع يقترح فيه أن يكون تابعًا لـ «محمد علي» على شرط أن يُبقيه في مكانه كقائد لعسير.

❋ غالبًا ما حدثتني عن عايض فهل تعرفه في أيام صغره؟!

❋ أنا لا أعرفه ولا أحتفظ بأي ذكريات عنه.

❋ ما هو رأيك فيه؟!

❋ بناء على ما أخبرني به شخص عنه، لابد أن يكون عايض رجلاً ذا قلب كبير وشجاعة فائقة. ومع أن حصار (أبوعريش) كان محك اختبار له مع أنه كان مزودًا بقوة معقولة، إلا أنها أعطتني فكرة غير مرضية عن مقدرته، لأن تراجعه لم يكن في صالحه، وكانت تلك أول محاولة غير ناجحة سببت له فقدان ثقة القبائل التي لا تعتبره أهلاً ليخلف أولئك الرجال الذين اشتهروا مثل سلفيْه عليّ وسعيد(*).

(*) يقصد الأمير علي بن مجثل والأمير سعيد بن مسلط.

أما عن علاقة نسب الأمير عايض بن مرعي بكل من سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل فيجتمع بهما في جدهم الأعلى عبدالرحمن حيث أنجب عبدالرحمن هذا ولدين مسفر ويحيى، فأنجب مسفر مسلط، ومجثل فأنجب مسلط ابنه سعيد، وأنجب مجثل ابنه علي وسعيد وعلي أمهما واحدة، وتدعى وربما تلقب تُرابة بنت لاقي اليزيدي، وكان الأمير علي بن مجثل يعرف بابن تُرابة.

أما يحيى بن عبدالرحمن فقد أنجب ولدين وهما محمد وأحمد، فأنجب محمد ابنه أحمد، وأنجب أحمد ابنه محمد أمير عسير المشهور الذي قتل عام ١٢١٥هـ، وبمقتله انتهى حكم هذه الأسرة مؤقتًا لينتقل حكم عسير إلى أسرة أبي نقطة. أما أحمد بن يحيى، فقد أنجب محمد ومحمد هذا أنجب مرعي، وأنجب مرعي الأمير عايض. انظر: كتاب أخبار عسير لمؤلفه عبدالله بن علي بن مسفر ص٨٥. (المترجم).

يبلغ الأمير عايض من العمر ثلاثًا وثلاثين سنة، وطوله خمسة أقدام، وهو بدين (جدًا)، ولحيته كثّة، وحواجبه سوداء، وعيناه كبيرتان وتلمعان باستمرار كأنهما جوهرتان أو (ماستان). إنه ابن الأخ الأصغر للأميرين عليّ وسعيد من جانب الأب (١)، فهو منحدر مثلهما من قبيلة بني مغيد (٢)، وقد أصبح قائدها كحق موروث.

البدوي الذي قبض عليه عمر أغا في السليل يتبع لقبيلة «بني منبه»(٣)، وقد قام الشريف الكبير لتوّه بإطلاق سراحه. أما اللذان قُتلا، فواحد من قبيلة بني «واهب(٤)»، والآخر من قبيلة «ناهس(٥)».

---

(١) كان لـ «عليّ» أمير عسير أخ يدعى سعيد والذي توفي منذ خمس سنوات قبل قيام هذه الحملة، وعندما كان حيًا كان يشارك (عليّ) في السلطة العليا. كان رجلاً ذا طبيعة صلبة، وأقل مرونة من أخيه. (ملاحظة المؤلف)

(٢) بني مغيد من أشهر قبائل عسير، وحاضرتها مدينة أبها، وتمتد ديارها إلى تهامة غربًا، وإلى بلاد رفيدة قحطان وبعض بلاد شهران شرقًا، ويحدها من الشمال قبيلة علكم وبني مالك، ظلت إمارة عسير في هذه القبيلة لموقعها المتميز، ولصلابة وقوة شكيمة رجالها، ولم تخرج منها الإمارة إلا أثناء فترة حكم أسرة آل أبونقطة من قبيلة ربيعة ورفيدة التي امتد حكمها ما بين ١٢١٥هـ/ ١٢٣٩هـ.

(٣) (*)بنو منبه من بطون قبيلة شهران الكبيرة، وتسكن هذه القبيلة غرب وادي هرجاب، وعلى بعض أطراف وادي ترج، ولهم قرى تقع على وادي بيشة وروافده. انظر: عن أفخاذ هذه القبيلة المشهورة وأسماء قراها، عبد الكريم آل طالع في كتابه قبيلة شهران بين الماضي والحاضر ص٧٤٠. (المترجم).

(٤) (*)بنو واهب من أكبر قبائل شهران عددًا، وأوسعها أرضًا، لهم تاريخ حافل، اشتهر الكثير من رجالاتها في الجاهلية والإسلام. عرفوا بالشجاعة وشدة البأس، وتمتد ديار هذه القبيلة ما بين وادي ابن هشبل في الجنوب وبيشة في الشمال، وأهم مناطق ارتكازهم على وادي بيشة ووادي هرجاب والمسيرق وروافدها، وأكثرهم بدو رحل، ومشيخة هذه القبيلة في أسرة الفويه من الأسر العريقة المشهورة. (المترجم).
لمزيد من التفاصيل عن هذه القبيلة انظر المصدر السابق ص٥٥.

(٥) (*)ناهس من أكبر قبائل شهران، اشتهرت هذه القبيلة بالشجاعة والفروسية حيث =

لقد بعث والدا دوسري المقيمان في مساكن قبيلتهما برجل ثقة إلى بيشة، ولابد أنه يحمل رسائل على قدر كبير من الأهمية إلى دوسري، وقد حرص على عدم الإفصاح عن هويته.

كانت هيئة هذا الرجل غير سارّة، وكان يرتدي ثوبًا رثًا متّسخًا، وكان رأسه معصوبًا بقطعة من الشيفون الرثّ. وبالإضافة إلى هذا فعينه اليمنى عوراء.

عندما كنت أتحدث إلى دوسري في خيمته، دخل أحد العبيد الذين منحهم محمد علي لدوسري ليخبره بأن هناك شخصًا غريبًا يرغب في التحدث إليه.

سأل دوسري:

● ما اسمه؟!

أجاب العبد:

■ لا أعرف.

● اسأله عن هذه المعلومات.

■ لقد سألته هذا السؤال ولكنه رفض الإجابة.

● من أين قدم؟!

■ من عسير.

● ولماذا لم تقل هذا من أول «يا ابن الكلبة»؟!. دعه يدخل حالاً.

= كان منهم أشهر فرسان القبائل الجنوبية، وكانوا يملكون أجود الجياد العربية. وأصبح يضرب بفروسيتهم المثل، حيث يقول: (لا خيال إلا خيالة ناهس)! وكانت القبائل المجاورة لهم تخشى بأسهم، وتطلب ودهم، وأغلب أفراد هذه القبيلة بادية، منهم من استقر على ضفاف وادي يعرا، والبعض لهم قرى على وادي تندحة. (المترجم).

لم يتقدم الغريب، وعرف دوسري رجل بيشة فورًا. وقال له مضيفي دوسري:

■ السلام عليكم يا والد.

فأجاب البدوي:

● وعليكم السلام.

■ هل لديك أخبار جديدة مفيدة تطلعني عليها؟!

عوضًا عن إعطاء الإجابة . . .

ونظر العربي إلى سيده بذكاء مستفسرًا عما إذا كان يستطيع التحدث بحضوري، ففهم دوسري قصد المبعوث، فأجابه بإيماءة أخرى أن «نعم». فاستأنف المبعوث قائلاً:

ـ كلفني محمد بن عبدالله بإيصال الرسالة إليك.

ـ أعطني إياها.

أخذ البدوي أحد نعليه وأخذ في فتح الطبقتين الجلديتين اللتين يتكون منهما النعل، واستخرج منه ورقة مطوية وقدمها لسيده، وهذا محتواها:

«أخي العزيز [1]. كل أفراد قبيلتك صغيرهم وكبيرهم مسرورون جدًا من أن حاكم مصر عيّن عليهم حاكمًا من أبناء أبي نقطة، الذين يبجل كل واحد منا ذكراهم، وأنا أقترح عليك أن تأخذ المبادرة وتحضر قبل الباشا إذا كان هذا ممكنًا وتتسلّم قيادة مواطنيك، فكل واحد ينتظر ببالغ الصبر ليعلن عن انضمامه إلى جانبك. ولكي لا نثير شكوك عايض فقد أُجبرنا على أن نضم قواتنا إلى قواته، ولكن عندما نسمع أول طلقة مدفع سأقوم بلف علمي على رمحي، وعند هذه الإشارة سننضم إلى صفوفكم،

(١) هذا الشيخ مرسل الرسالة هو أخو دوسري لأمه. ملاحظة المؤلف.

وسيتبعنا رجال (بني مالك)، و(رجال ألمع)، وسيبقى مع عايض (علكم)، وبني (مغيد) فقط. وبصفة عامة فإن القبائل كلها في حيرة، لا يثقون في بعضهم البعض، ولن أكون مستغربًا أن تشهد البلاد اندلاع حرب أهلية في القريب. لقد تسلمنا الرسائل التي أرسلتها لنا من بيشة بواسطة الشخص الذي يقدم لك هذه المطوية».

قال دوسري:

● أليس لديك الآن يا صديقي شيء جديد تطلعني عليه؟!

قال حامل الرسالة:

■ قرر عايض انتظاركم في خميس مشيط، حيث يعمل الآن قدمًا على تحصينها، وفي حالة انهزامه فهو يُعدّ مشروعًا للتراجع إلى قلاع وبيوت تلك القرية، وسينتقل من واحدة إلى أخرى إذا تقدم أحد وأخذ الأولى، بالإضافة إلى أن القسم الأصغر من جيشه سيتقدّم للحرب في الخطوط الأمامية، بينما الجزء الأكبر من الجيش سيُحيط بكم مُداهمًا من الخلف ليضعكم بين نارين.

● هذه معلومات خطيرة ومهمة سأذهب لتبليغها للباشا، ولكن أولاً وقبل كل شيء قل لي بأي طريقة تمكنت من الوصول إلى هنا في مهمتك السريّة؟!

■ مادام أنني عشت فلن يتم ذلك دون ألم، ولكن يجب أن أشكر الله على هذا. من (طبب [1]) إلى هنا لم أذق من الطعام إلا قرصًا واحدًا من الخبز وشيئًا من التمر، ومع ذلك فتلك كمية قليلة جدًا. غالبًا ما كنت

(١) طبب اسم عاصمة قبيلة ربيعة ورفيدة، أصبحت عاصمة لمنطقة عسير في عهد حكم أسرة آل أبونقطة. دمرها محمد علي باشا في عام ١٨١٥م، ومازالت الأجزاء القديمة المدمرة من هذه البلدة واضحة المعالم مهجورة من السكان. (المترجم).

اضطر للاختفاء بين الأدغال وأعمل تحويلات طويلة لأتجنب فدائيي عايض، وأختفي وراء الصخور عندما أحس بالحاجة إلى راحة، وأخيرًا ها أنا هنا وبأمان، وعلى أي حال، أنا على أتم الاستعداد للمغادرة إذا كان هذا ضروريًا.

● استرح في خيمتي، وإذا رغبت في أي شيء فما عليك إلا أن تأمر عبيدي ليخدموك، ويمكن أن أحتاج لخدمتك مرة أخرى.. وفي وقت آخر، ها نحن هنا على مسافة من خميس مشيط حيث ستحدث الهزّة الأولى للجيوش.

يعتقد البعض بأننا يجب أن نهاجم العدو هذا اليوم. ولكن وصلت رسائل من شريف «اليمن» ويدعى بركات [1]، يُعلن فيها أنه سيحضر ليقوم بدوره معنا ومعه أربعمائة جمل محملة بالطعام الذي يكفي الجيش لمدة أربعة أيام، وسيصحبه ألف وخمسمائة رجل مسلحين بالرماح والبنادق. وقد قوبلت هذه الأخبار بالفرح البالغ لأن تموينا قد استهلك جميعه. وعلى أي حال فأهل هذه البلاد يخشون من جنود الشريف لشجاعتهم أولاً، ومساعدتهم سيكون لها دور كبير في ترجيح كفة الحرب.

قبل يوم الأمس، أرسلت قبيلة «يام» مندوبًا إلى أحمد باشا يسألونه أن يُحدّد مكان موعد اللقاء، فأخبرهم الجنرال (القائد) بأن يأتوا ويقابلوه قريبًا من خميس مشيط. ومن وادي شهران أرسل جاسوسًا إلى عسير يدعى (طامي) وهو ابن عم دوسري أبونقطة.

ذهب هذا البدوي على عجل إلى خميس مشيط، وقدر قوة مواقع العدو، ومن هناك لجأ إلى قرية في بلاد قبيلة بني مالك. وأخبر عايض عن

(١) لم نستطع تحديد هوية هذا الشريف.

وصوله، فأرسل في الحال عشرين فارسًا وأمرهم بالقبض عليه وإحضاره.

شاهد بعض البدو من بني مالك وعددهم ثلاثون فارسًا أولئك الفرسان فسلّموا أنفسهم وأجبروا خدام الأمير عايض على الهرب، ورافقوا (طامي) حتى وصل إلى (طبب [1] عاصمة رفيدة قبيلة دوسري . . سالمًا.

اجتمع أفراد هذه القبيلة في مكان حول القرية، وبعد أن ناقشوا مضمون الرسائل التي حملها الجاسوس، يبدو أنهم قرروا جميعًا رفض تأييد عايض والخروج عليه.

قبل غروب الشمس بساعة واحدة أطلقت عيارات البنادق تحية لوصول الشريف «بركات»، وامتطى أشراف المعسكر خيولهم وذهبوا في المقدمة لملاقاة الشريف الذي يتساوون معه في النسب إلى نسب رسول الله.

أما القادمون الجدد فكانوا وراء الجبل المجاور قد نظموا صفوفهم ووضعوا الجمال والراية في وسط الجيش. وكعادة العرب في المبالغة تبين أن الألف والخمسمائة رجل الذين وعد بهم الشريف قد انخفضوا إلى ثلاثمائة، وأن الأربعمائة جمل قد انخفض عددها إلى أربعين جملاً، وأن تموين الجيش لمدة أربعة أيام لا يكفي إلا لنصف يوم فقط، وبانتظار هذا المدد البسيط أضاع الجيش يومًا ثمينًا.

لم يتبق لدى الجيش إلا طعام يوم واحد فقط، معتمدين على ما سيحضره الشريف بركات. وعُمّد أمين خزنة الجيش بصرف راتب شهر

---

(١) ربما طلب طامي هذا الأمان من قبيلة بني مالك فأصبح الواجب حسب العرف القبلي يحتم عليهم حمايته، حتى وإن كان في ذلك إغضاب للأمير عايض. (المترجم).

مقدمًا لصف الضباط والجنود وكأن هؤلاء التعساء سيحصلون بهذه النقود على شيء يأكلونه في وسط الصحراء.

درجات الحرارة.

طلوع الشمس	الظهر	الغروب
١٤°	٢٦°	٢١°

في الساعة الواحدة صباحًا أطلق رجال المدفعية عشرين طلقة مدفع، وقامت الفرقة السابعة بمناورة حية قرب المعسكر، وخلال نصف ساعة نفذوا مهمة الإطلاق بنجاح. وسُمعت أصوات القصف في خميس مشيط، فاستجاب لها العدو بإطلاق رصاص البنادق بشكل متتابع وحيوية، وثلاث طلقات مدفعية.

هذه الطريقة في صنع الحرب تذكر الإنسان بالتحدي في كل الأوقات والتي يفتعلها الخصوم قبل الاشتباك بالأيدي. يرمي كل واحد برصاصة في الهواء من أجل ضياع محقّق. وبالنسبة لي يبدو أنه من العبث والسّخف أن يجد الإنسان نفسه في حالة عدم اتصال مع الأماكن التي يجب أن يقصفها عند الحاجة.

في تلك الليلة ضوعفت الحراسات المتقدمة. وطوقت المعسكر من كل جانب دوريات كبيرة من الخيالة. وفي الساعة الواحدة صباحًا أعلنت حالة الطوارىء نتيجة غارة قام بها أحد مواطني وادي شهران والذي يرغب بدون شكّ التعويض عما ألحق الجيش بممتلكاته من أضرار أثناء مروره خلال ذلك الوادي. وقبض المغاربة على هذا البدوي وأودع السجن. وغالبًا ما يجري الحديث عن هؤلاء الخيالة، وقبل أن نذهب بعيدًا سأعطي قرائي لمحة عنهم.

المغاربة الذين يوظفهم نائب الملك في مصر في خدمته هم من سكان السواحل البربرية أو من الذين يسكنون قريبًا من القاهرة والإسكندرية.

كان عدد هؤلاء الفرسان كبيرًا قبل تبني النظام الأوربي، ولكن منذ ازدياد حجم الجيش النظامي، بدأ محمد علي في التخلص منهم بإرسالهم إلى الحاميات البعيدة أو المناطق غير الصحية.

تتكون ملابس الجندي المغربي من طربوش وبعض «البابوش» وبنطلون (سروال)، ومعطف كبير مصنوع من الصوف ورداء روماني فضفاض لا يخلعه إطلاقًا. ويرتدي عدد قليل منهم طاقيات أو كوفيات بسيطة مصنوعة من البفتة (القطن الأبيض) يغطون بها رؤوسهم، وبذلك لا يخشون تعرضًا لضربات الشمس في أحرّ ساعات اليوم.

أما سلاحهم فيتكون من بنادق طويلة، تشتغل بالحجر الذي يحملونه كقذائف[1] (أو بدلاً عن الرصاص)، ومسدسين موضوعين في جراب من الجلد مثبت في سير معلق في الكتف الأيمن، ويتدلّى تحت الإبط الأيسر، لا أحد من أولئك الذين معنا يحمل سيفًا ما عدا الرؤساء، وغالبًا ما يذهب المغربي إلى المعركة مستخدمًا وسيلته الوحيدة في القتال سواء في حالة الهجوم أو الدفاع، وأحد المسدسان الذي يكذب عشر مرات قبل أن يثور.

ويتقاضى الخيال الذي له خدمة طويلة في الجيش ثمانين قرشًا راتبًا شهريًا، أما أولئك الذين سجلوا حديثًا للمشاركة في الحملة فقد تسلموا زيادة عشرين قرشًا، وكل مغربي يوجد قريبًا من القاهرة أو الاسكندرية يجد نفسه بدون نقود وبدون مصدر للرزق، يذهب للبحث عن رئيس الخيالة، ويطلب منه الانضمام في الخدمة تحت رايته. ومع أن الرئيس هذا يحصل على راتب جيد من الباشا، فهو دائمًا يحاول أن يرفع من راتبه على حساب الشيطان الفقير الذي دفعته الحاجة إليه ليقبل بكل شروطه دون

(١) وفي الغالب أن الحجر هنا يستخدم لقدح شرارة لإشعال البارود في هذا النوع من البنادق. (المترجم).

اعتراض. ويجد المغربي نفسه خاليًا من كل شيء، ومع هذا فهو بحاجة إلى ملابس وسلاح وحصان. ويُصبح المغربي مضطرًا للاقتراض، ولن يقرضه أحد إلا رئيسه، وعلى حساب راتبه البسيط، وسمعته غير الحسنة، وبالتأكيد سيعمل شيئًا غريبًا. وكما هو الحال في الشرق أو الغرب فالمعجزات لا تحدث يوميًا، لذا سيكون في غاية السعادة أن يجد قائدًا مستعدًا لإعطائه الوسائل مسلحًا ومجهزًا.

ولكن راتب الجندي بعد ذلك يفقد ربع قيمته على الأقل، فالحصان الذي قيمته لا تزيد على ثلاثمائة قرش يُعطى له بقيمة ألف وخمسمائة قرش، وتحدث القضية نفسها للتجهيزات الأخرى. ولكي يُؤمّن الجندي معيشته ويرفع ذلك الدّيْن يحتاج إلى عدة سنوات، خاصة إذا وضع الإنسان في اعتباره أن النسبة المئوية للأرباح في مصر عالية بمقدار ٢٪ في الشهر أو ٢٤٪ في السنة. وإذا تعرّض الإنسان لسوء طالع وفقد حصانه خلال هذه الفترة، فإن شعر رأسه سيصبح أبيض قبل أن يخلص نفسه من قبضة مقرضه. وكثيرًا ما يحدث أنه يفقد راحلته (حصانه) بسبب الحصول على قروش قليلة مقابل بيع نصف أو ثلاثة أرباع ما يحصل عليه من الشعير الذي يصرفه رئيسه طعامًا لحصانه.

وكيفما كانت الحال، فالمغربي مثله مثل كل إنسان آخر لديه شيء من الطموح، ولكي يرضي ذلك الطموح يدخل في عادة النفاق والغش والخداع، والتي أصبحت في هذه القلوب المحترقة والدماء المغلية إشكالاً وعدم استقرار. ويرون أن طريق نجاتهم الوحيدة هي ممارسة السلب والنهب أثناء الحروب. إنهم وبكل سرور يمتطون خيولهم إقدامًا على الموت للحصول على الغنيمة من العدو المهزوم وما هم بالمتسبب في هزيمته، لأنه إلى حد كبير لم يحدث هذا. ولكن الهزيمة تحصل بواسطة الجيش الذي هم جزء منه، والنهب والاغتيال والاغتصاب أمور عادية بالنسبة لهم، إنهم

يقتلون (وبدون رحمة) الناس الأبرياء. وهم عُمي كالجبناء، لا يحترمون طفلًا ولا شيخًا كبيرًا ولا جملًا.

كما أن الأطفال يخلفون الآباء فيجندون وهم لا يزالون شبابًا صغارًا طمعًا في نقود الباشا التي لا يمسها الطفل سيء الحظ إلا مرة واحدة.

وخيول هؤلاء الجنود سيئة التجهيز. السرج الكبير على الطراز المملوكي ونظام الفرسان المماليك نفسه، والذي لابد أن يحمل إضافة إلى تموين الماء مزودة مملوءة بالطعام، وغالبًا ما يكون نصيبهم منه قليلًا بما يكفي للشم فقط.

الفصل الثالث عشر

مغادرة الجنفور - وصف الجيش - الإطلالة على خميس مشيط - وصف - القلاع - الحصار - جاسوس - المدفعية - مساعد معسكر الباشا - القرى الغربية - ملاحقة البدو - الشريف محمد بن عون - الباشا - قطع الرؤوس والآذان - الأسرى - الاستيلاء على عدة قلاع - جيش البدو - المعركة - فرار محاربي عسير - تفاصيل حول المعركة - الباشا - الشريف الكبير - أمين بك - مستم بك - شريك بك - بكر أغا - مسيو شديفو - محادثة مع دوسري - عايض - إخلاء القلاع - مخازن تحت الأرض - قلعة.

الفصل الثالث عشر

٢١ أغسطس ١٨٣٤م

كان الجنفور بقلاعه وسوره الكبير المتهدم مغمورًا تحت دخان الصباح. وأصبح احتمال ظهور العدو أمامنا في أي لحظة. ولكي نتجنب أي مباغتة صدرت الأوامر إلى الفرسان الأتراك بتشكيل قوة متقدمة تسندها من الخلف قوات العرب الإضافية بقيادة الشريف الكبير، بينما يتمركز الجيش النظامي في الوسط تتبعهم قافلة حمل الأمتعة تحميها كتيبة من الجيش النظامي وبعض جنود المغاربة.

سرنا لمدة ساعة في مجرى نهر الجنفور الجاف. هذا المكان الذي قُتل فيه الشريف راجح [1]، عندما طرد العسيريون الحكومة التي فرضها عليهم محمد علي بعد هزيمته لهذه البلاد.

هنا تركنا وادي الجنفور، ولكن عدنا إليه مرة أخرى ثم عدنا وتركناه،

---

(١) الشريف راجح من أشراف مكة الذي أخلص في خدمة محمد علي، وكان من الذين رافقوه أثناء حملته ١٨١٤م على عسير، وقد لعب دورًا بارزًا في خدمة سيده، وكان

يقتلون (وبدون رحمة) الناس الأبرياء. وهم عُمي كالجبناء، لا يحترمون

ثم تسلقنا جبالًا صخرية. ومن قمة أحد الجبال شاهدنا خميس[1] مشيط حيث كان ينتظرنا العدو مختفيًا وراء تحصيناته.

لم أشاهد منذ تركنا الطائف مثل هذا التجمع الكبير من المنازل، ومن الجبال نظرنا إلى الأسفل فاكتشفنا وجود نهر جاف، وعمق السطح مقدار قدم، والماء نقي جدًا من الدرجة الأولى. وحوض خميس مشيط يبدو مخضرًا لوجود أشجار النخيل [2]، ونباتات القمح والذرة التي تنمو بشكل طويل جدًا. هذا الحوض مملوء بالجبال (الهضاب)، ويمكن رؤية العالية منها من الجنفور. وتعمقنا في الداخل متتبعين مجرى الوادي. وأسافل هذه الجبال مغطى بالقرى، حيث إن أكثرها كثافة سكانية وأهمية تمتد إلى السلسلة الجنوبية.

يوجد في هذا الجانب ستة حصون يمكن أن نطلق على آخر واحد منها قلعة بسبب حجمه. وكان قد مضى على طلوع الشمس ثلاث ساعات.

حافظ الشريف الكبير ومعه الجيش غير النظامي على مواقعهم المتقاربة، وتقدمت الفرقتان جنبًا إلى جنب، والفرقة الأولى ترسم وتنظم

(١) خميس مشيط حاضرة بلاد شهران، سميت خميس مشيط نسبة إلى سوق الخميس الأسبوعي الذي يُقام في هذا المكان من بلاد شهران في كل يوم خميس، ونُسب السوق إلى مشيط شيخ شمل قبيلة شهران وحامي سوقها، وكان قبل قدوم أسرة آل مشيط وتسيدها في قبيلة شهران يسمى سوق خميس ابن حمدان نسبة إلى ابن حمدان شيخ قبيلة شهران قبل قدوم مشيط من موطنه الأصلي في الحمرة من بلاد قحطان. ويعتبر سوق خميس مشيط من أكبر الأسواق الأسبوعية في منطقة عسير. وخميس مشيط اليوم أكبر مدن عسير كافة ومركز تجارتها. (المترجم).

(٢) ربما التبس على المؤلف حينما ذكر وجود أشجار النخيل فمن المعروف أنه لا يوجد في خميس مشيط نخيل.

للمعركة، والآخرون في صفوف لعدم مناسبة ميدان المعركة. ولكن قبل الوصول إلى القلعة سيكون من الممكن تنظيمهم جميعًا لخوض المعركة.

بدأنا بإقامة المعسكر، وفي الوقت نفسه ارتاح الجيش، ووصلت الأمتعة وحراسها ونفد كل التموين الغذائي. لذا يجب أن نكسب المعركة أو نموت جوعًا.

بعد ذلك بقليل أطلقت طلقتا مدفع معلنتين بدء المعركة. بادلنا العدو ومدافعي القلعة ببعض الطلقات. قتل واحد من رجال القلعة. وفي تمام الساعة الواحدة من بعد الظهر أصبحت كل مراكز الهجوم في حالة تعبئة عامة. ووضعت كتيبتان من الفوج السابع في ربوة صغيرة تقع إلى اليسار من القرى، وكان يقودهما الباشا بنفسه.

لقد اختير هذا الموقع لتفادي أي مباغتة لأننا علمنا أن العدو سيسلك هذا الطريق.

ثُبّت واحد من المدافع التابعة للشريف والجيش النظامي في مكان عالٍ لكي يُسيطر على مواقع الحصون. وتقدّمت للحرب كتيبة من الفوج السابع يقودها الشريف الكبير الذي كلف بمباشرة (أو إدارة) الحصار.

تقف إلى يمين الحصون خيالة محمد بك مع بعض عرب الشريف منصور وبعض من عرب عليّ الصعيري صاحب بيشة، أما بقية جنود الشريف منصور ومنهم رجال الشريف بركات فقد أخذوا الجانب الغربي.

وفي الوقت نفسه تمركز عابدين بك ومعه خيالة المغاربة في مكان منخفض - بفعل عامل تيار السيل - بين المحاصرين والتلة التي يتمركز فيها أحمد باشا. وبناء على تقرير أحد المخبرين، أفاد أن القائد استدعى كتيبتين من الفوج السابع بينما بقيت الثالثة والرابعة تقومان بحماية المعسكر.

وعند الظهر بدأ القصف بالمدافع إلى جانب مدفع رشاش خفيف موجّه إلى أحد الحصون. وأصبح رجال المدفعية على نصف الطريق من العدو. وأصبح الشريف الكبير الذي كان محايدًا متحمسًا قليًلا، حيث أخذ يشجع رجال المدافع بصوته ويصرخ عليهم آمرًا بالدخول في المعركة بصدق إذلم ينفذوا أوامره بالطريقة المناسبة.

وسألت أحد القادة:

● ما هو السبب في حماس الشريف الكبير؟!

أجاب القائد:

■ لابد أن يكون لديه ما يُبرّر هذا الشعور بالكراهية وخاصة لسكان عسير.

● حسنًا، أنت تعرف وأنا أعرف أنه كان برغب في نجاحهم.

■ نعم، ولكن في هذه اللحظة رائحة البارود وقصف المدافع جعله ينسى محاربته في صالح الترك.

كان هذا القائد الشجاع يدخّن غليونًا عندما يصوب رجال مدفعيته مدافعهم باتجاه القلعة. كان يعبّ غليونه عبة واحدة عند كل طلقة مدفع. وعندما تُصيب الطلقة هدفها يعبّ مرتين.

وحتى ونحن على مقربة من القلعة دار نقاش بيني وبين البنباشي [1]، وقلت له:

● إن رجال مدفعيتك لا يبدو أنهم يعملون كما يجب.

أجابني البنباشي:

■ إن هذه الأسوار «الملعونة» مبنية من التربة، تحدث الطلقة بها فجوة وتمر من خلالها دون أن تهدم كل الحائط.

(١) رتبة عسكرية تعني قائد الألف.

في تلك اللحظة قدم رجل من المعسكر، وعندما رآه القائد أطفأ غليونه لأن التعليمات الجديدة لا تسمح بالتدخين.

قال الضابط لقائد المدفعية:

● إن القرية الغربية قد هجرها البدو، وقد أكمل الشريف بركات ما بدأ به رجال المدفعية، وقد تمكن من إجبار العدو على إخلاء مواقعهم، لذا ركز طلقات مدفعيتك على الحصون، هذه الأوامر من الباشا.

في تلك اللحظة رأينا عربيًا ظاهرًا على مدرج أعلى بيت ويحمل علمًا يتكوّن من لونين الأحمر والأبيض. إنه علم الشريف بركات.

وصرخ محمد بن عون:

■ الفخر لسليل رسول الله. لقد أرانا أخونا الكبير الطريق إلى النصر بالرغم من تقدمه في السن. بركات المسن مازال شجاعًا.

توقف رجال المدفعية عن مواصلة قصف الحصون، بينما اختفى البدو وراء بعض الصخور ينتظرون اللحظة التي يظهر فيها المحاصرون من وراء المتاريس فيثوّرون في رؤوسهم.

عندما لا تُحدث الطلقة أو الرصاصة سحابة من الغبار فإنها إشارة تدل على أنها لم ترتطم بالجدار بل مرقت من خلال فتحة المتراس، حينئذ يصرخ العرب من الفرحة، اعتقادًا بأن أحد المحاصرين قد أصيب.

فيما بعد شاهدنا البدو وهم يهربون، وهذا دليل على أن القرية الثانية قد أُخليت. أجبر الشريف منصور والشريف حسين [1] العدو على المغادرة. وبعد ذلك بنصف ساعة سيطر الشريف عباس [2] على القرية

(١) إن هذا الشريف واحد من أشراف مكة (ملاحظة المؤلف).

(٢) أيضًا من أشراف مكة (ملاحظة المؤلف).

الثالثة ورفع عليها بيرقه.

وفجأة، بدأ المغاربة ورجال عابدين بك في ملاحقة البدو - يعني سكان عسير - وحذا حذوهم كل الأشراف، لم يعرف سكان عسير أين يختفون، وقد حاولوا الاختفاء في حقول الذرة، أما البعض فواصل هروبه باتجاه الغرب على أمل الوصول إلى الجبال ليحتموا بها.

أما دوسري أبونقطة وسلطان بن عبده، فكانا فخورين بهذا العمل لأنهما يرغبان في أن يثبتا للجيش أن محمد علي قد اختار الرجال المناسبين ذكاء وشجاعة.

عندما ترك العرب الحصون جريًا وراء الهاربين لحق بهم المحاصرون من قرب وأخذوا يُطلقون عليهم الرصاص، وذهب ذوو حب الاستطلاع واختفوا وراء الصخور الكبيرة التي لا تبعد أكثر من أقدام عن المدافع. كنت واقفًا إلى جانب الشريف الكبير ومعي اثنان من الأوربيين. شاهد ابن عون الرصاص وهو ينطلق من الهضاب قرب المكان، فأبلغنا بأن لا نتطوع ونظهر أنفسنا، عند ذلك دلنا على مكان نصبح فيه آمنين.

أجابه أحدنا:

* نحن تعدينا حالة الخطر وأنتم لا تقلون عنا حالًا في هذا الخصوص.

* هذا صحيح، ولكن واجبي أن أبقى هنا وأنتم تبقون هناك.

* نحن جئنا إلى هنا نبحث عن وسيلة نربك فيها عدونا، ونحن المسئولون عن تحمل كل النتائج.

قال الشريف ابن عون:

* نعم، إن الله قادر أن يختار رؤوسكم بدلًا من هؤلاء الفلاحين،

لذا أنذركم بالتراجع إلى الخلف.

وقبل أن يتمكن من الإجابة أصابت رصاصة أحد رجال المدفعية، فاسودَّ وجه ابن عون. فقلت لرفاقي:

* دعونا نذهب، قد يعتقد المسلمون بأن هذه الإصابات وقعت بسبب عنادنا، دعوه مع مدافعه، ودعونا نذهب لنرى ماذا يحدث في القرى.

اتجهنا باتجاه الجانب الذي كان فيه الباشا ومعه أربع كتائب وهي التي سبق وأن تحدثت عنها. وفي كل لحظة كنا نرى بعض البدو وبعض الفرسان يحملون على أسنة سيوفهم ورماحهم قطعًا مأخوذة من جثث الشهداء من الأعداء. وما أن حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى جمعوا عند أقدام الباشا ستة عشر رأسًا مقطوعًا واثنين وعشرين زوجًا من الآذان المصلومة، وأربعة وعشرين أسيرًا موثوقين انتظارًا لقتلهم.

أحضر الأتراك والمغاربة بعض الرجال الذين قبضوا عليهم، وقدموهم إلى قائدهم، وبعد ذلك أطلقوا عليهم النار من الخلف. ويمكن حدوث مثل هذه المناظر فقط عندما لا يملك الناس في قلوبهم ذرة من الشعور بالشرف أو الشجاعة. ما هي الفائدة من مناقشة (تدريب) الجيش على الطريقة الأوربية إذا تركناهم يخجلون أنفسهم بهذه التصرفات؟!، وأنا أعرف أن الجيش الحديث الذي يحمل سلاحه حتى الآن لا يمكن أن يدخل ضمن هذه الاتهامات. ولكن كيف يتسامح واحد من جنرالات محمد علي بمثل هذه التصرفات؟!.

حتى الساعة الرابعة، مازال رجال القلعة الكبيرة مع حصنين آخرين يدافعون عن أنفسهم، وكان البدو والفرسان غير النظاميين يُحيطون بها من كل جانب. لا يستطيع المحاصرون الهرب إلا إذا توقفوا حتى منتصف

الليل، وقد غيرت المدفعية مواقعها خمس مرات مقتربة شيئًا فشيئًا من مواقع العدو.

تسلّم الشريف الكبير تقريرًا من أحد الجواسيس، وذهب باتجاه المعسكر ليرى الباشا، وفي الوقت نفسه أعلن عمر أغا وهو الذي قتل البدويين في «السليل». . صارخًا من بعيد وحصانه مغطى بالدماء والعرق معًا ومعه ستة رؤوس مقطوعة مربوطة حول جسمه مثل الحزام، ترجل من على حصانه، وقدّم حصيلته إلى الباشا. وبعد أن عصر الدماء من الرؤوس، غسل يديه. وأهاج هذا المنظر الجنود مرة أخرى، فخنق كثيرًا من الأسرى عمدًا، دون أن يقول أحد شيئًا دفاعًا عن حقوقهم الإنسانية.

أعداد المدافعين في الحصون كثيرة، ولم يظهر عايض وجيشه مرة أخرى، ولكن لدينا خبر أنه سيعود عند نهاية النهار.

اصطحب الباشا معه كتيبتين من الفرقة السابعة وذهب إلى أعلى الجبل يبحث عن العدو، وبحث في كل مكان ولم يكتشف أي شيء. وفجأة صرخ أحد العرب:

* انظروا. . رجال من عسير.

نظر الناس إلى الاتجاه نفسه، حيث رأوا أعلامًا كثيرة تخفق بها الريح والجيش يتقدم باتجاهنا، وقالوا:

* إنهم يقتربون، ويجب ألّا نضيع لحظة في تنظيم صفوفنا لملاقاتهم.

كان عايض قد قسّم جيشه إلى ثلاثة صفوف، ولكن عندما رأى الجيش المصري أدمج اثنين من هذه الصفوف في صف واحد كبير.

عندما شاهد أحمد باشا البيارق تتقدم قال مخاطبًا أمين بك وبكر أغا:

* ها هو العدو يتحرك متقدمًا من ثلاث طرق، فبأي طريقة يجب أن نحاربه؟!

وبعد دقيقتين من التفكير اتخذ القائد أحمد باشا التدابير التالية:

* يتمركز فرسان الأتراك والمغاربة بعمل كمين في مجرى الوادي الذي ينحدر من الشرق إلى الغرب والذي لا يبعد عن مراكز الجيش النظامي أكثر من ألف قدم.
* يرابط الشريف الكبير ومعه كل العرب في المواقع المرتفعة.
* أما الباشا فيبقى على الوضع الذي كان عليه قبل ذلك.
* تنزل في الميدان كتيبتان من الفرقة السابعة لمواجهة العدو الذي أصبح في منتصف الطريق.
* يذهب (مصطفى بك [1]) على رأس كتيبتين من الفوج السادس لمشاركة (شريم بك [2]). . قائمقام [3] والذي كلف بالبقاء لحراسة الأمتعة، وإرسال الكتيبة الثالثة لتحتل الموقع الذي أخلته الكتيبتان السابقتان، وتبقى معه الكتيبة الرابعة فقط.

فحص الباشا الربوة التي تقابله. إنها أنسب مكان للمعركة، وأعطى الأوامر لجيشه بالتقدم نحو ذلك الاتجاه. وبعد خمس دقائق احتلت الكتيبة الثانية من الفوج السابع هذا الموقع، وتبعته الكتيبة التي تليها.

في ذلك الوقت توقف العدو عن التقدم وأخذ يستعد للمعركة في ربوة تغطيها الصخور التي منحتها الطبيعة بكثرة. برزت مشاتهم بشكل هلال في عرض خلّاب. أما خيالتهم أو فرسانهم فقد بقوا في الخلف، وكانوا نصف مختفين وراء الصخور كوحدات من الفرسان تهدد كتائب الميمنة المصرية.

---

(١) عقيد الفرقة أو الفوج السادس. (ملاحظة المؤلف).

(٢) عقيد الفرقة أو الفوج السابع. (ملاحظة المؤلف).

(٣) برتبة قائد.

كان عايض بن مرعي على رأس ستمائة من مشاة جيشه، وكان يحيط به خمسة من العرب على صهوات جياد جميلة، ويبدو أنهم لن يشتركوا في المعركة التي على وشك أن تبدأ.

أصبح الجيشان على بعد مرمى الهدف. الكتيبة الثانية من الفوج السابع أكثر تقدمًا من الأولى. وكان خوفهم أكثر من توقهم. بدأوا بإطلاق النار قبل صدور أوامر قادتهم إليهم.

عرف أمين بك أن المعركة قد بدأت فأمر مصطفى بك بالإسراع. أما الكتيبة الثالثة من الفوج السادس والتي كانت تتقدم في صفوف متتالية، فقد بدأت بإطلاق نيرانها قبل أن تستقر في ميدان المعركة. جاهد الجنود جنبًا إلى جنب ضد العدو.

فوجىء العدو بمثل هذا الهجوم وفقدوا السيطرة على أنفسهم فبدأوا بالانسحاب، ولكنهم جمعوا صفوفهم بعد سماع أصوات قادتهم، واتخذوا موقعًا آخر. ومع أن الموقع الجديد أفضل من القديم إلا أنه بعيد عن موقع جيشنا.

تقدم الجيش المصري بسرعة ولم يضع الفرصة السانحة، انضمت كتيبة الفوج السابع مع كتيبتي الفوج السادس والتي فتحت النيران قبل رؤيتها للعدو. وارتفع صراخ الجيش النظامي من الفرحة، ولم تعد أصوات القادة تسمع من الصريخ، وحاول الباشا تهدئة الموقف، ولكن الجنود تشجعوا على إثر التراجع العسيري وتقدموا أكثر فأكثر.

أما العدو، فقد أخلى مواقعه مرة أخرى وأصبح يبحث عن مكان آخر للتمركز. وفي الوقت نفسه خرج الأتراك والمغاربة من الكمين ولحقوا بالأعداء وهاجموهم من قرب بينما هاجمهم الشريف الكبير والشريف

منصور من الأمام. ولم يستطع سكان عسير الصمود في الميدان فانسحبوا الانسحاب النهائي.

وما أن أدرك عايض الانتصار التركي حتى عاد مسرعًا بينما كان رجاله يتبعهم الفرسان يشقون طريقًا خلال جثث قتلاهم. ومن حسن الحظ للعسيريين أن الظلام أسدل رداءه، وأصبح من المستحيل المطاردة إلى أبعد من هذا.

خلّف جيش العدو - الذي انهزم في خلال نصف ساعة - وراءه خمسمائة قتيل حول الحصون وفي ميدان المعركة وعددًا كبيرًا من الجرحى. وقبضنا عى خمسة وعشرين أسيرًا. أما الجموع التي شاركت في الحرب فتقدر بـ «ستة آلاف» رجل، أما القسم الذي كان متمركزًا للمراقبة، والذي كان مخططًا له مهاجمة المعسكر والاستيلاء عليه حينما يرى الفرصة المناسبة، فقد انسحب مثل ممن انسحبوا، وكانت قوّته مساوية لقوة الجيش الآخر.

وعندما أجبر جيش العدو على الهرب. أعطيت التعليمات إلى الجنود بالتشكيل في حالة معركة.

راقبوا الخيالة وهم يتتبعون فلول العدو، وكانت خسائر الجيش النظامي جندي وضابط برتبة نقيب وخمسة من الجرحى. أما خسائر الفرسان والبدو فكانت أربعة قتلى وخمسة عشر جريحًا، ومقتل ثمانية جياد. وجرح ثلاثة أشخاص من رماة المدافع.

وفي المساء، عاد كل الجيش إلى المعسكر منتصرًا، ولكن لم يكن لديهم شيء يأكلونه. وبهذا الخصوص أظهر الباشا والشريف الكبير شجاعة حقيقية، وكذلك أمين بك ومصطفى بك وشريم بك كانت تصرفاتهم

سليمة بغض النظر عن أصواتهم التي كانت ترعب الجنود. وبكر أغا [١] الذي أشار بالنصح الحسن على القائد في تحديد مواقع الجنود. ويجب أن لا ننسى الدور الكبير الذي لعبه السيد «م. شديفو» رئيس الأطباء والذي تقابله دائمًا في المواقع الأكثر خطورة، أو عندما يحتاج أي شخص إلى مساعدته. كان بصفة مستمرة قريبًا من مواقع الكتائب، وقدم أحسن ما لديه من الخبرة والمهارة. إنه بحق النموذج الحقيقي للطبيب الفرنسي.

تصرف الجنود مثلما لو كانوا في تجنيد إجباري، وكان لأخطائهم نتيجة حسنة واحدة وسنغفر لهم.

وزع الجنرال جوائز مقدارها خمسون قرشًا لكل رأس مقطوع، ومبلغًا مماثلًا لكل من أحضر زوجًا من الآذان أو أسيرًا، ومبلغ ثلاثمائة قرش تسلم حالًا لكل خيّال فقد حصانه، وبلغ مجموع الجوائز خمسًا وعشرين جائزة أو (١٢,٥٠٠) قرش. وهي جوائز الرؤوس والآذان، وكان نتيجة ذلك تغذية روح الكراهية.

وكان مقدار القذائف التي ضربت بها الحصون (٣٢٥) قذيفة.

٢٢ أغسطس ١٨٣٤م - رحلة في خميس مشيط

في هذا اليوم قمت بزيارة إلى دوسري أبونقطة وكان متعبًا من اليوم الماضي، وكان مسترخيًا على مقعده. وقلت له:

* مبارك على حسن صنيعكم بالأمس، لقد رأيتك وأنت تخلي القرى من العدو العربي.

(١) بكر أغا هو الاسم الذي اختاره لنفسه السيد م. ماري مرافق الباشا بوظيفة خبير تدريب، إنه جثة ضخمة ومن المحاربين القدامى في جيش الامبراطورية. «ملاحظة المؤلف».

أجاب دوسري:

* الشجاعة لن تساعدنا بأي شيء، فنحن نواجه عدوًا أكثر خطورة من عايض.
* إنها المجاعة!!.
* بالتأكيد.. هذا ما قصدته.
* لو أننا استغلينا خوف العدو الناجم عن انتصارنا سن المحتمل أن نجد بعض الطعام.
* هذا ما كنت أحاول توضيحه للباشا والشريف الكبير، ولكن لم أستطع إقناعهما، إنهم سيضيعون أيامًا قليلة على أمل الحصول على بعض الدقيق والقمح، ولكن الذي سنحصل عليه لن يكون كافيًا لسد حاجتنا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن سكان عسير سيتغلبون أو ينسون ما لحق بهم من ترويع، وسيعيدون بناء قوّتهم من جديد، وتعود الأوضاع إلى ما كانت عليه من قبل مرة أخرى. القضية ليست قضية تحقيق نصر، ولكن كيف نستفيد من النصر.
* على فكرة.. ما هو رأيك في خطة عايض للمعركة؟!
* يجب أن نعترف بأن سريّة خططهم كان قد كشفها لنا الجواسيس.

كان لدى عايض ثلاثة آلاف رجل في الحصون، وكان من السهل أن يحارب حتى المساء لأن القذائف، لا تتلف الأسوار المبنية من اللبن، ولن تستطيع أن تحدث بها أي فتحة إلا بعد أيام قليلة. ومن سوء حظ العدو أنهم لم يعرفوا أننا كنا نقذفهم بالقنابل. هذه المتفجرات أدخلت الرعب في نفوس المحاصرين، فأخلوا منازلهم وثلاثًا من القلاع. ولم يستطيعوا المقاومة فارتبكت خطة رئيسهم. عندما طوق المصريون خميس مشيط بقوة مكونة من ثلاثة آلاف رجل، كان من المفروض ظهورها في أعلى الجبال المواجهة للقلاع من أجل فصل قوة الباشا وفي الوقت نفسه قوّة عسكرية أخرى

مطابقة للأولى في العدد. وكان من المفروض أن تأتي للهجوم من الخلف فيحصرون العدو بين قوتين، وعند المساء تنضم قوة ثالثة مكونة من ستة آلاف رجـل ـ لم تشترك بأي شكل في المعركة ـ إلى القوتين الأوليين، ثم تستغل فرصة ارتباك المصريين، وبعد المعركة يتم الاستيلاء على المعسكر.

قال دوسري:

* أنا ذاهب إلى الحصون فهل ترغب في مرافقتي؟!

* بالتأكيد، ولكن مالي لا أراك تصطحب بندقيتك؟!

* أو لست تنوي أن تسرج حصانك؟!

* ليس بأمر ضروري، فلم يعد هناك وجود للعدو، لقد هربوا أثناء الليل.

* كيف عرفت؟!

* العلم ذو اللون الأبيض والأسود، والذي كان يرفرف على الأسوار بالأمس أصبح غير موجود الآن.

* بذلك فقد سيطر جيشنا على القلاع. وقد ترك الباشا العدو يرحل في المساء ليتجنب مشكلات مطاردتهم بنفسه.

دخلنا القلعة وقام القائد بتفتيشها، ولكن لم نجد فيها سوى أربعة من القتلى. كنا مستغربين كم كان عدد القتلى من المحاصرين. اعتقدنا بأن جثث القتلى قد نقلت ـ أيضًا ـ وفي تلك اللحظة تقدم فلاح إلى الباشا قائلا:

ـ لقد اكتشفت فتحة تحت الأرض.

أرسـل الجنـرال واحدًا من رجاله للاطلاع. أعلن الأخيران أسفل الفتحة مملوء بضحايا (جثث) القتلى، ويبلغ عددهم أربعًا وأربعين جثة. وعثر على بدوي غارق في بئر القلعة. نستطيع رؤية رأسه وشعره الطويل

طافيًا على سطح الماء. ترك البدو أربع جثث معروضة في الخارج لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإن المصريين سيلاحظون أن هناك شيئًا غامضًا، وعندها يبحثون في كل مكان. ومع وجود هذه الحركة الذكية فقد اكتشفوا الجثث الأخرى ـ أيضًا ـ.

سأل الباشا أمين بك عما إذا كان يوجد واحد من رجال خميس مشيط ضمن الأسرى فأجابه مساعد المعسكر:

* يوجد عدد كبير منهم.

بعد نصف ساعة أحضر بدوي شاحب الوجه في حراسة اثنين، فقال له الجنرال:

* أيها الصديق.. من أين أنت؟

* من خميس مشيط.

* لذا فمن المؤكد أنك تعرف كل التفاصيل عن القلعة.

* انظر إلى رجالك أمامك فإنهم يعرفون مثلما أعرف.

* أنا لا أسألك عن الشيء الذي تستطيع رؤيته، ولكنني آمرك أن تخبرنا كيف نصل إلى الكهوف التي تحت الأرض.

* ولكن يا سيدي.. لا أعرف.

* اعمل قرارك وإلا فإنني سأقطع رأسك حالًا.

قال العربي بغضب:

* احفر هنا، وستجد ما تبحث عنه.

وبناء على إشارته، بدأ المهندسون العسكريون بالحفر، وبعد نصف ساعة اكتشفوا خمس فتحات مختومة بما يشبه الألواح في عدة نقاط مختلفة.

كان الجنرال يرغب في معرفة ما بداخلها، فأمر أحد (البلطجية) أحد جنود فرقة الهندسة بالنزول في الفتحة الرابعة. ربطناه بحبل وأنزلناه من

خلال الفتحة. وعندما نزل إلى أسفل شعر بألم وطلب إخراجه.

اعتقد زملاؤنا أنه كان خائفًا فشجعوه على التجلّد فلم يرض بذلك، وأخيرًا أخرجناه. وعندما ظهر البلطجي المسكين كان جثة هامدة مختنقًا من انعدام الهواء.

وأخذ كل يفسر الأشياء بتفسيراته الخاصة. قال البعض إنها الأرواح الشريرة التي قتلته. وقال البعض الآخر إن البدو المختفين هناك خنقوه. أما التفسير الطبيعي فهو ما سيكشفه لنا العرب في الأخير.

تشجع إثنان من بدو الشريف منصور الطامعين في المكافأة بالنزول إلى تحت الأرض، وإذا لم نظهرهما في الوقت المناسب، فمن المؤكد أن مصيرهما سيكون مصير الأول نفسه.

وأخيرًا، وبعد تسرب الهواء إلى الداخل نزل كثير من الجنود بكل سهولة ووجدنا في الداخل كمية كبيرة من الأدوات الزراعية. بعض أكياس الدقيق وكراسي ثمينة محلاّة بالزخارف والنحت وملبّسة بالنحاس والحديد. هذا العمل (أي عمل النحت والزخرفة) من تنفيذ مهرة البدو، وكان جيدًا حقيقة.

بنيت القلعة الكبيرة فوق هذه الكهوف. إنه بناء مربع الشكل وارتفاع أسوارها خمسة وأربعون قدمًا، وأعلاها مُحاط بأحجار بيضاء رفيعة، تسمح للمحاصرين بالتصويب على العدو إذا حاول اقتحام البوابات. أما داخل البرج فمزخرف بطبقة من الدهان الأبيض والأحمر مثل طاولة الشطرنج.

صعدنا إلى الأعلى بواسطة درج وسلم لولبي معمول من جذوع الأشجار، مثبتة بالحيطان وبسارية عمودية طويلة. أما قاعدة البرج فيحيط بها حائط من اللبن يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، وعرضه أربعة أقدام. وثلاثة

من أركان القلعة تحميها أبراج صغيرة. وباتجاه الغرب كانوا قد حفروا بئرًا لم تستخدم قط. أما الفناء فتقسمه حيطان كبيرة تحمي المحاصرين من العدو حتى بعد اقتحام البوابات.

إنه عمل متقن، والفكرة تدل على براعة وذكاء. وأي عدو لا يمتلك مدفعية لا يستطيع إجبار المحاصرين على الاستسلام إلا إذا استخدم النار.

أنشئت القلعة تنفيذًا للمخططات التي رسمها علي بن مجثل أمير عسير والتي عملها قبل وفاته بعدة أشهر قليلة. ومن سوء حظ العدو أن هذا الموقع قادر على التحكم في التلال المناظرة له. ولكن المؤسسين أقاموا هذه القلعة لمقاومة هجمات البدو فقط. ولهذا السبب لم يعرفوا كيف يوقفوا تقدم عدو يملك المدافع وقادر على ضرب القلعة من مسافة بعيدة.

الفصل الرابع عشر

الإقامة في خميس مشيط - ما بعد المعركة - عايض يحرق بيت الأمير علي - سلطان بن عبده - مناوراته - شكوى دوسري - علي بن مشيط - علي الصعيري - التموين - الأسرى - رجال ألمع - بني مغيد - إنذار ليلي - ثلاثمائة جلدة - دوسري - عبدالله - ابنه - الشريف الكبير - مقتل أحد الأشراف - جرح أحد الأشراف - الفرس - التموين - الجمال - الحمير - البرق - السيول - درجات الحرارة - المناخ.

الفصل الرابع عشر

٢٣ أغسطس ١٨٣٤م - رحلة في خميس مشيط

بعد معركة خميس مشيط عاد جيش الأمير عايض إلى قراهم. لم يحتفظ الرئيس بأي واحد ما عدا رجال قبيلته. رأى رجال ألمع عائدين إلى بلادهم، سأل ابن دهبان عما إذا كان أذن لهم بالعودة، وبعد أن أجابه بالنفي، تساءل بغضب:

* كل واحد تركني وأنا مهدّد بالبقاء لوحدي. ولكن هذا لا يهمني، سوف أنسحب إلى قلاع «ريدة»، وإذا كان ضروريًّا فسأقبل أن أغمر نفسي تحت أنقاضها.

وفقًا للطريقة التي تصرف بها أمير عسير في هذه الظروف لمواجهة العدو يبدو لي أن خطابه لا يعلن عن حل حاسم.

اختار الأمير عايض قرية «مناظر» لتكون محل التقاء وتجمّع للقبائل ومقرًّا لإقامته أوقات السلم. وقبل انسحابه من هذا المكان توقف لفترة قصيرة في البيت الجميل الذي لم تمض فترة طويلة على بناء سلفه له.

وقال الأمير ...

الفصل الرابع عشر

* عملاؤنا السريّون لديهم دائمًا وقت كاف لإنذارنا.

كان يقول هذه الكلمات وهو يواصل سيره باتجاه الربوة، وبعد انتهائه من الصلاة التي دامت ساعتين، قال مخاطبًا ابن دهبان:

* انقل كل شيء لا يزال في بيتي ورحّله إلى «السقا»، وبعد ذلك أضرم النار في البيت، ولا تغادر حتى ترى النار قد أُضرمت تمامًا.

بعد فترة قصيرة، ارتفعت أعمدة اللهب والدخان من كل مخارج القصر، وتقوض البيت الجميل إلى أجزاء متهدمة.

كان الأمير علي مسرورًا جدًّا عندما بناه وزخرفه وتوّج به انتصاراته في جميع حملاته. إن ذلك القصر الجميل الذي أطلق عليه الأمير علي اسم «المفتاحة» ستتاح لنا الفرصة لرؤية أنقاضه في غضون أيام قليلة.

٢٤ أغسطس ١٨٣٤م - رحلة في خميس مشيط

منذ اليوم التالي للمعركة وسلطان بن عبده الذي هو رئيس قبيلة من قبائل عسير بحق الوراثة، يقضي معظم أوقاته إما عند الباشا أو تحت خيمة الشريف الكبير.

تلك المحادثات المشبوهة تُخفي بعض المشروعات المتعارضة ومصالح ورغبات دوسري بناء على روايات بعض الأشخاص الذين كانوا حاضرين أثناء هذه الاجتماعات. يبدو أنه أصبح من المؤكد أن رئيسي الحملة يرغبان في إعطاء (ابن عبده) قيادة أو حكم نصف البلدان التي يعتقد البعض أنها ستخضع. إنه من السهل معرفة الجانب الباعث لهذه الفكرة. فدوسري نصف تركي، وتربى في القاهرة، وسيكون مخلصًا وأمينًا لـ «محمد علي» في بلاد عسير، وليس هناك من شيء أفضل لدى الشريف الكبير من أن يرى

دوسري بعيدًا عن هذه الأمور، أو على الأقل التقليل من نفوذه كلما أمكن. ولهذا السبب حاول خلق خصم خطير ممثل في شخص سلطان بن عبده ضد دوسري.

ذهب دوسري اليوم إلى خيمة الباشا ليعلن عن مظلمته. بعد ساعة أرسل الباشا بعض الخدم لدعوة أعضاء مجلس إدارة الحملة ومن ضمنهم محمد بن عون.

كان النقاش عاصفًا والشريف الكبير بقي مصرًّا على نيته، وأُورد هنا الأسباب التي قدّمها لدوسري ليُبرّر فيها تصرفه.

(أ) قال: «إن سلطان بن عبده يُبادر كل يوم بخطوات يُحضر فيها طعامًا للجيش الذي هو في أمس الحاجة إليه.

(ب) أرسل مرات كثيرة مبعوثين إلى عسير ليطّلعوا على أحوال سكان البلاد ويحصلوا على تفاصيل استعداداتهم العسكرية، والآن يجب أن نكافئه على إخلاصه وتضحياته، وإنني سأعمل كل ما في وسعي لأجعل منه شريكًا في السلطة التي يُريد ولد أبونقطة أن يتمتع بها لوحده[1].

أجاب دوسري:

* يا ابن عون: يبدو أن الأسباب التي أوردتها جيدة جدًّا، ولكنها لن تمرّ بدون جواب عليها. أنا أشعر بالشعور نفسه الذي ذكرته، وأنا أعترف بالخدمات التي قدّمها سلطان بن عبده للجيش، ولكن أنت تعرف أنني قد عملت كل شيء من جانبي يعود بالنفع على الجيش. أنا غادرت القاهرة

---

(١) يلاحظ علاقة محمد بن عون بسلطان بن عبده عند دحلان! «خلاصة الكلام» مصدر سبق ذكره.

بناء على أوامر محمد علي لأصبح قائدًا لمنطقة عسير، ونائب الملك في مصر، وهو سلطتنا العليا، ولا أحد منا يملك الحق في وضع العراقيل ضد تنفيذ إرادته. وللأهمية، إصغ إلى ما سأعلنه أمامك، إذا لم يخولني أحد قيادة عسير فأنا عازم على العودة إلى القاهرة، وهناك أعود مرة أخرى إلى حياتي في الظل، والتي عايشتها لمدة ثلاث عشرة سنة في المنفى، حتى رضي الباشا العظيم أن يرشحني لمنصب هو من حقي بالوراثة، وسأترك الأمر لأولئك الناس الذين استولت على عقولهم معارضة إرادة سيدنا يتحملون كل مسئولية لتصرفاتهم».

حجج دوسري وبدون جدال أكثر وجاهة من دعوى خصمه، بالإضافة إلى غضبة محمد علي التي ليس من السهل على الباشا أو شريف مكة أن يعرض نفسه لها.

لم يستطع رؤساء الحملة منع أنفسهم من إعطاء الحق لصاحبه ابن أبي نقطة، ووجد سلطان بن عبده نفسه مجبرًا على التنازل عن ادعاءاته.

قال الباشا مخاطبًا دوسري:

* أعدك وفي لحيتي أن أوامر محمد علي المتعلقة بك ستنفذ بكل أمانة، وما نودّ أن نعمله لصالح سلطان ما هو إلا من أجل مكافأته لغيرته وتضحيته، وأعتقد أن علينا أن نعترف له بالجميل. وبالتالي نتوقع اعترافك أنت بتحياته، وأنا سأترك الأمر لك لتقديم الشكر له بالطريقة التي تختارها أنت.

استدار دوسري باتجاه خصمه، وقال له:

* سلطان، اعتبر نفسك في المستقبل شقيقًا، ولكي أثبت لك مشاعري التي أكنها تجاهك، أسلّمك قيادة قبيلة (علكم) والتي كنت شيخًا لها قبل أن يقصيك الأمير علي من بلادك على شرط أن تُطلعني على

كل كبيرة وصغيرة من أعمالك، مثلك مثل التابع إلى رئيسه - وبموجب تنفيذ هذا الشرط سنكون صديقين حميمين.

قبل سلطان بدون أن يطلبه أحد، وغادر في الليلة نفسها إلى بلاد قبيلته حيث كان يتوقعه أتباعه هناك. وحتى الآن كل شيء يسير على ما يرام، ولكن يبدو لي أن الخصمين يتصرفان مثل أولئك الصيادين المشتغلين ببيع جلود «الدببة» والمختصمين على بيع جلودها قبل صيدها.

لقد قدم إلى المعسكر حتى الآن خمسة وعشرون شيخًا من شيوخ عسير، معلنين طاعتهم. وسيحدث لهم مثلما حدث لأولئك الذين قابلونا في منتصف الطريق يطلبون الأمان. والذي يبدو أن كل واحد منهم معرض للاستسلام، ولكن مازال عايض يرأس ما لا يقل عن خمسة عشر ألفًا من الجيش.

٢٥ أغسطس ١٨٣٤م - رحلة في خميس مشيط

حصل الشيخ علي بن مشيط شيخ خميس مشيط على الأمان لقبيلته، ووعد بأنه سيزود الجيش باحتياجاته، وفي الوقت نفسه وقع الشيخ علي الصعيري صاحب بيشة اتفاقية مع البدو بموجبها يبتاع الجيش الأردب من الشعير بـ (٢) تالاريز، ودقيق القمح بـ (٣) تالاريز. وقد سلم له بشأن ذلك مبلغ (٣٥٠٠) تالاريز.

غادر علي الصعيري المعسكر للقيام برحلة كلّفه بها الباشا في البحث عن مشيط (١)، الذي خاف على نفسه فهرب مختفيًا في الجبال، وإبلاغه الأمان الذي منحه إياه الباشا.

(١) هل هو عليّ بن مشيط السابق ذكره أم هو مشيط الكبير؟! حيث لا نعرف متى كانت وفاة الشيخ مشيط بن سالم وربما كان ينوب عنه ولده قيادة قبيلته في آخر أيامه.

عاد سكان القرى التي منح شيوخها العفو إلى مواصلة حياتهم العادية والمحافظة على ممتلكاتهم. وقد منحهم الباشا والشريف الكبير العفو على أن يحضروا المواد الاستهلاكية لبيعها في المعسكر بأسعار معقولة. ويمتلك السكان المجاورون مقادير عظيمة من غلال الحبوب قاموا بإخفائها في مخازن تحت الأرض(١) أو في مغارات في الجبال.

كانت أسعار الزبد(٢) ثمانية قروش قبل ثلاثة أيام للباوند. أما اليوم فيباع الباوند بـ (٢,٥) قرش.

سعر اللحم انخفض من ثلاثة قروش إلى ثلاثين بارة.. الشعير والدقيق دائمًا يباع بأسعار عالية يكلف الروب "Roub"(٣) تالاريز واحد، ومع هذا يصعب الحصول عليه.

دفع الأسرى فدية لإطلاق سراحهم غلّات من الحبوب، بعضهم أجبر على تسليم ثلاثين إردبًا من القمح، والبعض خمسين إردبًا، أما الأغنياء فقد فرض عليهم مائة إردب، وبمجرد ما يوفي البدوي بهذه الشروط تعاد له حريته.

قدم اليوم شيخ «رجال ألمع الحجاز» ليعلن استسلامه، أما شيخ «رجال ألمع اليمن»(٤) فلم يحضر بعد، ولكن البعض يعتقد أنه سيحضر حالما يعرف أن زميله قد تم العفو عنه، ونحن نعرف أن هذين الشيخين

---

(١) تلك المخازن تسمى المدافن: جمع مدفن هي تلك المخازن الأرضية السرية التي تحفر في الصخر بشكل مجوف يتسع بعضها لمائة فرق حب أو أكثر من الذرة أو الشعير حوالي خمسة آلاف كيلو، وهذه المدافن تحفر في أماكن خاصة قد يتراوح عمقها من خمسة إلى ستة أمتار تحت الأرض.

(٢) السمن.

(٣) هكذا ورد في النص الأصلي، ولم أجد له معنى. ولكن من الواقع انها وحدة قياس للحبوب.

(٤) سبق التعريف والتفريق بين ألمع الحجاز وألمع الشام وألمع اليمن.

قد أرسلا ممثلين عنهما إلى بيشة ليقدّما للباشا مساعدتهما ضد العسيريين. وبما أنهما لم يكونا راضيين عن تلك المحادثات، فقد قدّما ألفيْ رجل حاربوا تحت راية عايض في الحرب الأخيرة.

أخبر بدو قبيلة بني مغيد المحاذين لقبيلة (علكم) أن الجيش يدمر البلاد في سبيل الحصول على حاجته من الجنود والحيوانات، فكتبوا إلى الباشا والشريف الكبير يعلنون عن موافقتهم على قبول الاعتراف بسلطة محمد علي، فقبل رئيسا الحملة هذا الاعتراف. ومعلوم أن عايض من سلالة (بني مغيد) وهو قائد هذه القبيلة، قبل أن يعتلي سدة الحكم في عسير.

وصلت أخبار تشير إلى أن رئيس العدو أصبح حساسًا جدًّا من تمرد قبائله، وأنه يعسكر الآن في جبل يدعى «السقا (١)» بجوار قرية تحمل الاسم نفسه. لقد قرر عايض تجربة المقاومة العسكرية مرة أخرى في هذا الموقع، وإذا قلب القدر له ظهر المجن فإنه سينحدر إلى الأقسام السفلى من الجبال حيث تقع حصون «ريدة» كآخر ملجأ.

في حوالي الساعة العاشرة مساء أعلنت حالة الاستنفار. بدأ أحد «الأمباشيه» والمكلف بالحراسة في إحدى النقاط الخارجية بالصراخ مشيرًا إلى أن العدو يهجم على المعسكر من جهة القرى. أطلقت المدفعية ثلاث طلقات، وأصبح الجيش كله جاهزًا تحت السلاح.

بعد مرور نصف ساعة أدركوا أنها غلطة، وعاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي. وفي الصباح استدعى الكولونيل «الأنباشي» الذي سبب كل ذلك الإزعاج، وسأله:

---

(١) عاصمة عسير قبل أبها، وتبعد عن أبها بضعة كيلو مترات.

* ما هو السبب الذي جَعلك تسبب حالة الإنذار في المعسكر البارحة؟!

* بدو عايض. لقد رأيتهم مثلما أراك الآن يا حضرة الكولونيل.

* هل كان عددهم كبيرًا؟!

* كانوا كلهم يمتطون خيولًا يتطاير الشرر من عيونها وخشومها (مثل البراق).

* كفى.. كفى.. لقد أدركت ما هي: لقد خدّرت نفسك بالحشيش وجئت إلى هنا لتفرغ علينا كل التخيلات التي مرت في عقلك.

* أنا أقسم...

* لا تقسم، لأني سأنزل بك أقصى أنواع العقوبة.

* «بكيفك» يا سيدي

* السورة التي في «القرآن» التي تحرم تعاطي أي نوع من أنواع المخدرات. وسترى الآن ما إذا كان التحريم صحيحًا. رجل واحد في هذه الحال يكفي أن يضحي بجيش كامل، ولكي تمتنع عن تناول المواد المخدرة في المستقبل، وبصفة خاصة عندما تقوم بواجب الحراسة في النقاط المتقدمة، فقد حكمنا عليك بثلاثمائة جلدة على المؤخرة.

* ألتمس عفوك يا سيدي، فمنذ ثلاثة أيام لم أتناول من الطعام إلا بعض سيقان الذرة كغذاء، وكمهرب من مواجهة الحقيقة المخيفة وجدت نفسي مضطرًا لتناول الحشيش. عندما غادرت قريتي أعطتني أمي العزيزة علبة صغيرة، وقالت لي:

* ولدي العزيز، إنك ستفارقني، ومن يدري، فلعل هذه آخر مرة أسمع فيها صوتك. عندما تكون في بلاد أجنبية وترغب أن تعود بأفكارك إلى الماضي.. تناول قليلًا من محتوى هذه العلبة بقدر حجم البلحة،

عندها ستجد أنك انتقلت بفكرك إلى أن تكون بيننا تحت ظلال النخيل على ضفاف نهر النيل الخصبة حيث كان مولدك.

* لكي تنفذ وصية أمك كان عليك أن تختار الوقت المناسب، لأن توقيتك هذا جلب عليك ثلاثمائة جلدة.

وأُحضر الرجل المسكين ونفّذ الشاويش فيه الحكم تمامًا.

تقدم دوسري بعرض للالتحاق برجال قبيلته. لا شيء يستطيع وصف مشاعره وهي أن يرى قريته مرة أخرى.

في طريقنا ونحن نقترب من حدود بلاد عسير تتفتح أساريره شيئًا فشيئًا. وفيما بعد عندما التقيت به حينما كنا نتسلق أحد الجبال العالية. وعندما وصلنا إلى أعلى الجبل قال لي وهو يشير بإصبعه إلى القمم الظاهرة من بعيد تحت أديم السماء الزرقاء:

* هناك يقع المكان الذي تركت به زوجة شابة حاملًا، ووالدتي المسنّة والتي لا تزال على قيد الحياة. هناك يقع المكان الذي قضيت به أسعد أيام شبابي.

عندما وصلنا إلى خميس مشيط كان دوسري يتوقع أن يرى رجال قبيلته لينضموا بقوّتهم إلى جيشنا، ولكن الحيطة التي اتخذها عايض منعتهم من تنفيذ مشروعهم، لأن ذلك السيد (يقصد عايض) أصرّ على أخذ رهائن من شيوخ وعوائل تلك القبيلة، وأجبرهم على المحاربة في المراكز العسيرية. كانت مجموعة من عرب قبيلة رفيدة مرابطة في حصون خميس مشيط، من أجل أن يكونوا في خط النار الأول. وعندما قرب دوسري في يوم المعركة، دارت محاورة من على مسافة بين رجال القبيلة الذين كان مغلقًا عليهم في القلعة ومجموعة قليلة من القبيلة نفسها التي استطاعت أن تنضم إلى ابن أبي نقطة.

بعد المعركة استغل رجال رفيدة فرصة الارتباك بعد انفصال المعركة فأخذوا أسرى قبيلتهم وأعادوهم إلى بلادهم مستعيدين حريتهم ليتصرفوا بما تمليه عليهم إرادتهم.

وفيما بعد قدم ولد ابن (أبونقطة) من عاصمة رفيدة (طبب) على رأس خمسمائة رجل، أربعمائة منهم كانوا يرابطون على مقربة من خميس مشيط بينما كان يرافقه مائة رجل من وجهاء العرب وصلوا لتوّهم إلى المعسكر.

تقدم عبدالله وهو اسم ولد دوسري أبو نقطة للسلام على الباشا أوّلا ومعه مرافقوه من رجال مميزين بطلعاتهم النضرة ومعداتهم الأنيقة، وملابسهم الفخمة، التي حصلوا عليها من الغنائم على إثر الحروب التي خاضوها في مختلف الموانىء اليمنية. أما سيوفهم وجنابيهم (خناجرهم) فلها أجربة (إغماد) مصنوعة من الفضة والبعض منها من الذهب. وبعد الانتهاء من السلام على الباشا اتجه الأمير الشاب للسلام على الشريف الكبير، ثم خرج بعد ذلك من خيمة الشريف للذهاب إلى معانقة والده الذي ثبت متحمّلا كل آلام الدنيا واقفًا منتظرًا الطقوس العسكرية التي فرضت عليه.

تعانق الأب والابن مطوقين بعضهما بالأذرع بعاطفة جياشة معبّرة. إنهما لم يريا بعضهما من قبل. يبلغ عبدالله من العمر ستة عشر عامًا، ويبدو أنه أكبر قليلًا من عمره. إن الأمراض الكثيرة التي مرت به خلال فترة غيابه منحته سمة رقيقة ومنظرًا دقيقًا. تبدو عليه المعاناة، ولكن مع هذا تبدو النضارة على محيّاه بصفة مستمرة. سأل الوالد الابن:

* ما هو موقف القبائل؟!

أجاب الابن الشاب:

* لقد قدم إليّ الشيوخ ذوو المكانة المهمة، وقدّموا لي قسم الولاء

والطاعة بأنني رئيسهم الشرعي بحكم أنني ابن دوسري أبونقطة. وقبائل ربيعة ورفيدة يطلبون منك أن تحضر لقيادتهم، وعدم تضييع الوقت.

تقدّم دوسري إلى الباشا بعد أن رشحه الشيوخ المؤقتون لهاتين القبيلتين وخلع عليه الكسوة الفخرية. وحينما تخضع المناطق الأخرى ستُصبح تحت سلطته.

منذ مطالبته، اعتبر ابن (أبونقطة) من قبل رئيسي الحملة كحاكم لمنطقة عسير، وبذلك انضم إلى عضوية المجلس الاستشاري. أما بالنسبة لـ «بيشة» فلم تشملها سلطاته بل بقيت في معزل عن هذا حتى يتقرر مصيرها فيما بعد ولمن تسلّم(*).

غادرنا (دوسري) اليوم إلى (طبب) حيث تقيم عائلته يرافقه الشيخ طامي، ومن المعتقد أنه بعد أن يمكث هناك لمدة أربعة أيام سيعود وينضم إلى الجيش في مركز «مناظر»، حيث يجب أن يكون مقر معسكرنا في أقرب وقت وبشكل دائم.

وغادرنا الليلة الماضية سلطان بن عبده إلى بلاد (علكم). وفي الطريق قابل ابنه الذي يبلغ أربعة عشر عامًا والذي خرج لاستقباله ومعه عدد كبير من المرافقين. بعث به والده إلى المعسكر ليعلن طاعته وولاءه إلى الباشا والشريف الكبير. وصل ومعه رجاله جميلو الطلعة، وملابسهم أنيقة، وكذلك أسلحتهم وطبعًا على حساب سكان اليمن.

قدم عدد كبير من شيوخ قبائل (رجال ألمع الحجاز) و(رجال ألمع اليمن) ورجال (ربيعة ورفيدة) لإعلان استسلامهم.

(*) من المعلوم حرص شريف مكة الدائم على ضم بيشة إلى سلطات حاكم مكة، بيد أن هذا الحرص كثيرًا ما تبدد أمام إصرار حكام عسير على وحدة أراضي بلادهم. (المترجم).

٢٦ أغسطس ١٨٣٤م - رحلة في خميس مشيط

ذكر الشيخ علي بن مشيط شيخ خميس مشيط أن (عايض) كان في المعركة ولكنه عاد مسرعًا إلى «مناظر»، وهو يقول اللهم ارحمنا، وكان ممتطيًا مهرة عظيمة، انطلق بها، ولم يقف إلا في مناظر حيث قام بإحراق بيته.

نهض ابن عون في وقت مبكر من اليوم الثاني للمعركة، واستدعى جميع الأشراف. كان اثنان منهم مفقودين. سأل الشريف عن أسباب غيابهما، فأخبره عبد طاعن في السن قائلًا:

* إنه لشيء مؤلم أن تنتظر حضور سيدي شريف (جازان) في الوقت الذي أتحدث فيه إليك. لقد ذهبت روحه بعيدًا جدًا منا. إن روح سلالة رسول الله ﷺ، قد ذهبت مطمئنة عبر قناة ضيقة تعبر من خلالها إلى السماء راحلة إلى حيث تستقر أرواح أولئك الذين يموتون استشهادًا في سبيل الله.

قال الشريف صارخًا:

* ماذا؟! هل مات «جازان [١]»؟!.
* لقد قلت لك ذلك.
* ولماذا لم يبلغني أحد عن هذا الحدث المروّع منذ وقوعه؟!
* تبليغ الخبر السيىء لا يرتبط بوقت معين. الليلة قمت بغسل جثة سيدي وتوليت مع أشخاص آخرين الدعاء له والصلاة والقراءة في مثل هذه الأحوال، ولم يبق إلا دفن جثة الشهيد.

* يا للإهانة: حتى عهد قريب، كان الذي يجرؤ على قتل شخص

(١) لعل جازان هذا أحد أشراف مكة المرافقين للحملة، ولكن الشيء المؤكد أنه لم يكن شريف جازان أو جيزان المنطقة المعروفة.

من سلالة رسول الله، ﷺ، يتبرأ منه حتى رفاقه، وينعته كل مسلم صادق بالحماقة، وتستهان عائلته، ويحرق منزله، وتصادر أرضه، ويجند الله مؤمنًا مخلصًا يقضي على حياة القاتل(*). إن سكان عسير حقًا غير مؤمنين: إن ذلك العنصر «الوهابي» لا يحترم أي شيء من الذي يعتبره الآخرون محرمًا.

* إنها ليست فقط حماقة ترتكب ضد شخصية سامية من سلالتكم، فلقد اشتبك الشريف عبدالله [١] بطريقة طائشة في وسط الأعداء فأحيط به من قبل العسيريين وأطلق عليه خمسة عشر رمحًا، وسقط من على مهرته. واندفع عبيده لنجدته في اللحظة التي كان واحد من العسيريين يريد أن يقطع رأسه وينقله إلى مؤخرة المعسكر.
* وماذا حدث للمهرة؟! - كان السؤال المباشر للشريف -.
* امتطاها أحد العسيريين واختفى بها بسرعة فائقة.
* اللعنة. مهرة من أجمل وأجود السلالات. جوهرة خيول وادي فاطمة. يالـلأصيلة فقدناها. ولكن لا. من المستحيل تركها غنيمة في أيدي الأعداء. لابد أن تعود إلى سيدها.

(كاتب).. نادى ابن عون على رجل عربي طاعن في السن يلبس لباسًا أرمنيًا والذي يحمل في حزامه دفتر ملاحظات، وقال له بصوت فيه حدّة: كاتب، اكتب ما سأمليه عليك:

«عايض، مهرة ابن أخي الشريف عبدالله، سرقها واحد من البدو يوم المعركة، وأنا أرغب في إعادة تلك المهرة بأي ثمن. وأيًا كان المالك،

(*) يبدو أن الشريف يشير إلى قانون كان قد سنه أحد أشراف مكة لبيان حقوق الأشراف وردع من تجاسر عليهم. (المترجم).

(١) الشريف عبدالله أحد أشراف مكة وكما هو واضح من النص ابن أخ الشريف محمد بن عون.

فسأبحث عنه حتى لو أخذها إلى جهنم، ولعنة الله والرسول على الخاطف».

بعد أن أرسل الخطاب ذهب غضب الشريف، وعاد إلى حالة الهدوء فجأة. وحينئذ تذكّر ابن أخيه، وسأل مرافقيه عن حالته، فقد كان الشريف عبدالله عزيزًا جدًّا على عمه الذي يعتبره كابنه.

الدبلوماسي العربي المدعو «هنيدي(*)» والذي سبق وأن شهدناه في الطائف حثّ سيده بشدّة على توقيع معاهدة سلام مع الأعداء، أو على الأقل أن لا يخاطر بدخول معركة خميس مشيط. قال لعايض:

* دعنا ننسحب إلى حصون (ريدة)، وسنحتمي بجبل «السقا» المنيع المتعذر اجتيازه إلى حد كبير، وعندها سنحارب ونحن في مكان أفضل.

أجاب عايض:

* رغبتي هي أن أعمل على تجنيب القرى من تدمير جيش أحمد باشا أثناء عبورهم من خلالها، ولذا فمن الأفضل أن أخرج للقائه على الحدود بدلًا من أن أتركه يخترق قلب البلاد.

لم يرغب عايض في أن يصغي إلى نصيحة الدبلوماسي. ومن المعروف ما الذي سيلي الرفض من قبل عايض. لقد تعرض الرئيس عايض للوم من قبل أعضاء المجلس وبصفة خاصة من قبل «هنيدي»، وقد أظهر الأخير رغبته في الاستقالة من عمله، وكتب رسالة إلى الباشا فهمت بهذا المضمون:

(*) من المؤسف عدم العثور على معلومات عن هذا الشيخ الذي كان محل ثقة الأمير عايض حينما كلفه بسفارة إلى قائد الحملة يحمل مشروع تفاوض، بيد أن هذا المشروع لم يوافق عليه الباشا. كما أشار المؤلف إلى مكانته القيادية في قبيلته وإلى مشاركته في المجلس الوطني العسيري (المترجم).

«أحمد باشا، أرجوك أن تنسى موقفي الذي وقفته ومشاركتي في المعركة الفعلية، وأنا أسألك العفو عني وعن أبناء قبيلتي. ولقد تخليت كلية عن أي دور سياسي، مفضلًا العيش كشخص عادي بين قبيلتي».

وقبل الباشا اقتراحه بطلب العفو.

أصبحت تموينات المعسكر قليلة. تناقص تموين المستشفى إلى النصف، وتحوّل الجنود إلى مص أو مضغ قصب الذرة الحلو.

استغل الشيخ عبدالكريم (١) ، أحد مشايخ خميس مشيط الفرصة المناسبة التي سنحت له فقدم إلى المعسكر وانحنى أمام الباشا وقال له:

* تعرف كل مضار هذه الحرب والتي أصبحت أنا ضحيتها، دُمّرت محاصيلي، وأُكلتْ تمويني، وأُكلت حيواناتي أو نهبت، ودُمّرت بيوتي. فإذا لم تجد نفسك منتقمًا بما فيه الكفاية، فافرض عليّ تضحيات جديدة وأنا مستعد للمساعدة.

أجاب القائد:

* كل ما أريده منك أن تزودني ببعض التموينات، وسأدفع لك ثمنها بالتمام.

* تعرف أن البدو فقراء، ومع ذلك سأذهب وأجتمع بجماعتي من أهل خميس مشيط والذين يتشردون عبر الجبال، وسأحضر لك كل ما أستطيع الحصول عليه من تموينات.

(١) لم أجد لهذا الشيخ ذكر في ما لدينا من المصادر (المترجم). ولا لدى من سألتهم عنه وعن أسرته من كبار السن في خميس مشيط.

٢٧ أغسطس ١٨٣٤م ـ رحلة في خميس مشيط

استيقظت قبل طلوع الفجر على أصوات البدو العالية الذين بدأوا بإحضار التموين إلى المعسكر.

لقد أحضروا تلك التموينات على الحمير، لأن هذه البلاد التي نحن بها الآن ليست غنية بالجمال. وبدون هذا الحيوان ذي الأرجل الأربع (يعني الجمل) ليس لعرب الحجاز وجود سياسي ولا وجود اقتصادي، ولكون هذه البلاد ـ عسير ـ لا تمتلك المقدار الكافي من الشمس والرمال فإن الناس هنا أوقفوا تربيتها.

وبغضّ النظر عما كانت تجلبه الحمير، والتقصير في توزيع الغذاء، فإن التموينات التي أحضرت بعيدة كل البعد عن سد حاجة الجيش من المؤن.

بدأ الجنود يضعفون كل يوم، وهذه الأوضاع التي لا تطاق تثبط من هممهم، بالإضافة إلى ذلك فإن رؤساءهم لا يظهرون أي اهتمام بأوضاعهم. فبدلًا من الاستفادة من الانطباع المميز الذي حصلوا عليه نتيجة المعركة، فقد منحوا للعدو الوقت الكافي لإعادة بناء قوته، وستكون هناك حرب جديدة لابد لنا من خوض غمارها.

تموت وسائل مواصلاتنا من الجمال بالعشرات يوميًا. وعندما تقضي الأمطار والمجاعة وشدة المناخ على كل ما تبقى، فليس هناك مجال للشك بأننا سنلجأ إلى "Ali borons".

ولن أستغرب أن أرى أن كل مواصلاتنا ووسائل نقل معدات الحملة تتم بواسطة الحمير، هذه الحيوانات التي حلّت مكان الخيول والجمال والعربات ووسائل حمل الماء. وتُساق دائمًا بدون أي احترام، مثل بعض

الناس في الشرق تحت تأثير العصا (الكرباج).

قدم مائتا شخص من سكان وادي شهران ليعرضوا تعاونهم مع الباشا، وبغض النظر عن وعودهم الصادقة فقد حاربوا في صفوف عايض.

٢٨ أغسطس ١٨٣٤م ـ رحلة في خميس مشيط

قرب المساء، ثارت عواصف رعدية مخيفة ولها برق خاطف ومخيف ـ أيضًا ـ. استمر الرعد لمدة ثلاث ساعات ـ تقريبًا ـ بصفة مستمرة. لم يتوقف البرق من تثليمه للفضاء، وسقطت الأمطار قبيل الصباح، وأصبح الوادي الذي كان بالأمس شبه جاف ممتلئًا بكميات كبيرة من مياه الأمطار، ولم يستطع البدو الذين كانوا في طريقهم إلى المعسكر اجتيازه.

٢٩ أغسطس ١٨٣٤م ـ رحلة في خميس مشيط

ظهرت عواصف رعدية وبرق جديد ملأ الفضاء، وأصبحنا قلقين على مخازن البارود والتي توجد في البيوت المهجورة في القرية المقابلة للمعسكر. وإذا انفجرت هذه المخازن فهذا يعني أنني انتهيت نهائيًا، لأنه لا يفصل خيمتي عن تلك المخازن إلا جدار من الطين فقط، ولكن الحظ سيكون أكثر تعاسة لأولئك الذين سيبقون تحت رحمة البدو بدون غذاء ولا ذخيرة.

هدأت العاصفة حوالي منتصف الليل، وعادت الطبيعة تدريجيًا إلى حالتها الطبيعية من الهدوء، ومجرى السيل يفيض بالماء على عمق قدم وعرض مائة قدم تقريبًا.
الحرارة في خميس مشيط.

اليوم	الشروق	الظهر	الغروب	ملاحظات
أغسطس ٢١	١٥	٢٥	٢٣	السماء صافية
« ٢٢	١٤	٢٣	٢١	السماء غائمة
« ٢٣	١٤	٢٢	٢٠	جو ماطر
« ٢٤	٢٣	٢٢	٢٠	جو ماطر
« ٢٥	١٣	٢٢	١٩	جو ماطر
« ٢٦	١٤	٢٣	٢١	جو ماطر
« ٢٧	١٣	٢٤	٢٠	جو ماطر
« ٢٨	١٢	٢٢	١٩	عواصف رعدية
« ٢٩	١٢	٢٣	١٩	عواصف رعدية

من بيشة إلى خميس مشيط لم تتوقف الحرارة عن الانخفاض حتى ونحن إلى حد كبير نتجه باتجاه الجنوب. هذه الحالة عائدة إلى ارتفاع المستوى في هذه البلاد، حيث وجدنا أنفسنا في المرتفعات الجبلية التي تمر من فوقها الرياح، والتي تهب من البحر الأحمر. هنا في الصباح وفي المساء تحتجب الجبال والقرى وراء طبقة سميكة من الضباب مشبعة بذرات من الماء والتي يسبب وجودها مشقة كبيرة لأناس مثلنا جاءوا ليعبروا بلادًا لا تعرف الشمس فيها توقيتًا.

تتعارض حرارة منتصف اليوم مع طبيعة طراوة جو الصباح والليل. وأشعة الشمس دائمًا محرقة، ولكن الحرارة غير مؤثرة تحت ظل الشجر، أو تحت الخيام أو في المنازل. وخلال يوم واحد فقط كانت السماء صافية. ومن ذلك الوقت فإنها دائمًا ملبدة بالغيوم. وبصفة خاصة في الجانب العسيري، حيث يبدو أنها تمطر هناك باستمرار.

الفصل الخامس عشر

مغادرة خميس مشيط ـ عودة علي الصعيري ـ وصول مشيط شيخ خميس مشيط ـ وصفه ـ سبب تخوفاته ـ تاريخه ـ تبريراته ـ عند الباشا ـ حصول على الأمان ـ وصول مبعوث سابق لعسير ـ صليع ـ مثوله أمام الباشا ـ قصة مهمته ـ تهوره ـ غضب عايض ـ ذعره ـ عايض يريد اغتياله ـ تمكنه من الهرب ـ صورته ـ توزيع الحصص اليومية من الغذاء على الجيش ـ رفع المعسكر ـ موقع المعركة ـ المراعي ـ مسجد مؤقت ـ المقابر ـ سيل حجلا ـ حيفا ـ مرو ـ جوحان ـ أبها ـ الوصول إلى مناظر.

الفصل الخامس عشر

٣٠ أغسطس ١٨٣٤م

عاد أمس إلى المعسكر الشيخ علي الصعيري الذي كان قد كلف بمهمة تزويد الجيش بالطعام والذخيرة. لذلك ذهبت لزيارته في خيمته ساعة عودته. وقد سألته بعد الانتهاء من المراسيم العادية:

* حسنًا، هل أنت مسرور بنتائج رحلتك؟!

* كلكم يا أهل المعسكر يجب أن تعرفوا أن التموين نادر، ولكن الجنود الآن أقل تعرضًا للمجاعة.

* أنقذتنا من الموت جوعًا، ولكن لا تلم إلا نفسك إذا سببت لنا تخمة.

* إن ملتقط فضلات الحصادين لا يحصل على محصول بقدر حجم محصول الحصاد.

ولكن في بلاد جافة مثل بلاد الجزيرة العربية نشعر حقيقة بالسعادة عندما نجد طريقة نحارب بها الجوع. البدو سعداء مرتاحون لأحوالهم (راضون عن وضعهم). ولكن أنتم أيها الفرنسيون أو الأتراك أو المصريون، مسرفون في الطعام، تستهلكون في اليوم الواحد ما يكفينا لمدة أسبوع، وإذا استمر بكم الأمر على هذه العادة، فيجب عليكم أن تعيدوا تفكيركم مع الحياة مرة أخرى.

* اكتسب الأوربيون شهرة بدقة نظامهم في الأكل، ومع ذلك يستطيعون التأقلم مع الظروف الرسمية. لسنا أكثر حصانة من المجاعة منكم، ولو كان واحد من جنرالاتنا يقود هذه الحملة لكان قد تدخل منذ فترة طويلة لعمل كل ما في وسعه لإيجاد الطريقة التي يزود فيها طلبات الجيش (الجيش بكل ما يحتاجه).

* حتى مع أنني لم أجد كل التموين الذي نحتاجه لإطعامنا إلا أنني أحضرت إلى المعسكر الرجل الذي يعرف كيف يحضر الطعام. دعني أقدمك إلى مشيط، إنه شيخ خميس مشيط وكل المناطق المجاورة.

سرحت مشاعري مع الرجل الذي يجلس على السجادة التي كان يجلس عليها علي الصعيري. ملابس هذا الرجل بسيطة لا تختلف عن ملابس أي بدوي عادي، ومظهره متواضع من الصعب أن تتبين أنه رجل مهم.

يتمتع مشيط بمكانة معتبرة عظيمة من قبل رجال الجبال، ويمكن أن يكون مستحيلًا أن تجد رجُلا يفوقه حسنًا وحذاقة. رأسه مرفوع، وأنفه مستقيم، ومسطح قليلًا عند نهايته. يبدو مثل رجل في أحسن أيام عمره، مع أنه ينيّف على الستين سنة. وثمة ملامح من الحيوية مازالت تبدو عليه، وله سحنة قلما تجدها عند العرب. عيناه ذات لون رمادي فاتح، بل هما قريبتان من اللون الأزرق الفاتح، وبشرته مشرّبة ببقع مختلفة الألوان، وله ذقن مستقيم مدبب ينم عن طول إلفة الرجل للشمس. وحسن سيرته تحتل مكانًا عميقًا تنغمر بها عاطفة كل عربي.

بينما أنا أتأمله، حدث تغير سريع في ملامحه الجسمانية، نظرت إلى الاتجاه الذي كان ينظر إليه بقلق، ورأيت ثلّة من الجنود المصريين يرأسهم شخص تركي قادمين باتجاه خيمتنا.

نظر مشيط إلى علي الصعيري نظرة حادة فيها تأمل وتفكير وتساءل:

* هل غدر بي؟

قالها بلهجته البدوية! (مما أصبح ثابتًا لدي أن الرجل الكبير لا يثق بالسلام الذي قد عقده مع الباشا. ومن المحتمل أنه خائف من أن هناك محاولة لحرمانه من حريته، وأصبح على وشك اتهام شيخ بيشة بالاشتراك في المؤامرة).

ولكي يخفف من مخاوفه تفوّه علي الصعيري بهذه الكلمات:

* إذا كان قد غدر بك، فأنا لست بشريك في مؤامرة الغدر.

سأله مشيط:

* هل ستتركهم يعتقلونني وأنا في خيمتك؟!
* خبىء نفسك تحت مقعدي ولا تخف، لن يراك أحد.
* وهل فكرت أنني مستعد لتركهم يصطادونني مثل الأسد في حفرة؟!
* حسنًا، ابق تحت طنب خيمتي، وسيكون حصاني جاهزًا تحت تصرفك، خذه واذهب عائدًا إلى الجبال حيث يمكنك تحدّي كل قوّة الباشا.

نظر بعض الرجال الكبار بيقظة إلى الجنود وهم يقتربون من خيمتنا، بينما انساب مشيط من تحت الخيمة وخرج إلى حصانه المعد للانطلاق عند أقل إنذار.

بدأ الجنود يخطون مرة أخرى باتجاهنا، ووصلوا إلى نقطة مكان وجود زملائهم لغرض تغيير النوبة. وتعدى الشيخ مرحلة الخطر، وهو لا يزال في حالة الاستعداد للهرب.

قال لي علي الصعيري حينما لم يبق إلا أنا وهو لوحدنا:

* انظر ماذا حدث اليوم للقيم البدوية. في الماضي وحين كنت شابًا لا يمكن أن يشك البدوي في صديق أنقذه من الجبال واستضافه في خيمته، وهذا ما ساور مشيط في قرارة نفسه.

قلت له:

* يجب أن تعذره. نحن في حالة حرب، وأنت تحارب ضد عدو قوي مثل باشا مصر، والحرب أدت إلى نشر روح الخوف والكراهية في صفوف جيشك، وأمثلة الخيانة في مثل هذه الأحوال أمر مألوف، لذا فلا غرابة أن ترى شيخ خميس مشيط يتهمك بالتآمر الذي أنت بريء منه.
* من سوء الحظ أنه عذره الوحيد.

وجدت الفرصة سانحة - بعد مغادرة الرجل الكبير- لكي أسأل علي الصعيري عن بعض المعلومات عنه، فقال:

* هذا ما ذكره لي أحد أصدقائي: «كان مشيط من أكثر الرجال ثقة لدى أمير عسير علي بن مجثل. لقد رأيناه يذهب بطريقته الخاصة عندما عزم الأمير علي على تجهيز حملة ضد تهامة. شارك في تجهيز الحملة برجاله وشجاعته، ونصائحه للجيش عند احتلال «الحديدة ومخا». ويكنّ الأمير علي احترامًا كبيرًا للشيخ مشيط، وكان يثق به ثقة تامة. في هذه الحملة اصطحب شيخ خميس مشيط معه مائتي فارس وأحضر معه من اليمن مجموعة من الملابس ويرتديها على طريقة أهل هذه البلاد.

وعندما رشح محمد علي الشريف محمد بن عون - الذي يقود حملتنا الآن - حاكمًا على عسير عرض عليه مشيط الزواج من ابنته، ولكن الشريف رفض[١٣٤]، وبعد ذلك طرده البدو من (هذه) البلاد.

وفي هذا الوقت كان ابن عون يقيم في بيت قريب من خيمته متخذًا من حديقته والمباني الملحقة بها قصرًا للاحتفالات والضيافة. ويطل القصر على منظر جدول خميس مشيط وأفقه الأزرق.

اليوم وقبل أن نغادر خميس مشيط، أخذ علي الصعيري الشيخ مشيط وقدمه للباشا، الذي سأله لماذا لم يكن راغبًا في تقديم استسلامه في المعركة؟ فقال:

* تعرف يا أحمد إن البلاد التي أنا على رأسها قد انضوت تحت حكم الأمير عليّ، واعترفنا بشرعية حكمه وتبعيتنا له. وبما أن كفاءتي هي التي جعلتني في هذه المكانة كان عليّ أن أتبع خط رئيسي وقدّر الأمير علي بما يملكه من قوة الذكاء والفهم أنني رجل شجاع وقوي الإيمان. وأصبحت بسرعة واحدًا من رفاقه في

(١) يذكر الشيخ علي بن سعيد بن مشيط نقلاً عن أبيه نقلاً عن جده بأنه تم الزواج - أثناء حديث شخصي معه في منزله بخميس مشيط في صيف ١٩٧٨م.

الحرب، فكنت معه أينما توجّه في كل حملاته الحربية. وتخطفت المنية الأمير علي بعيدًا عن قلوب شعبه، وأصبحت بالتالي حليفًا لخلفه، مثلما كنت حليفًا لعمه، ولم يكن من واجبي التخلي عنه، بالرغم من الأخبار الخطيرة التي سمعتها عن حملتك.

كثيرًا ما نصحت الأمير عايض بالجنوح إلى السلم مبينًا له مخاطر المقاومة غير المأمونة عواقبها وجدواها، ولكن الأمير كان محاربًا عظيمًا يقود جيشًا تعوّد أن يُحقق النصر، ويعتبر حتى مجرد التفكير في إجراء مباحثات مع العدو خيانة. ولكن كلامي لم يغير من موقفه شيئًا، لأنه لم يسمع، وقرر عايض طريق الحرب. وبما أنه رئيسي فقد وجب علي الوقوف بجانبه، حُشدت القوى العسيرية المحاربة في مدينتي [١] ، وحوّلتها قذائف مدفعيتك إلى رماد.

تركت ولدي وأمتعتي ونقودي إلى مجموعة من الناس، ولم يبق لي اليوم منها شيء، وبعد يوم المعركة أصبحت تائهًا في وسط الجبال محاولًا مدّ يد العون لمساعدة العجزة من الرجال والنساء وتخفيف آلامهم، وجميعهم عائدون إلى بيوتهم وحقولهم المهجورة، وهي نصف محروقة ينتظرون بقلق مجريات الأحداث التي أصبحت في قبضة يدك.

هكذا كان تصرفي الأخلاقي. لقد أقسمت لابن مرعي [٢] بقسم الولاء والإخلاص، ووفيت بوعدي، وبما أنني أصبحت أسيرًا عندك الآن فأحس أنني أصبحت في حلّ من أي التزام. وهدفك هدفي، وسأتبع أوامرك (مثل الخادم المخلص).

(١) خميس مشيط.

(٢) يقصد عايض بن مرعي.

وعندما انتهى الشيخ من الحديث، يبدو أن الباشا والشريف فضّلا عقد اجتماع سري للتشاور في تقرير مصيره بطريقة سلمية، لكن الجيش بحاجة إلى مساعدة مشيط، ويمكن أن يكون هذا الحل الأفضل لدى الرئيسين.

قال أحمد باشا:

* اعتبر نفسك في بيتك وأنت تحت خيمتي، وأنت في أمان الله، ولن يلحق بك أذى، وأعمالك الماضية مغفورة، وقد ألغيناها من ذاكرتنا. وقد أصبحت الآن ضمن أصدقائنا الذين يتزايد عددهم. وأقدم لك هذه الجوخة وهذه الغترة الكشميري عربونًا عن حسن الوفاق، هذا من جانبنا أما من جانبك، فيتوجب عليك أن تزودنا بالطعام من المصادر الموجودة لديك.

ثم أضاف الباشا قائلًا:

* والآن عليك بالعودة إلى الجبال واجمع جماعتك الذين قد انفصل بعضهم عن بعض، وبلغهم شروطنا مقابل أمنهم وحمايتهم.

في هذا اليوم وصل رجل عسيري جديد إلى المعسكر. إنه (صليع)، الرجل الذي شاهدناه من قبل في «وادي الخضراء» حينذاك حاملًا رسالة من عايض إلى الباشا.

دخل هذا الرسول مباشرة إلى مجلس الباشا، وبعد أن انحنى أمام الجنرال خاطبه قائلًا:

* أحمد، ترى بين قدميك رجلًا تعيسًا جاء يطلب حمايتك.

قال له الباشا:

* أفصح عن قصدك.

* حضرة الباشا.. لابد وأنك تتذكرني.

* نعم بكل تأكيد.

* لقد سبق لي الشرف بالانحناء أمام حضرتكم.

* نعم في الخضراء، وأتذكر ذلك جيدًا، ولكن ما هي طبيعة مهمتك المكلف بها اليوم؟!

* أنا لم أحضر لأتحدث باسم عسير، إنما جئت من أجلي شخصيًا. لقد ماتت مهمة الخضراء بمجرد عودتي، حينما ذهبت لمقابلة عايض لأطلعه على نتائج مقابلتي لك. وفي تلك اللحظة كان الرئيس مجتمعًا مع كبار القادة، وكانوا جميعًا جالسين على الأرض محلقين حول «صينية»، وعلى وشك البدء في تناول الطعام المكون من خروف كبير حُشي بالرز، وسرعان ما جلست إلى المائدة، وبدأت «بسم الله» وأثناء تناول الطعام سألني ابن مرعي:

* حسنًا، ما هي الأخبار التي أحضرتها معك من ذلك العدو المزعوم؟!

أجبته:

* إن ما سأخبرك عنه ليس في صالحنا.

* ولماذا؟ وما الذي تخشاه من عصابة عبيد وهمج؟!

* عبيد وهمج؟!.. ليكن في علمك بأن جيش العدو مصحوب بفرق قوية من الحمر[1] والفرسان ومدفعية قوية، وفي اعتقادي أن عسير لن تستطيع مقاومته.

غضب عايض قائلًا:

* يا جبان، قبل أن تُضيف كلمات مشابهة كان من الأفضل أن «تأكل لسانك» أو «تعطيه للكلاب».

وفي اللحظة نفسها استدار وهمس بحديث إلى (ابن دهبان) مستشاره

---

(١) المقصود الأتراك بزيهم الأحمر ولون بشرتهم الحمراء.

الخاص. سمع أحد أصدقائي حديثه مع ابن دهبان.

سأله الباشا:

* وماذا قال له؟!

* يا ابن دهبان، عندما يغادر (صليع) اتبعه واضربه على قلبه بأحسن سهم لديك.

وهذه الكلمات وصلت إليّ عن طريق صديقي وهي رد ابن دهبان على عايض، حيث قال:

* لا بأس يا سيدي.. وفي رأسي.. أن أنفذ أوامرك قبل صلاة العشاء.

قال الباشا:

* يا الله، هذا لم يُقسَم لك.

قال صليع [1]:

* وأيضًا فقدت شهيتي، وفكرت في زوجتي، كأرمل وأطفالي كأيتام، لأنني أيقنت بالموت لا محالة. ولاحظ صديقي مخاوفي، وبعد أن انتهى من غسل وجهه بالماء [2] همس في أذني قائلًا:

* تشجع أو سيلاحظون أنك أصبحت تعرف كل شيء.

وأضاف صليع:

* واستغليت تشجيعه لي وحاولت الظهور بمظهر غير المهتم، ولكنني كنت غارقًا في آلامي. وسألت بعد الانتهاء من الطعام فرحان [3]:

* كيف أقدر أن أخرج من هنا؟!

(١) صليع كما يبدو من خدم الأمير عايض.

(٢) الوضوء.

(٣) يبدو أنه أحد عبيد الأمير عايض.

قال فرحان:

* أنت ذاهب معنا، ولن يحاول أحد قتلك وأنت معنا، وما تبقى من الوقت عليك بارتداء صدريتي.

دب في صفـوف الشيوخ المجتمعـين قدر كبـير من عدم الحماس والخوف، وأوعز عايض بخلق هذا الشعور لدى الشيوخ من رده على كلماتي الساذجة. وأصبح حقد عايض تجاهي يتزايد في كل لحظة. وانتهى الاجتماع، وصرف عايض كل جماعته، وكنت على وشك الذهاب مثلي مثل الآخرين، ولم يقل لي أحد شيئًا مثلما كنت أتوقع. وعندما كنت على وشك تجاوز البوابة الخارجية، أحسست بوقع على كتفي، استدرت فإذا به واحد من عبيد ابن مرعي:

* كلفني سيدي بالبحث عنك، إنه يرغب في التحدث إليك بشأن مهمتك السرية.

في هذه اللحظة أحسست بأن قلبي سقط من الهلع، وشعرت بهبة نسيم ثلجية تتسرب إلى قلبي، وعلى أي حال لم أقدر على التراجع، وإنما عليَّ الاستسلام إلى قدري. وقال لي العبد:

* انتظر عايض في الغرفة التي تناولتم بها العشاء.

دخلت الغرفة بينما كان بها مجموعة من الخدم ينظفون بقايا السفرة ويأكلون بقايا اللحم المشوي. وبعد قليل خلا المكان وبقيت لوحدي في الغرفة المظلمة. مضت خمس عشرة دقيقة من الانتظار. وفجأة فتح الباب وعلى ضوء الشمعة في الغرفة المجاورة لمحت العبد الذي كلفه عايض بإحضاري.

لو كنت تحت سقف عدو لكنت اعتقدت أن نهايتي تقترب، ولكنني كنت واثقًا حتى الآن لأن البدوي لن يجرؤ على قتل رجل شاركه شرابه

وطعامه في بيته. قال العبد:

* إن سيدي يصلي الآن وسيفرغ من صلاته خلال ساعتين، ولعلك تعبت بعد رحلتك فأنت مسموح لك بالانصراف للارتياح بالطريقة التي تروق لك.

أجبته:

* بارك الله فيك، وسيدنا قلبه رحيم، وأشكره على اهتمامه تجاه واحد من خدامه المخلصين.

لن تكلفني هذه الخدمة شيئًا.

دخلت في الغرفة التي تناولنا بها الطعام، ورأيت عباءة صديقي فرحان الصوفية معلقة فأخذتها ولففت بها جسمي. وكان العبد يقف بجانب الغرفة. عند مغادرتي لها، لذلك قلت له:

* هذه عشرة ريالات فرانسي لك مني.

فتح المملوك عينيه البيضاويتين الكبيرتين دهشة واستغرابًا من عطيتي له. تردد لفترة قصيرة قبل أن يأخذ النقود من يدي، ثم وضعها بحذر في جيب تحت حزامه.

قال صليع للباشا:

* لقد كنت كريمًا ذلك اليوم.

ثم أردف قائلًا:

* لقد كان لدي شعور خفي بأن تلك النقود التي قدمتها لي ستكون عاملًا في إنقاذ حياتي بينما كان شعورك أنت هو أنني لا أساوي ذلك المبلغ.

قال الباشا:

* ولكنك وجدت تلك النقود في جيبك.

* لسوء الحظ يا حضرة الباشا إنها النقود التي أعطيتني إياها في

«الخضراء»، لقد بنيت أحلامًا كبيرة في استغلال تلك النقود.

وتابع صليع قائلًا:

* وعندما كنت على وشك المغادرة نظر إليّ العبد، وقال:

* هل لي أن أسألك سؤالًا يا سيد؟!

قلت:

* بالتأكيد.. قل.

* حسنًا، أين تفكر أن تقضي هذه الليلة؟!

* أنا ذاهب إلى قريتي لزيارة زوجتي وأطفالي.. أولئك الصغار، إنها غيبة طويلة عنهم وافتقدتهم كثيرًا.

* أي الطرق ستسلكه إلى هناك؟!

* الطريق الجبلي.

* إنه صعب جدًا خلال الليل.

* نعم ولكنه أقصر الطرق كلها.

* لا يهم، من المهم أن تسلك الطريق المحاذي للوادي.

* لماذا؟!

* هناك يوجد جمل ميت على الطريق الجبلي، وجيفة الجمل لا يتفاءل بها كثيرًا في الليل.

* يمكن أن يكون هذا الاعتقاد في البلد التي جئت منها، أما أنا فلا أؤمن بالخرافات.. وداعًا.

* أأنت متأكد أنك لا ترغب في الذهاب عن طريق العقبة؟!

* نعم.. أنا متأكد.

* حسنًا، فأنا لست مسئولًا عما يحدث لك.

كانت آخر كلماته رقيقة جدًا وضعيفة، ولكنني استطعت سماعها. قررت أن أسلك طريق الوادي، ولكن كنت أرغب في أن لا يعرفوا بالضبط

ما قد استقرَّ عليه قراري. ومن يدري فلعلّ تفكيره في الأمر مرة أخرى يوحي له بشيء جديد. وبذلك سلكت الطريق الموصل إلى قريتي بشعور حزين، وأثناء خروجي من بيت عايض شاهدت رجُلا قال لي:

* تصبح على خير «يا فرحان». . الله يحفظك.

قلت لنفسي: «الرجل يقول لي يا فرحان»، يبدو أن تنكري في شخصية فرحان قد نجحت. ومع شعوري بالخوف من أن صوتي قد يغدرني، فقد اكتفيت بالرد عليه بإيماءة من رأسي. ولهذا فبدًلا من ذهابي إلى بيتي سلكت الطريق المؤدي إلى قرية فرحان، والتي لا تبعد كثيرًا عن قريتي، ويجب أن أعترف وهو أمر مخجل بأنني لم أخف في حياتي كلها مثل خوفي في تلك الليلة. فسماع صوت الريح يهب على أغصان الشجر، وتساقط أوراق الشجر، وحركة وأصوات الطيور. . كل ذلك بدا وكأنه عدو جاهز للانقضاض عليّ.

مضت خمس عشرة دقيقة على مسيري، وحتى الآن لم يحدث شيء، ويجب ألا يحدث شيء، لأن قواعد الضيافة عند العرب تحرّم قتل الشخص الذي كان في ضيافة أحد من سكان القرية.

والآن أصبحتُ على وشك عبور أحد الجداول، حيث يقع الطريق المؤدي إلى قريتي محاذيًا للضفــة اليمنى. أما الطريق المؤدي إلى بيت صاحبي فيقـع على الضفة المقابلة للجدول ذي المياه الجارية. كان هذا الطريق خطرًا لذلك عبرته بمجازفة محسوبة، ومن حسن الحظ كنت محميًا بصف من الأشجار جعل من الصعب رؤيتي من قبل أي شخص من الجهة المقابلة. وعندما قطعت ثلاثة أرباع الجدول، سمعت صوت وقع بندقية على الصخرة. رأيت إلى يميني رجُلا توقف للراحة على ضفة الجدول وشرب قليًلا من مياهه. وفي اللحظة نفسها انبعث صوت كسر طوق

الهدوء، وباغت الرجل الذي على ضفة الجدول قائلا:

* هيه، أنت!، ما الذي أحضرك إلى هذا الماء، وكأنك جمل لم ير قطرة ماء لمدة خمسة عشر يومًا.

* لم أجد شيئًا أفضل لأقوم به. لقد مضى علينا من الزمن ساعتان، ونحن بهذا المكان، ولم يحدث شيء.

* هل تعرف أنه مطلوب منا الهدوء.

* لم يعد ضروريًا بعد الآن، فهو الآن قد استطاع أن ينجو أو قد قتله ابن (دهدان) أو (دهبان).

* يا له من حظ فهذه المهنة محزنة، وسأكون في غاية السرور لأنني قد تخلصت منها.

ـ وأنا ـ أيضًا ـ فدم البريء يقع دائمًا على عاتق مهدره.

وسيطر عليّ الهلع واعتراني الخوف ـ هز جسمي شعور بالخوف ولو كان برأسي شعر لوقف مستقيمًا من شدة خوفي، تحركتُ حركة بسيطة هزت أحد الغصون، وفي الليل الهادىء سمعها الرجلان.

سأل أحدهما الآخر:

* هل سمعت ما سمعته؟!

* نعم، ولكن يمكن إنها الريح تهب على أغصان الشجر.

* هل أنت متأكد.

* نعم، يمكن أن يكون الثعلب قد اقترب من مكان دجاجاتنا ومن الأفضل أن نذهب لحمايتها بدًلا من تضييع وقتنا ننظر في السماء.

* دائمًا تتحدث مثل العجائز.

* وأنت تنبح مثل الكلب.

اعتقدت أنهما على وشك القيام بمعركة، ثم يفترقان ويذهبان بعيدًا.

وإذا بي أسمع أحدهما يقول:

* دعنا (نثوّر) باتجاه تلك الأشجار.

* لماذا؟!.. هل تتوقع فاكهة تسقط على الأرض؟!

* لا، ولكن إذا كان يوجد هناك رجل مختفٍ فإن الرصاصة ستقضي عليه.

* ليس عندي رغبة في أن أضيع رصاصة.

ومع هذا فقد ثبّت بندقيته وصوبّوها باتجاه الغصن الذي كنت لتوّي قد تحركت من تحته. أخافتني الطلقة، وكان من المفروض أن أكون ميتًا الآن لو لم أتحرك من ذلك المكان، ولكن خوفي منحني القوة لكي أنجو بنفسي، وفكرت في رجال عايض والذين من المحتمل أنهم ينتظرونني في قريتي. ولهذا اتخذتُ الطريق المؤدي إلى قرية «فرحان» واختفيت هناك لعدة أيام، وغادرتها اليوم في وضح النهار. واليوم جئت إلى هنا طلبًا لحمايتك.

قال الباشا:

* قد حصلت عليها. ولكن سترافقنا، فسنبدأ مسيرتنا باتجاه عدوّنا، فإذا كان بإمكانك التعاون معنا فسنقدر لك ذلك.

* أنا منذ اللحظة من رجالك.

«صليع» رجل صغير ويظهر أنه ذكي، يمشي مثل الثعلب، وعيناه لهما تعبير عميق، ولكن يبدو أنهما تنبئان عن شخصية غير حاسمة.

نحن ذاهبون لنقتفي أثر العدو. بالأمس صرف لكل جندي ما وزنه أربعين «درهمًا» من الدقيق، وبُلّغوا بإعلان الحرب ضد عدوّنا.

وتحركت الحملة، بينما تسلّق سكان القرية فوق سطوح المنازل ليشاهدوا بأم أعينهم جمال العرض العسكري وهو جاهز لدخول المعركة.

وشاهدوا الجيش وهو يغادر غير آسفين عليه.. يتقدمه الفرسان.

أخذنا الاتجاه نحو الغرب، وبعد فترة قصيرة جدًا وصلنا إلى نقطة التقاء جدولين يُحيطان بخميس مشيط [1]. أما المناطق التي عبرناها فتتكون من هضاب متوالية وبعض الجبال المتصلة والممتدة من الجنوب إلى الشمال. تنتشر هنا وهناك تلال حجرية من صنع الإنسان، وهي التي يتخذها البدو «ملاجىء» يختفون وراءها أثناء المواجهة في معركة خميس مشيط، استخدمها العدو بدون تحقيق نجاح. ويوجد خلف هذه «الملاجىء» التي عبرنا خلالها جثث الموتى الملقاة هنا على إثر الاشتباكات الأولى. وبعض هذه الجثث الملقاة في موقع المعركة لم يتبق منها إلا الهياكل العظمية بعد أن جردت الوحوش الضارية ما كان يكسوها من لحم.

بعد ذلك ترجلنا من على خيولنا، ومشينا على الأقدام عندما عبرنا الجبال. ووجدنا منطقة خضراء حيث تُجلب معظم القطيع للرعي.

توجد أكوام من الحجارة وضعت كخطوط فاصلة لتقسيم مناطق الرعي، بالإضافة إلى أنها مفتوحة لأي غريب، ولكن هذه الحواجز الحجرية المتواضعة تحترم كما لو كانت عوازل ضخمة. ومجموعة صفوف حجرية أخرى تُشير إلى مكان مسجد مؤقت.. بناه ملاّك الأرض حينما كانوا يسكنون بها، وإلى جانبه توجد المقبرة، وقبورها مبنية بالحجارة، وهي شبيهة بتلك التي سبقت الإشارة إليها في الجنفور. مجموعة من الحجرات (الغرف) التي تستخدم كمأوى للرعاة مغطاة بأغصان الأشجار الصغيرة.

ومن على قمم الجبال المجاورة، ينبع مجرى الماء الذي يصب في خميس مشيط، ويوجد مجرى آخر من الجهة المقابلة يشق مجراه من خلال واد

(١) التقاء وادي عتود مع وادي تارة.

عميق. وتحيط بهذا الوادي أراضٍ تغطيها مزرعة تنبت فيها الذرة، وقرية بيوتها مبنية من اللبن، وتحميها في المناطق العالية أبراج مراقبة اسطوانية الشكل في هذه المنطقة مُشكّلة تضاربًا واضحًا مع الأشكال الهرمية التي اعتدنا على رؤيتها. كانت القرية وكذلك الأبراج خالية تمامًا. لقد جعل الخوف كل إنسان يهجر منزله.

وبعد قليل اختفت مجاري المياه وراء منعطفات الجبل، وتلتقي مياهها مع مياه وادي خميس مشيط.

بعد أن عبرنا الجبال والوديان بنجاح، وصلنا إلى سيل «حجلا» ورأينا قريبًا منه قرية مبنية كلها من الطين.

وتحيط بهذه القرية مزارع جميلة محمية بالأبراج الاسطوانية نفسها التي شاهدنا من قبل. والحقول هنا مثل الحدائق محمية بأسوار عالية مبنية بالطين. وهذه القرية تدعى «حجلا» والبلاد المجاورة تسمى (برّ حجلاء أو حقول حجلا .

وسألت أحد البدو:

* هل تعرف ماذا تعني كلمة حجلا ؟!
* بالتأكيد.
* هل لك أن تخبرنا؟!
* حجلا [1] تعني السرعة. أُعطي هذا الاسم لمجرى الماء السريع جدًا الذي يعبر خلال القرية.

(١) لعل هذه القرية كانت تدعى «عجلا» ثم حُرّف الاسم إلى حجلا بدلا من عجلا حسب تفسير البدوي. ملاحظة المؤلف.

لقد جرف السيل الحقول الزراعية. وشاهدنا ما تبقى منها على ضفاف الوادي. وتابعنا سيرنا في مجرى الوادي. وبعد نصف ساعة وصلنا إلى قرية «حجلا» الكبيرة حيث سيخيم الجيش بها.

٢ سبتمبر ١٨٣٤م

أثناء انحدارنا من أبها شاهدت أربع قرى. ووجدنا أنفسنا بعد البلاد الجافة في بلاد غنية وآهلة بالسكان. إنه لأمر مثير للدهشة حقًا.

كانت هذه القرى خالية من سكانها، فاجتاحها الجنود، وأخذوا كل ما بها. وبعد طول العناء ترى المصريين ـ وهم في غاية السعادة ـ يأكلون من الفواكه الجميلة مثل الخوخ والدراق والعنب وجميعها من نوع ممتاز، حتى الخيول والجمال أخذت نصيبها من الوليمة تعبيراً عن موقفها المعادي للعسيريين، حيث ابتلعت الحشيش وسنابل القمح مثلها مثل الفلاحين .

وصلنا في ذلك اليوم إلى «مناظر» وهي القرية التي اتخذ منها الأمير علي عاصمة له [1] . وهناك أقمنا معسكرنا. وعلى بعد مسافة نصب جنود الباشا خيامهم، ويبدو أننا سنمكث هنا فترة طويلة.

(١) اتخذ الأمير علي بن مجثل مدينة أبها عاصمة لعسير في عام ١٢٤٢/١٨٢٧م واتخذ من المفتاحة مقراً لقصره وقصر الحكومة فاتسع الحي الذي به قصر المفتاحة حتى كاد أن يغطي من حيث السعة كما هو الحال للأهمية على حي مناظر أقدم أحياء مدينة أبها ولعل أهمية الأخير تعود في الدرجة الأولى إلى اطلالته على سوق الثلاثاء سوق أبها الأسبوعي واتخاذ التجار فيه مكاناً لسكنهم بينما ظلت الصفة الرسمية تغلب على حي المفتاحة الذي ظل مشهوراً بقصور الأمراء وحدائقها وبساتينها الواسعة التي كانت تسقى مباشرة من الوادي القريب منها بواسطة قنوات ري منظمة. (المترجم).

الفصل السادس عشر

الإقامة في مناظر - موقع مناظر - البدو يأتون لمهاجمتنا - محادثات - مناوشة - أسير عمره خمس عشرة سنة - الجيش في وضع حرج - الجوع - البساتين - المنازل - مرعي شيخ مناظر وصوله إلى المعسكر - الشريف الكبير يتزوج ابنته - الملابسات - دوسري - عرب بني شهر المؤيدين - الموسيقى - مناوشات - امرأة من مناظر - خيبة أمل عرب الشريف منصور - زواج جديد للشريف الكبير - رقصات البدو - تجهيزات الرحيل - تعليمات مضادة - خطة الباشا - المعركة - الانسحاب - عايض طبيب عربي من مدرسة أبوزعبل - العدسة - المعركة - مبارزة - طريقة رمي الجنبية - الفارين - الحالة الصحية - مختار - معاهدة سلام - درجة الحرارة في مناظر - الخاتمة.

الفصل السادس عشر

٥ سبتمبر ١٨٣٤م - زيارة مناظر

«مناظر» . . موقع تحيط به الجبال من الجهة الغربية. لا يوجد إلا ممر واحد يوصل إلى المنطقة المنخفضة. إنه مجرى الوادي الذي يمر بمعسكرنا، وذلك بالنسبة للمتجه إلى الشمال الشرقي.

أما الجبال الكائنة إلى الغرب من مناظر فتغطيها الأدغال عادة، عارضة غطاء نباتيًا أخضر يبعث الانشراح في النفس، ويتغاير مع حقول البدو الجافة. وتقع في أسافل الجبال حصون ريدة الشهيرة والتي استخدمها اتباع عايض ملاجىء لهم.

٦ سبتمبر ١٨٣٤م - زيارة مناظر

منذ اليوم الأول لوصولنا والبدو يهاجمون المواقع المتقدمة لمعسكرنا، ثم يعودون دائمًا إلى الجبال حيث تستحيل مطاردتهم.

لم يعد العرب يجرؤون على الدخول في حرب مكشوفة مع المصريين، وإنما انتهجوا حرب العصابات لما تُسببه من متاعب لأعدائهم، نظرًا لأن لديهم الهضاب والأدغال التي يختفون بها أو من ورائها، ويُطلقون نيران أسلحتهم المصوبة إلى أعدائهم متجنبين خطر المواقع الثابتة. وهذه الطريقة في القتال أدت إلى إرباك وحيرة المصريين، إذ عند غروب الشمس يقتربون من المعسكر ويبدأون في حوار شديد اللهجة مع المصريين، وفي الليلة الماضية شتم البدو أعداءهم بقولهم: «يا دُمى محمد علي». وفي يوم آخر تبادلوا معهم عبارات مصحوبة بأهازيج وطنية واستمروا في ترديدها

حتى بعد غروب الشمس. وهذه المجادلات الكلامية لم تكن مهمة إذا قيست بإحراق كثير من براميل البارود، والرصاص الذي يُطلق بشكل عشوائي.

٧ سبتمبر ١٨٣٤م ـ مازلنا في مناظر

في حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر، هاجم البدو مركزًا متقدمًا يقع إلى الجنوب الشرقي، ووصلت قذائف نيرانهم إلى المعسكر.

استغرب الباشا من اقترابهم فأرسل لملاقاتهم خيّالة محمد بك فانسحبوا بسرعة فائقة، ولكن الترك تمكنوا من أسر اثنين من المهاجمين كانا في طريقهما عائدين إلى مراكزهما. وكان أحدهما لا يزال في سن المراهقة.

طوّق الجنود هذا الشاب واستماتت في قصفهم بنيران بندقيته، ولكنه لم يحقق هدفه إذ ضربه أحد الجنود ببندقيته من الخلف في ظهره، وتمكن من تصفيده. وفي المعسكر عجز الباشا عن الحصول على أي معلومات منه، فأمر بحبسه.

٨ سبتمبر ١٨٣٤م

أصبحت حالة الجيش تزداد تعقيدًا من وقت إلى آخر، وأصبح التموين الغذائي نادرًا، ويتناقص كل يوم، وبدأ الباشا يُطبق نظام التقسيم «التوزيع» الذي قُبل بدون أي جدل.

٩ سبتمبر ١٨٣٤م

امتطيت جوادي وقمت برحلة قصيرة باتجاه الشرق، وفي طريقي رأيت عددًا من الجنود يقطّعون لحم جملٍ نحروه، وقد أصبح ثلاثة أرباع

الجيش يعيشون على أوراق شجر «الذرة»، كما أصبح رطل الدقيق يباع بـ (١٠) ريالات فرانسي وغير موجود.

١٠ سبتمبر ١٨٣٤م ـ مازلنا في مناظر ـ

بالرغم من المضايقات الغذائية، مازلنا نحتفظ بمواقعنا والعدو على مسيرة ثلاث ساعات من المعسكر، وكانت حصونهم إلى حد كبير غير قادرة على المقاومة أمام قوة جيشنا، وعلى الرغم من ذلك، لم يتخذ الجنرال قرارًا بالهجوم عليهم.

١١ سبتمبر ١٨٣٤م ـ في مناظر ـ

لقد قام الجنود بتحطيم أسوار الحدائق وسرقة ثمارها منذ فترة، لكنهم عادوا إليها من جديد على أمل العثور على ثمار كانت مختفية عن أنظارهم أو نسوها في هجمتهم الأولى.

شارك الأوربيون وأنا من ضمنهم في هذه الحملة الأخيرة، وعثرتُ على عدّة عناقيد من العنب التي لم تقع عليها عينا شخص آخر.

هدم الجيش عددًا كبيرًا من بيوت مناظر، واستخدم المصريون أخشابها لإشعال النيران أثناء الليل حيث يتحلقون حول اللهب يستمعون إلى خطيب يروي لهم قصصًا وحكايات تساعدهم على نسيان متاعبهم.

قبل أن نصل إلى خميس مشيط أصدر الأمير عايض أمره إلى الشيخ «مرعي[1]» بأن يحضر ومعه رجاله للانضمام إلى صفوف المحاربين، إلا أن الشيخ مرعي كان قد وقع معاهدة صداقة مع شريف مكة وقائد الحملة،

(١) لعله شعثان بن مرعي بن سالم شيخ رفيدة وقحطان.

وعندئذٍ خشي «عايض خيانة هذا الشيخ فسارع بالزج به في أحد مواقع القتال في خميس مشيط متجاهلًا حالته الصحية المتردية، وبعد ذلك أخذه إلى ريدة ليجعله تحت الأنظار في شبه إقامة جبرية، ولكن الشيخ «مرعي» استطاع أن يفلت من إقامته ويجدد معاهدة الصداقة مع شريف مكة وقائد الحملة.

تزوج الشريف محمد بن عون ابنة الشيخ «مرعي»، وأقيم حفل بهذه المناسبة دام مدة ثلاث ساعات [1]. ومما هو جدير بالذكر أن الشريف ابن عون قد تزوج ابنة الشيخ علي الصعيري صاحب بيشة.

١٢ سبتمبر ١٨٣٤م

أعلن الجنرال أن ممتلكات الأهالي الذين عادوا إلى منازلهم ستحترم، أما ممتلكات الذين بقوا مع عايض فستتعرض لما تعرضت له في الماضي.

١٣ سبتمبر ١٨٣٤م

منذ مغادرة دوسري خميس مشيط وهو لم يعرف طعمًا للراحة، والجهود التي قدمها نالت تقدير الجميع، إلا أنه كان ينتظر على أحرّ من الجمر ساعة التحرك إلى «ريدة»، وبدأ يقلق من تباطؤ قائد الجيش.

١٤ سبتمبر ١٨٣٤م

شهدت «مناظر» اليوم وصول جيش بدو بني شهر، يتقدم قوافلهم الشيوخ، ممتطين خيولًا فخمة، حيث ترجلوا حينما اقتربوا من خيمة الشريف.

---

(١) ذكر الوالد الشيخ حسين بن محمد بن سالم شيخ ذعي وبني قيس يرحمه الله وحفيد الشيخ مرعي نقلاً عن أسلافه بأنه تم فعُلا زواج ابن عون على بنت شعثان بن مرعي وتدعى (نفلا) وذلك في حديث معه في صيف ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م بمنزله في أحد رفيدة.

إلى الآن، لم نر أي آلة موسيقية مع أحد من العرب الذين قابلناهم، إنما وجدنا عرب «بني شهر» أكثر تقدمًا حيث شاهدنا رجُلا يحمل على ظهره «زيرًا ضخمًا» ويقرعه رجلان قرعًا إيقاعيًا يرافق المسيرة. ويأتي بعدهم عدد أكبر من الرجال يحملون الآلة نفسها والأداة الموسيقية إلا أن أحجامها أصغر من حجم الأولى، ويضربون الإيقاع نفسه الذي يمليه عليهم صاحب الآلة الكبيرة.

أما علمهم فإنه علم «بريطاني» قديم اندهشت عندما شاهدته، فطلبت من أحد الشيوخ أن يوضح لي قصة هذا العلم، فأخبرني أن ذلك العلم أخذ من مقر البعثة التجارية في ميناء «المخا» عندما فتحها الأمير علي بن مجثل [1].

---

(١) استولى الأمير علي بن مجثل على السواحل اليمنية عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م بما فيها المخا أهم الموانىء اليمنية حينذاك وحرر تلك المناطق من قوات تركجة بلماز أحد القادة الثوار ضد محمد علي باشا والذي لقيت ثورته كل دعم وتأييد من أمير عسير وهو الذي ثبته في السواحل اليمنية وعندما أساء تركجة بلماز إلى سكان تلك السواحل جهز الأمير علي حملة عسكرية ضد متبوعه فطهر السواحل اليمنية منه ومن أفراد فرقته الألبانية وكان من ضمن القوات العسيرية مقاتلين من بني شهر وربما كان العلم البريطاني الذي كان مرفوعاً على دار ممثل الحكومة البريطانية بتلك المدينة الساحلية الهامة مما تم الاستيلاء عليه كما أشار إلى ذلك المؤلف، حيث اعتاد العرب على الافتخار بالاستيلاء على أعلام الأعداء، والبريطانيون حينذاك كانوا في نظر العسيريين أعداء، وهناك حادثة مشابهة حدثني بها الشيخ راشد بن بخيتان من أهل تثليث أثناء مشاركته هو وجماعته في مداهمة بلدة بدر النجرانية أثناء حروب توحيد المملكة بقيادة الملك عبدالعزيز حيث تمكن مع ثلة من رفاقه من الاستيلاء على علم قبيلة من نجران وظل العلم الذي يحملونه في كل ما خاضوه من حروب بعد تلك الواقعة، ويذكر الشيخ راشد وابن أخيه الشاعر معيض البخيتان بأن سارية ذلك العلم مازالت في منزلهما بتثليث إلى يومنا هذا.

سكن بدو بني شهر في بيوت نسي المصريون أن يدمروها، وقد أصبحت هذه البيوت شبه خالية لم يعد فيها الشيء الكثير للمحتلين الجدد لكي يسرقوه، زيادة على ذلك فإن عرب «وادي زهران» قاموا بتفتيشها فلم يجدوا فيها شيئًا جديدًا، وفي أثناء الليل سمعت أصوات إطلاق نار في الجبهة المتقدمة، فقد قام العدو بهجوم مباغت.

خاف الباشا من أن ينتشر الرعب في صفوف جيشه، فأصدر أوامره إلى رجاله بالاستعداد، ولكي يضيء مكان القتال أحرقت المنازل.

هذا التكتيك كثيرًا ما يستخدم أثناء الليل. ووزعت الذخيرة على مجموعة من الأوربيين في خيامهم. كان لدينا الثقة في نفوسنا، واسترخينا إلى مفارشنا مستغلين الفرصة للحصول على قدر ولو قليل من النوم قبل إعلان حالة الإنذار.

شاهدنا اليوم حادثة حقيقية أثبتت أن رجال الشريف منصور لا فائدة ترجى منهم، حيث إن رجلا من سكان مناظر قتل في معركة خميس مشيط، أما زوجته وأطفاله فقد لجأوا إلى «السقاء». . تلك القرية القريبة إلى حد ما من «ريدة» وعندما علمت الأرملة بأن المصريين احتلوا «مناظر» خافت على بيتها، لأنها تعرف أن زوجها قد خبأ كل ثروتهم في مكان ما داخل البيت قبل أن يخرج للجهاد، وكانت تأمل أن تحصل على تلك الثروة عند انتهاء الحرب. ولكن الأخبار التي وصلت إلينا أن المرأة «الأرمل» غادرت السقاء طلبًا للأمان من الباشا.

وسألها الجنرال:

● ماذا تريدين؟!

فأجابت المرأة:

■ أسألك المساعدة يا حضرة الجنرال، وأنا أعرف عن كرمك، ولذا

آمل أن أحصل على تلك المساعدة.

● تكلمي أيتها المرأة.

■ أطلب منك أن تسمح لي بالعودة إلى بيتي لأخذ أمتعتي.

● من الذي يسكن في بيتك اليوم؟!

■ رجال من وادي زهران.

● هل هي أمتعتهم التي تودين الحصول عليها؟!

■ أقسم أنها أمتعتي أنا.

● هل تعتقدين أن أولئك العرب مازالوا يحتفظون بأمتعتك؟!

■ أظن ذلك.

● حسنًا اذهبي وخذي ما يخصك.

■ بارك الله فيك!، ولكن أنا أرملة ضعيفة وبحاجة إلى قليل من الجنود يرافقونني.

- سأبعث معك بعض الجنود المستعدين للمحافظة على سلامتك.

وأخيرًا وصلت المرأة إلى بيتها حيث وجدته في حالة ممتازة، لأن النزلاء الجدد كان يهمهم الحصول على منزل مريح فقط، لذلك لم يعبثوا به، ولم يغيروا شيئًا من وضعه.

أشارت المرأة إلى نقطة في السقف، وقام الجنود بعمل فتحة في الجدار وعثرت الأرمل المحظوظة على مائة ريال فرانسي، كان زوجها قد خبأها هناك، ثم نزلت إلى الطابق الأرضي من منزلها حيث أزاحت عمودًا صغيرًا وأشارت للجنود إلى فتحة صغيرة، وعندما قاموا بفتحها عثروا على قمح وذرة وأوعية كثيرة من الطعام. كانت سعيدة بما عثرت عليه، وعادت إلى «السقا» تحمل كل ثروتها، واكتسب الباشا ورجاله الشرف بأن حقوق الملكية محفوظة في هذا الإقليم.

تزوج الشريف الكبير مرتين منذ مغادرتنا الطائف وتزوج للمرة الثالثة، أما زوجته لهذه المرّة فإنها شقيقة واحدة من زوجات الأمير علي بن مجثل.

١٦ سبتمبر ١٨٣٤م - في مناظر -

إن الرصاص الذي عثرنا عليه في المعسكر على إثر الهجوم المباغت لم يكن مدوّر الشكل، لأن البدو لا يستخدمون الصهر والتشكيل للرصاص، إنما يأخذون قطعة من الرصاص ويطرقونها بالمطرقة ويشكلون بهذه الطريقة شكلاً اسطوانيًا يتناسب مع قطر فوهات بنادقهم. وعندما ينتهي العمل يقومون بتقسيم الشكل الاسطواني إلى قطع صغيرة، ويُشذّبون أو يُلمّعون أطرافها بشكل خفيف.

في مساء هذا اليوم أُشيع في المعسكر أن الباشا قد قرر الذهاب إلى ريدة. وفي الساعة الواحدة صباحًا وُزع على الجنود «أونصات» من الدقيق، وصدرت إليهم الأوامر بعمل خبز. والخبز عادة لا يستخدم إلا في حالة الحرب فقط.

وكان يشرف على تنفيذ هذه العملية رجل بيده بندقية، وكان يواجه مشكلات مع صانعي الخبز لعمله حسب المواصفات المطلوبة. إنما استعاد الجيش شيئًا من الأمل، والكل منهمك في أداء واجبه، وكل الصيجان وهى عبارة عن قطع كبيرة من الصاج مصنوعة من الحديد لعمل الخبز. . أصبحت مملوءة بالخبز إلى أطرافها. وكان الجنود يأملون أن يخرجوا من حالتهم المتعبة، ولكن يبدو أن الباشا أعاد تفكيره في موضوع مهاجمة ريدة، واعتقد أننا سنموت جميعًا من الجوع قبل الوصول إلى حصون ريدة، ولكن تفكيره في التراجع إلى الصحراء بدون طعام كان متأخرًا إلا إذا حصلنا على بعض المساعدة من أبناء هذه البلاد.

كان البعض يعتقد أن أقل حركة تراجعية ستغري الكثير من البدو وعندها يُصبح من المستحيل القيام بأي مقاومة. وأحسن ما تبقى من الآراء عقد سلام مع الأمير عايض. وفي هذا المكان الذي نحن فيه. إنه رأي حكيم، ولكن سيكون دائمًا من الخطأ أن يساق المرء إلى موقع زائف، إذ لو علم البدو حقيقة موقفنا فسوف يتركوننا نموت، وبعد ذلك يأتون ويضيفون اللمسة الأخيرة بالقضاء على ما تبقى.

إن أسلم طريقة هي أن يتركونا نعاني من مشكلة المجاعة، وينتظروا حتى يتم القضاء على آخر شخص منا، ولكن إذا حصلنا على معاهدة سلام فإنها لن تتم لأن البدو يخشون من موت وهمي للجيش والذي سينهض عند رؤيتهم للبدء في قتال مستميت.

في الساعة الثانية عشرة من بعد الظهر أحاط العدو بمعسكرنا بأعداد كبيرة تفوق أي توقع. وبعد الساعة الواحدة حدثت عدة اشتباكات محيطة بمعسكرنا وأقام المصريون حوائط صغيرة ليحتموا خلفها من الرصاص. وفي حوالي الساعة الثانية أعطيت الأوامر إلى فرقتين بالتحرك. وقام الباشا بقيادة القافلة بصحبة أحسن رجاله [1]. امتطيت جوادي ورافقتهم.

يحتل العسيريون كل المناطق المؤدية إلى الجبال. يختفون وراء الصخور أو وراء حصون بنوها لهذا الغرض، إما على شكل دائري، أو على شكل «حدوة الفرس»، أو الحرف الإنجليزي (U).

وسرنا على ضفةٍ ذات ماء مالح. أما بطن الوادي فإنه وعْر ومصادر مياهه تنبع من أعالي المرتفعات لهذا المكان. إنها تشكل أعلى نقطة في هذه الجبال، وتكوّن أهمية بالغة في التكوين الـ «هيدروجرافي» لتوزيع المياه لهذه

---

(١) بكر بك.

البلاد، حيث تنقسم المياه المنحدرة تجاه الداخل أو تجاه تهامة المتاخمة لساحل البحر الأحمر. وسأعود فيما بعد للموضوع عندما آتي على الوصف الجغرافي لهذا الجزء من الجزيرة العربية.

وحالما وصلنا إلى أعلى هذا الجدول (الوادي) وجدنا قرية «السقا» الصغيرة حيث اعترضت منازلها وحدائقها المغلقة طريقنا إلى الوادي، أطلقت الفرقتان نيرانهما على القرية. أما العدو فقد أخلى مواقعه في الجبال فتتبعناه متسلقين لجبال شديدة الانحدار حتى أننا كنا معلقين على «أعراف» خيولنا.

عثر الجنود في أثناء طريقهم على كثير من القتلى والجرحى من رجال العدو، ومن باب الانتقام أفرغوا فيهم رصاص بنادقهم، بل إنهم أحرقوا بعض الجرحى حتى فارقوا الحياة.

كان عايض نفسه على رأس رجاله في هذه المواقع فتقدم إليّ شخص وقال مشيراً إليه: ذلك هو عايض. فميزته بردائه الأحمر يتسلق الجبل بصعوبة، وينظر إلينا من وقت لآخر، وعندما وصل إلى قمة الجبل اختفى وراء الصخور.

في حوالي الساعة الخامسة مساء تراجع العدو نهائيًا، والفرقتان اللتان تسلقتا إلى أعلى الجبل لم تعودا تبصران أحدًا، واختفى الأعداء جميعهم، لربما كانت هذه فرصة للنزول ومهاجمة «ريدة» الآن، مستغلين فرصة ارتباك العدو، ولكن الباشا لم يجرؤ على عمل ذلك بل انه أعطى قواته الأمر بالانسحاب.

لقد قبض العدو على كثير من المصريين كأسرى حرب في حروبهم الماضية مع المصريين، وكان - أيضًا - هناك جنود مصريون انضموا إلى

صفوف العسيريين عن رضا واقتناع مفضلين الحرية العسيرية على عبودية جيش محمد علي، هؤلاء الجنود استقبلوا بكل إكرام من مواطني هذه البلاد.

زوج بعض الرؤساء بناتهم لهؤلاء الرجال، ومنحوهم أراضي زراعية لزراعتها لحسابهم. هذه الهجرات أدخلت نمطًا حضاريًا جديدًا على هذه البلاد، وأدخلوا النظم الحديثة في صفوف الجيش (العسيري)، وأدرك القادة أن إسهاماتهم أضافت خوفًا وقلقًا في صفوف العدو.

وضرب الطبل الضربة الأولى معلنًا الانسحاب، وما أن تحركت الفرقة الأولى نزولًا من الجبل حتى أمطرها رجال العدو الذين خرجوا من وراء الصخور ومن الأدغال بوابل من رصاص بنادقهم.

تصدت الفرقة السابعة للهجوم بينما واصلت الفرقة السادسة عشرة انسحابها إلى أسفل الطريق.

أما الشريف الكبير فقد حمى جيشه بطريقة جريئة جدًا. كان الجيش العسيري على وشك أن يقسم جيشه إلى قسمين إلا أنه عبر بهم مجرى الوادي بشجاعة تحت وابل من رصاص العدو.

رافقت أحمد باشا ممتطيًا حصاني. كنا مندهشين من ظهور شبح العسيريين الذي لم نتوقعه بهذه السرعة، وكان رصاص الأعداء يتساقط من فوق رؤوسنا حيث كان بعضهم يضرب من وراء الصخور والأدغال، وأصاب عدة منها الرجال والخيول لسوء الحظ. وواصلنا انسحابنا إلى أبعد ما نستطيع، واعترضتنا بعض المصاعب، حيث أصبح امتطاء الخيول غير ممكن، فأجبرنا على أن نترجل ونمشي على الأقدام ونقود خيولنا، بينما قامت الفرقة السادسة عشرة بتغطية انسحابنا أمام العدو حتى وصلنا إلى مقر المعسكر.

ومن شدة الخوف شققت حذائي وخلعته من قدمي ومشيت حافيًا حتى وصلت إلى ضفة الوادي، وهناك امتطيت حصاني وانطلقت به في أقصى سرعة باتجاه معسكرنا.

أعلن أحد الضباط صفارة الإنذار بالتراجع، وفي ذلك الوقت قام أحد الضباط الأطباء بأخذ سيفه وذهب باتجاه مكان العدو، بينما أصدر إليه م. شديفو أمرًا قاطعًا بعدم التقدم. وقال يذكره: «إن مهمة الأطباء في الجيش هو تقليل عدد المصابين لا إضافة أعداد إليهم». وأضاف قائلًا: «إنها لغلطة شنيعة أن تعرض نفسك لهذا الخطر، إنك ستحرم الجنود من خدمة كبيرة، ولهذا فقد وضعه «م. شديفو» في السجن لمدة يومين.

١٨ سبتمبر ١٨٣٤م (في مناظر)

كانت خيمتي منصوبة بالقرب من خيمة الباشا. وعندما نهضت هذا الصباح اكتشفت وجود نعجتين مقتولتين خنقًا. من المؤكد أن الذئب هو الذي قتلها، فآثار أنيابه مازالت ظاهرة في هاتين النعجتين. إنه لمن حسن الحظ أن هذا الحيوان فضل صيدًا سهلًا بدلًا من مهاجمة أحد منا، بينما كنا نائمين في خيمة مكشوفة.

١٩ سبتمبر ١٨٣٤م

في الساعة الحادية عشرة أعلنت صفارة الإنذار أو «الرقيب» معلنة عن ظهور مجموعة من العدو في الجبال الشمالية الشرقية، وأنهم ينحدرون بحذر مختفين وراء الصخور بشكل مستمر. وأصبح من الواضح أنهم جاهزون لإطلاق النار على أي إنسان يتجول (بدون حذر) خارج المعسكر.

بعد ذلك بقليل من وجودهم أجبر «ركَبة الجمال» بإحضار جمالهم إلى المناطق القريبة من المعسكر. وأصدر الباشا أوامره إلى كتيبتين من الفوج (أو الفرقة) السابعة وخيالة عابدين بك بالتصدي للعدو. وتولى القيادة بنفسه. وامتطيت حصاني ورافقت هؤلاء الرجال، وحينما وصلنا إلى مكان مكشوف، أطلق علينا العدو جميعًا نيرانه وجرحوا بعض الخيالة.

ثم ضربت الطبول ألحانها، واستعد الجيش النظامي لمواجهة العدو قبل أن يتمكن الأخير من شحن بنادقهم، وتراجع العدو أمام هجمة سريعة من الجيش النظامي إلى مستوى أعلى الجبل.

صدرت الأوامر إلى محمد أغا (وهو من مالطا اعتنق الدين الإسلامي ورئيس واحدة من الكتائب) بأن يعمل كمينًا للعرب.

بعد هذا الهجوم أصبح واضحًا أنه نفذ مهمته بشجاعة ونجاح. وفي هذا الوقت وردت إلينا الأخبار أنه قد تم اللحاق بالعسيريين على جانب الوادي الذي عبرناه في وقت مبكر.

إن حافة الضفة عميقة جدًا ومن غير المعقول أن يتمكن العدو من اجتيازها بكل مدفعيته وآلاته الحربية.

كنا نعتقد أن من الأفضل محاصرة العدو بدلًا من إعطائه فرصة للهروب عبر هذا الممر المستحيل. ولكن رجال البدو علقوا بنادقهم إلى صدورهم والتفوا مثل الثعابين من فوق هذه المنخفضات الخطيرة، مستخدمين أيديهم وبطونهم وسيقانهم وأوراكهم ليصلوا إلى الأرض الصلدة، متزحلقين نزولًا من ذلك المنخفض الصعب. ولكن البعض منهم ولسوء الحظ سقط من على ذلك الجرف، ووصل إلى الأرض ميتًا.

انساق رجل في حوالي الأربعين من عمره - على الرغم من إرادته -

باتجاه حافة الجرف أو (المنخفض)، وهناك لم يكن أمامه أكثر من خيار فوقف صامدًا ينتظر ملاقاة عدوه.

دارت مبارزة قاسية بين هذين الخصمين على حافة هذا الجرف الخطير، كان الإغريقي مسلحًا بسيف، بينما البدوي العربي مسلحًا برمح في يده.

حملقا في بعضهما لفترة قصيرة. يبدو أن (الأوربي) مستأنس إلى مكانته الأكثر تميزًا والتي تظهر جليًا في ابتسامته المملوءة بالغيظ التي يرمق بها خصمه، يتمنى لو يدفع بعدوه إلى هاوية الجرف إلا أنه كان يبدو خائفًا من أن يجرّه خصمه معه، فامتنع عن ذلك. ولكن ما هي إلا برهة حتى بدأت المعركة. حارب العربي بصلابة وأصاب الإغريقي في يده، ولكن الأخير هوى بسيفه على العربي فتلقاه بقبضة يده فجرحه، فأصبح الأخير غير قادر على مسك رمحه بعد ذلك، فاعترف البدوي (العربي) بخسارته للمعركة، وطلب العفو من خصمه، ولكن عدوه لم يأبه حتى بالاستماع إليه، وبضربة واحدة قطع رأسه وعلّقه على ذؤابة السيف بعد أن ألقى بجثته إلى هاوية الجرف، وعرض الرأس الذي مازال يقطر دمًا على الشريف الكبير ليثبت انتصاره.

وبهذه الطقوس الهمجية انتهت العداوات. وحسب الإحصائية رزيء الجيش باثنين من القتلى وخمسة من الجرحى. أما خسائر العدو فمن المحتمل أن تكون أعلى، ولكن من المستحيل تقديرها.

٢٠ سبتمبر ١٨٣٤م

ترددت في المعسكر هذا اليوم قصة مذهلة. بالأمس عندما هرب البدو (العرب). كان من ضمن من طاردهم عربي من أتباع الشريف محمد بن

عون. هذا العربي كان يتمتع بقوة هائلة، جرى يطارد واحدًا من العسيريين بكل شدّة، إلا أن الأخير هرب بكل خفة وسرعة، وفجأة زرق عدوه برمح حاد إلّا أنه أخطأه فقام الأخير بسل سكينه ورمى بها عدوّه فأصابه في كتفه إصابة مميتة فخر صريعًا في مجرى الوادي فجرفه السيل.

أما هذا العربي فهو من سكان مكة، وكان من المنتسبين لخدمة الشريف الكبير، والرمح الذي استخدمه ملكًا للشريف محمد بن عون ومصنوع في اليمن. وأسف الشريف على فقدان ذلك الرمح ذي السنان الحاد المصنوع من الحديد الجيد وقناته بذات الصناعة اليدوية المتقنة.

عادة رمي العدو بالسكين أمر شائع في الجزيرة العربية، حدثت في أوقات كثيرة في الحرب بين جيشين خاصة في الصفوف الأولى من الجيش، وبهذه الطريقة قتل رئيسنا[1] في معركة خميس مشيط.

٢١ سبتمبر ١٨٣٤م

وصل في هذا اليوم إلى المعسكر سلطان ابن عبده[2] ليطلع على رأي الباشا تجاه الوضع.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الشيخ قد لجأ إلى مكة عندما طرده الأمير علي أمير عسير من المنطقة، ولكنه سيعود إلى مكة في حالة أي تطور جديد للأحداث[3].

---

(١) لم يذكر لنا تفاصيل عن هذا الرئيس وهل هو أوربي أم عربي؟.

(٢) سبق التعريف به.

(٣) وهذا ما حدث فبعد توقيع اتفاقية مناظر عاد سلطان بن عبده إلى الحجاز مع الحملة ونجده بعد خمس عشرة سنة يرافق الشريف محمد بن عون في حملته على اليمن عام (١٢٦٥هـ/١٨٤٩م) ويكون أحد مستشاريه في الشئون اليمنية والعسيرية، ثم لا تشير المصادر بعد ذلك إلى شيء من أخباره (المترجم).

٢٢ سبتمبر ١٨٣٤م

منذ وصولنا إلى مناظر أصبح كثير من الجنود المصريين يدربهم المرتزقة. والآن انضموا إلى جيش (الأمير) عايض. ما بقي هذا التدريب سريًّا حتى اليوم، وأصبح الكل يعرف عنه. ولكن أصبح متخوفًا من أن بعض الجنود سيهرب من الجيش تحت ضغوط الجوع والفقر.

٢٣ سبتمبر ١٨٣٤م

على الرغم من مشكلاتنا التموينية، فلا يوجد في المستشفى إلا عدد قليل من المرضى. ولكن عند عودتي من العمل أخبرني السيد «شديفو» بأنه شاهد مريضًا مصابًا بأعراض التيفوس (Thypus).

٢٤ سبتمبر ١٨٣٤م

وصـل إلى المعسكـر للتـوّ مبعوثو «مختار أغا» المرابط في تهامة قرب القنفـذة، ومن المحتمل أن رئيسهم يعرض تعاونه إذا لزم الأمر. ونحن نعـرف أنـه على رأس قوة مكونة من أربعمائة رجل، إنما الخطابات التي أرسلت تحمـل الجـواب السلبي. ولكن النـاس المـطلعين على الأمـور يعتقدون باحتمال توقيع معاهدة سلام مع الأمير عايض في الوقت القريب.

٢٦ سبتمبر ١٨٣٤م

انتشرت في صبـاح هـذا اليوم إشـاعـات مفـادها أن عايض أرسل مبعوثين لمقابلة الباشا مهمتهم بحث مشروع توقيع اتفاقية سلام.

وفي المساء خرج الكل من خيامهم ينتظرون وصول الوفد. وفي بعض الظروف يثير أي حدث حب الاستطلاع عند كل إنسان.

يبدو أن أمين بك مساعد القائد العام لا يقل إثارة عنا أو عمّا نحن عليه، ولكن غابت الشمس ولم يحضر أحد. وبالرغم من قلقه فإنه لاحظ أن وقت الصلاة قد حان، فتوضأ في مكان عام، ثم باشر بأداء الصلاة آملًا من الله أن تُثمر هذه المحادثات عن نتائج حسنة.

ولكن ما أن أرخى الليل سدوله، حتى أشعلت عدة مسارج محمولة في مكـان مفتـوح معلنـة وصول الوفد الممثل للأمير عايض. حاول كل شخص أن يخرج لملاقاتهم. كان الوفد يتكون من ثلاثة أشخاص هم أقرب إلى الشيخوخة منهم إلى الشباب، تزينهم لحاهم الطويلة وعيونهم الحادة، ويرتدون الكوفيات على رؤوسهم تغطيها معاطف كبيرة.

أمـا ملابسهم فشبيهـة بملابس البدو، ولكن (المآزر) - جمع مئزر - الملونة فيرتدونها فوق ملابسهم، تنم عن مكانتهم ومراتبهم الرفيعة التي تميزهم عن بقية البدو العاديين.

وأما الباشا المبتهج والذي خرج لمسافة طويلة إلى الأمام فقد فاتته لحظة وصولهم، عاد بعدها بوقت قصير واستضاف المبعوثين في داخل خيمته، وحالما تفضلوا بالجلوس، أبقى الباشا فريقًا من رجاله المهمين الذين يثق بهم.

وبعـد انتظار دام ثلاث ساعات ظهر الجنرال والمبعوثون إلى خارج الخيمة حيث صرح القائد قائلًا:

«لقد تم توقيعنا على معاهدة السلام».

أظهـر العسـيريون اعتـزازًا كبيرًا في طريقة تعبيرهم، ولكن اعتبارًا للظروف الراهنة يجب أن لا نظهر أي شكوى عنهم.

وأورد الشروط الرئيسية للمعاهدة:

١ - سيقوم المصريون بمغادرة «مناظر» في صبيحة يوم الغد، وسيتجهون باتجاه البحر الأحمر.

٢ - تأمين طريق انسحابهم أثناء عبورهم للمناطق (الممتلكات) التي سيعبرون من خلالها.

٣ - ستحصل عسير على استقلالها التام.

٤ - على عسير أن تنسى طلب الانتقام ضد أي شخص أو أشخاص اشتركوا في هذه الحرب.

٥ - يقوم رؤساء الأمن لدى الأمير عايض بمرافقة الجيش المصري ليؤكدوا على أن الاتفاقية ستحترم(*)، ثم يعودون إلى وطنهم حالما يتم عبورنا الحدود.

لم يذكر شيء بخصوص الرجال الذين اعتزلوا جيش عايض، ولم يذكر كذلك شيء عن دوسري أبونقطة الذي سيحشد خصمه ضده كل قواته.

(*) انظر رسالة الأمير عايض إلى شريف (أبو عريش)، نشرها محمد بن أحمد العقيلي في كتابه: «المخلاف السليماني» جـ ...... ص ......

المقياس الحراري في «مناظر»

الشهر	اليوم	الصباح	الظهر	الليل
سبتمبر	٢	١٣°	٢٤°	٢٢°
===	٣	١٢°	٢٤°	٢١°
===	٤	١٤°	٢٣°	٢٢°
===	٥	١٢°	٢٢°	٢٠°
===	٦	١٥°	٢٥°	٢٣°
===	٧	١٣°	٢٣°	٢١°
===	٨	١٤°	٢٤°	٢٠°
===	٩	١٣°	٢٤°	٢١°
===	١٠	١٢°	٢٢°	٢٣°
===	١١	١٢°	٢٣°	٢٠°
===	١٢	١١°	٢٣°	١٩°
===	١٣	١٤°	٢٤°	١٩°
===	١٤	١١°	٢٥°	٢٠°
===	١٥	١١°	٢٢°	١٨°
===	١٦	١٣°	٢٢°	٢١°
===	١٧	١٣°	٢٣°	٢٢°
===	١٨	١٢°	٢١°	١٩°
===	١٩	١٢°	٢٣°	٢٢°
===	٢٠	١١°	٢٣°	٢٢°
===	٢١	١٢°	٢٢°	١٩°
===	٢٢	١٣°	٢٣°	١٧°
===	٢٣	١١°	٢٢°	٢٠°

حتى الآن لم يشهد قراؤنا إلا الآلام المضنية. لقد رأونا ونحن نأكل أوراق الشجر والحشائش ولحوم الجمال. لقد رأونا ونحن نصوم اليوم أو أكثر، ورأوا أن نومنا لم يكن إلَّا إغماءات بسيطة بسبب هجمات البدو والمباغتة المتكررة.

ولكن بعد توقيع اتفاقية السلام التي وقعت توًا، نستطيع أن نذهب إلى أي مكان دونما أي شعور بالخوف. ولكن شيئًا واحدًا يجب أن لا يغيب عن البال، وهو المخاطر الطبيعية للصحراء، لأننا سنقطع الصحراء ونحن لا نملك إلا نزرًا قليلًا من التموين، وسنتعرض إلى حرارة الشمس الشديدة وسط صحراء رملية جافة.

الخلاصة

إن هذا الكتاب الذي كتبته ليس تاريخًا للحملة العسيرية منذ مغادرتنا الطائف فحسب بل قد كتبت معلومات عن البلاد والتي كانت ضرورية فقط لحركة سير الجيش. وفيما بعد سأقوم بنشر ملاحظاتنا الجغرافية والتاريخية عن هذا الجزء من البلاد.

وإذا كنت قد تبنيت طريقة الحوار في كل كتابتي، فإنني قد عملت ذلك، لأنني شعرت بأن هذه الطريقة أكثر واقعية.

في الحقيقة عندما تكون جديدًا على منطقة أو بلد، فإنك بحاجة إلى معرفة أسماء الجبال والقبائل، وحضارتها ونمط حياتها الاجتماعية. ولهذا فأنت بحاجة إلى مساعدة رجل من تلك البلاد.

والطريقة الطبيعية الوحيدة التي تنشأ بينك وبينه هي طريقة الحوار. هذا هو (المنطق) الطبيعي. وأنا حاولت الحفاظ والاستمرار على هذا الأسلوب في كتابتي.

أما خارطتنا فقد اتخذنا البحر الأحمر كقاعدة لتوضيح الأغراض، وبموجب خارطة (موريسبي). . وكذلك المواقع المعروفة مثل جدة ومكة والقنفذة والطائف، أما رحلتنا فكان خطها يرسم باستخدام البوصلة.

إنه لأمر مؤسف جدًا بالنسبة لي أنني لم أعرف عن كتاب السيد (جومارد) الأخير عن (الجزيرة العربية)، وإلا لاستفدت من بعض المعلومات الممتازة في عمل ذلك العالم، والذي لاسمه قيمة لدى العلم. أرجو أن أستفيد منه فيما بعد.[1]

---

(١) من المعروف أن السيد جومارد وهو جغرافي فرنسي لامع رافق حملة نابليون على مصر =

= وكتب عن جغرافيتها، ولكن ما يهمنا من أعماله تلك هي الأعمال الجغرافية القيمة عن جغرافيتي عسير ونجد حيث أفرد لكل منها دراسة تعدان من أدق الدراسات الجغرافية عن هاتين المنطقتين وسأعمل بحول الله على نشرهما قريباً. (المترجم).

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

ابن بشر، عثمان.

- «عنوان المجد في تاريخ نجد» الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

البلادي، عاتق.

- «بين مكة وحضرموت». دار مكة ١٤٠٢/١٩٨٢م.

ابن بليهد، محمد بن عبدالله.

- «صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار». الطبعة الثانية. لم يُذكر مكان وتاريخ الطبع.

بيرين، جاكلين.

- «اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم» نقله إلى العربية قدري قلعجي دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

الجاسر، حمد.

- «في سراة غامد وزهران». الرياض ١٩٧١م.

الجاسر، حمد.

- «معجم قبائل المملكة العربية السعودية». دار اليمامة، ١٤٠١هـ.

الحبشي، عبدالله.

- «حوليات يمانية»، ١٢٢٤ - ١٣١٦هـ اليمن في القرن التاسع

عشر الميلادي، صنعاء ١٤٠٠/١٩٨٢م.

حمزة، فؤاد.

- «في بلاد عسير»، الرياض ١٩٦٨م.

دحلان، أحمد زيني.

- «خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام»، بيروت، الدار المتحدة.

الرافعي، عبدالرحمن.

- «تاريخ الحركة القومية»، القاهرة.

آل زلفة، محمد بن عبدالله.

- «دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتأثيرها على مقاومة بلاد عسير للحكم التركي - المصري» ١٨١١ - ١٨٤٠م في طريقه للنشر.

آل زلفة، محمد بن عبدالله.

- «دراسات من تاريخ عسير الحديث» الرياض ١٤١٢/١٩٩١م.

آل زلفة، محمد بن عبدالله.

- «ذاكرة الأمة»، الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

آل طالع، عبدالكريم.

- «قبيلة شهران بين الماضي والحاضر». الرياض، ١٤٠٤/١٩٨٤م.

عبدالرحيم، عبدالرحيم.

- «من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي»، ١٢٣٤ - ١٢٥٦/١٨١٩ - ١٨٤٠م الدوحة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

العقيلي، محمد أحمد.

- «تاريخ المخلاف السليماني»، الرياض ١٣٧٧هـ.

القثامي، مناحي بن ضاوي.

- «الموجز في تاريخ الطائف قديمًا وحديثًا».

ابن مسفر، عبدالله.

- «السراج المنير في سيرة أمراء عسير». بيروت ١٣٩٨/١٩٧٨م.

ابن مسفر، عبدالله.

- «اخبار عسير». بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩م.

الهمداني.

- «صفة جزيرة العرب»، الرياض ١٩٧٤م.

النعمي، هاشم.

- «تاريخ عسير في الماضي والحاضر»، جدة، بدون تاريخ.

- «الدليل الجغرافي والإداري لمنطقة عسير»، دليل غير منشور، إعداد، إمارة منطقة عسير.

- مجلة العرب، ح ٧، ٨ س ٢٤ محرم/ صفر ١٤١٠هـ أغسطس/ سبتمبر ١٩٨٩م والعدد الذي يليه.

المصادر والمراجع الأجنبيـة

Banks, William John
Adventures of Jiovanni Finati London, 1828.

Burckhardt, John lewis
Notes on the Bedouins & Wahabys. London 1830.

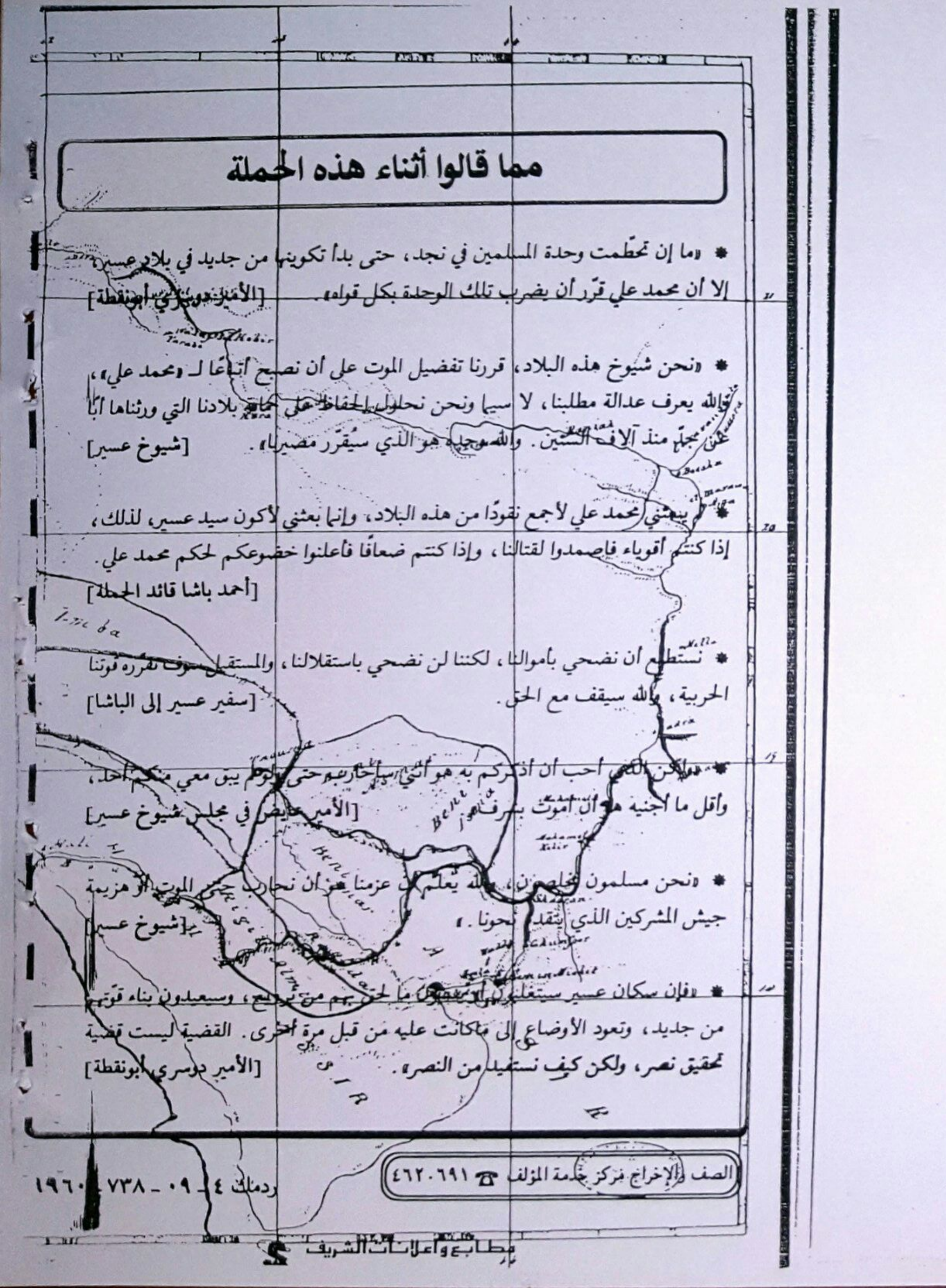
Travels in Arabia, London, 1968.

Cornwallis, Sir Kinahan
Asir Before World WarI New York N.D.

Jomard, Edme Francois.
Etudes geographiques et historiques sur l'Arabie, accompagneés d'une carte de l'Asyr et d'une carte geńeŕale de l'Arabie; suivies de la relation du voyage de Mohammed - Aly dans le Fazoql avec des observations sur l'etat des affaires en Arabie et en Egypte. Paris 1839.

Philby, Harry st John
Arabian Highlands N. York, 1979.

Al-Zulfa, Mohammed A.
Ibn Abd El-Wahhab's Call and its impact on the Asir resistance to Turkish - Egyptian Rule 1811 - 1840 M. A. Thesis, Kansas Univ. 1979.



مما قالوا أثناء هذه الحملة

* «ما إن تحطّمت وحدة المسلمين في نجد، حتى بدأ تكوينها من جديد في بلاد عسير، إلا أن محمد علي قرّر أن يضرب تلك الوحدة بكل قواه».
[الأمير دوسري أبونقطة]

* «نحن شيوخ هذه البلاد، قررنا تفضيل الموت على أن نصبح أتباعًا لـ «محمد علي»، والله يعرف عدالة مطلبنا، لا سيما ونحن نحاول الحفاظ على حماية بلادنا التي ورثناها أبًا عن جدّ منذ آلاف السنين. والله وحده هو الذي سيقرّر مصيرنا».
[شيوخ عسير]

* «لم يبعثني محمد علي لأجمع نقودًا من هذه البلاد، وإنما بعثني لأكون سيد عسير، لذلك، إذا كنتم أقوياء فاصمدوا لقتالنا، وإذا كنتم ضعافًا فأعلنوا خضوعكم لحكم محمد علي».
[أحمد باشا قائد الحملة]

* «نستطيع أن نضحي بأموالنا، لكننا لن نضحي باستقلالنا، والمستقبل سوف تقرره قوتنا الحربية، والله سيقف مع الحق».
[سفير عسير إلى الباشا]

* «ولكن الذي أحب أن أذكركم به هو أنني سأحاربهم حتى ولو لم يبق معي منكم أحد، وأقل ما أجنيه هو أن أموت بشرف».
[الأمير عايض في مجلس شيوخ عسير]

* «نحن مسلمون مخلصون، والله يعلم أن عزمنا هو أن نحارب حتى الموت أو هزيمة جيش المشركين الذي يتقدم نحونا».
[شيوخ عسير]

* «فإن سكان عسير سيتغلبون على ما لحق بهم من ترويع، وسيعيدون بناء قوتهم من جديد، وتعود الأوضاع إلى ما كانت عليه من قبل مرة أخرى. القضية ليست قضية تحقيق نصر، ولكن كيف نستفيد من النصر».
[الأمير دوسري أبونقطة]

الصف والإخراج مركز خدمة المؤلف ☎ ٤٦٢٠٦٩١
ردمك ٤ - ٠٩ - ٧٣٨ - ١٩٦٠
مطابع وإعلانات الشريف